

كلاسيكيات جدل

JADAL CLASSICS

الرواية الأولى من سلسلة "حكايات من بلدة باريسشاير"

أنتوني ترولوب

راعبي المأوى

ترجمة: زينب بني سعد



منشورات جدل
JADAL PUBLISHING

رواية

رابعي المأوى

راعي المأوى

أنتوني ترولوب

ترجمة: زينب بني سعد
العنوان الأصلي باللغة الإنجليزية

The Warden

Anthony Trollope

1855

الطبعة الأولى: أغسطس 2022م

ISBN: 978-9921-774-67-2

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر ©

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر. اعملوا معنا في نشر وعي الحفاظ على حقوق الطبع والنشر، لنجعل عملية الإبداع أكثر أماناً.



منشورات جدل ©

JADAL PUBLISHING

دولة الكويت

المملكة العربية السعودية

جمهورية مصر العربية

(+965) 99900912

(+966) 554658820

WWW.JADALBOOKSTORE.COM

JADAL.PUBLISHING

JADALBOOKSTORE

J A D A L

مشروع ترجمة أعمال الروائي أنتوني ترولوب – منشورات جدل
الرواية الأولى من سلسلة "حكايات من بلدة باريسشاير"

أنتوني ترولوب

رواية

راعبي المأوى

ترجمة

زينب بني سعد

مقدمة

راعي مأوى بارچستر، هي أول رواية في سلسلة الروائي البريطاني أنتوني ترولوب المعروفة باسم «حكايات من بارسيتشاير»، والرابعة في تسلسل رواياته بشكل عام. نُشرت عام 1855 تدور أحداثها في كاتدرائية مدينة خيالية أطلق عليها اسم بارچستر، حول أكثر شخصيات ترولوب شهرةً وهو القس سيتموس هاردينغ. استوحى ترولوب فكرتها من زيارته إلى مدينة سالزبوري غرب إنكلترا وفقاً لما يذكره في سيرته الذاتية حين كان يعمل موظفاً في مكتب البريد، إذ تم إرساله إلى هناك للكشف عن الطرود الريفية عام 1851م.

«أثناء تأدية عملي في سالزبوري، تشكلت قصة راعي مأوى بارچستر في ذهني بينما كنت أتجول هناك في إحدى مساءات منتصف الصيف حول ضواحي الكاتدرائية. ومن هنا جاءت سلسلة من الروايات التي كانت بلدة بارچستر موقعها الرئيسي، بأساقفتها وكبار كهنتها ورؤساء شمامستها» وهو يستحضر الجمال الهادئ لكاتدرائية سالزبوري في دعوة منه للحفاظ على تقاليد الكنيسة القديمة.

يكشف ترولوب من خلال هذه الرواية عن إشكالات المجتمع في العصر الفيكتوري وعن ضيق أفق الحياة خلال تلك الفترة. يذكر المحامي والمؤرخ والروائي الأمريكي لويس أوكينكوس:

«تكشف ثيمة رواية راعي مأوى بارچستر، نوعية المشاكل الاجتماعية التي لطالما استهوت تفكير ترولوب: الصدام الحتمي بين الامتيازات الممنوحة قديماً والوعي الاجتماعي الحديث.»

يحكي لنا ترولوب في سيرته الذاتية كيف صدم بالنهجين المتضادين للشؤون: فالشرّ الأول يتمثل في استحواذ الكنيسة على الأموال والأوقاف المخصصة للأغراض الخيرية، والتي سخروها لتصبح مورداً مالياً ضخماً لكبار الشخصيات في الكنيسة. وقد وظّف ترولوب قضية مأوى حيرام للمسنين والفقراء، ليحاكي قضية مأوى سانت كروس في وينشستر الذي أسسه هنري دي بلوا في القرن الثاني عشر، الذي تولى شؤون رعايته وإدارته فرانسيس نورث ابن شقيق رئيس وزراء الملك جورج الثالث، الذي أصبح إيرل غيلفورد عام ١٨٢٧.

حتى أن ترولوب اعترف لصديقه المؤرخ إدوارد أغسطس فريمان، في الأسابيع الأخيرة من حياته، أن بارچستر كانت في الحقيقة وينشستر وأن مأوى حيرام هو مأوى سانت كروس نفسه.

أما الشرّ الثاني، كان نقيضه تماماً، إنه يتمثل بقسوة الصّحف تجاه المستفيدين من هذه الإيرادات، والذين لا يمكن اعتبارهم المذنبين الرئيسيين في هذه القضية. بدأ تأثير الصحف يشتد خاصة في تلك الفترة، إذ احتلت الكنيسة مكاناً مركزياً في الوعي الجمعيّ الفيكتوريّ بحيث لا ينبغي التقليل من تأثيرها على الحياة الاجتماعية والثقافية للأمة. وقد تابع الناس أخبار انشقاقاتها الداخلية ونزاعاتها باهتمام عام متعطش. وفي تلك الفترة على وجه الخصوص، كانت ثمة انقسامات داخل كنيسة إنكلترا بين الكنيسة السفلى «بجناحها الإنجيلي» التي تميل بشكل خاص إلى تقليل التركيز على الكهنوت والأسرار والشعائر المقدسة في العبادات وغالباً للتأكيد على المبادئ الإنجيلية» وبين حزب الكنيسة العليا، المكون من التقليديين ومستوحى من حركة أكسفورد، التي تدعم الأسرار المقدسة وطقوس العبادات والموسيقا الدينية.

من الناحية الطبائعية والتقاليد العائلية، كان ترولوب مرتبطاً بالجناح التقليديّ للكنيسة، والذي يمثله في هذه الرواية رئيس الشماسة الدكتور غرانтли، ووالده أسقف بارچستر، وراعي المأوى السيد هاردينغ، الذي يشغل أيضاً منصباً رفيع المستوى في الكاتدرائية. يتم الكشف عن ولاء ترولوب - شخصياً - في نهاية الرواية، في اعتذاره عمّا اعتبره تمثيلاً المشوّه للكنيسة العليا في شخصية رئيس الشماسة العدواني الذي يُعدّ مدافعاً قوياً عن قرون من النفوذ الكنسيّ والسياسيّ الذي كان في متناول يديه.

يؤرخ ترولوب في هذه الوقائع التاريخية ضمناً في روايته التي تُمثل «تأريخ ضمير رجلٍ مُسنّ» كما يقول هنري جيمس، من خلال استكشافه لتجربة السيد هاردينغ في انحداره الماديّ وخساراته، لكنه يؤكد بذلك على الأساس الفردي للاختيار الأخلاقي، والذي بدونه في النهاية، لا يمكن الحفاظ على السلامة الأساسية للمؤسسات الاجتماعية مثل الكنيسة. كما إنها رواية ذات أبعاد سياسية بحتة بمعنى أن نزاهة الفرد معرضة لخطر الهزيمة والسحق بين الضرورات المؤسسية والاجتماعية المتعارضة، صاغها ترولوب في إطار من السخرية من

جميع الأطراف المشار إليها حتى المُصلحون الذين انطلقوا في مساعيهم على دروب التجديد ودرء المفسد.

زينب بني سعد

قالوا عنها:

سيظل أنتوني ترولوب أحد أكثر الكتّاب الجديرين بالثقة ممن أرشدوا قلوب البشرية إلى سبر أغوارهم. أما راعي مأوى بارچستر هي ببساطة، تاريخ ضمير رجلٍ مُسنٍّ.

هنري جيمس

تكشف ثيمة «راعي مأوى بارچستر» نوعية الإشكالات الاجتماعية التي لطالما استهوت تفكير ترولوب: الصدام الحتمي بين الامتيازات الممنوحة قديماً والوعي الاجتماعي الحديث.

لويس أوكينكلوس، محام ومؤرخ وروائي أمريكي.

إنَّ الطريق إلى مأوى حيرام هو لمحة عن تاريخ الحقبة الفيكتورية المبكرة.

ج. ف. أ. بيست

تدور أحداث «راعي مأوى بارچستر» في عهد إنكلترا الفيكتورية، ويستعرض من خلالها ترولوب تعقيدات الدوافع البشرية والأخلاق الاجتماعية.

بلاك ستون لإنتاج الكتب الصوتية، الولايات المتحدة

تُسلط «راعي مأوى بارچستر» الضوء على رياء المسيحيين المُكتشف آنذاك، لكنه يستكشف ذلك بلهجةٍ مرحة. إنه عمل إنساني يتسم برؤية واضحة، ويدرس ببراءة قضايا لا تقل أهمية اليوم عما كانت عليه في عهد إنكلترا الفيكتورية.

أوبن رود ميديا، شركة نشر وسائط إلكترونية، نيويورك

تكمُن عبقرية ترولوب في سرد الحكايات بقُدْرتهِ على تحريف ولائك كقارئ، الصفحةُ تلو الأخرى. إنها قصة منسوجة ببراعة، وموضوعاتها لا تقل أهمية عما كانت عليه من أي زمنٍ مضى، وهي قصةٌ عن مبادئ الأخلاق الفردية والعامّة، وعن مفهوم وإمكانات البشرية على فعل الخير.

مايكل سيمونز روبرتس، شاعر وروائي وكاتب إنكليزي

الفصل الأول: مأوى حيرام

منذ بضع سنوات خلت، أقام القس سيتمومس هاردينغ، وهو قَسٌّ يعمل في منصبٍ كنسيٍّ بدخلٍ ثابت، في كاتدرائية بلدةٍ - دعونا نسميها - بارچستر. فلو سميناها ويلز أو سالزبوري أو إكستر أو هيريفورد أو غلوستر، قد يدعي أحدهم بأننا نفتعلُ أموراً شخصيةً مقصودة. وبما أن هذه القصة ستشيرُ - بالدرجة الأولى - إلى وجهاء الكاتدرائية في البلدة المعنية، فإننا حريصون على أن تكون الشخصية البارزة، شخصيةً غير مشبوهة. ولنتصور هنا أن بارچستر بلدة هادئة تقع غرب إنكلترا التي تحظى بكاتدرائيات ذات جمال لافت للأنظار ويقدم معالمها الأثرية أكثر من أي بقعة تنعم بازدهارٍ تجاريٍّ، ذلك أن حرم الكاتدرائية يُشكّل الطرف الغربي من بارچستر، وأن النخبة من أعيان بارچستر هم الأسقف وكبير الكهنة والشمامسة، مع زوجاتهم الموقرات وبناتهم.

وجد السيد هاردينغ نفسه يسكن بارچستر منذ نعومة أظفاره، فصوته العذب وذوقه في الموسيقى الروحية، هما اللذان حددا منصبه وممارسة مهمته. ولسنوات عديدة، كان يؤدي المهمات اليسيرة، بمرتب زهيد مثل أي شماسٍ شاب برتبة أبساليس¹. في سن الأربعين، عاش في حيٍّ صغير جوار الحرم في البلدة، مما طوّر من عمله وحسن من مستوى دخله. وفي سن الخمسين أصبح مرشد المرّتلين في الكاتدرائية. تزوج السيد هاردينغ في سن مبكرة من حياته، وأصبح أباً لبنتين: البكر سوزان، وقد رزق بها في الفترة الأولى من زواجه، والأخرى إليانور التي وُلدت بعد مرور عشر سنوات.

في الوقت الذي عرفنا قراءنا عليه، كان يعيش في بارچستر مع ابنته الصغرى التي كانت في الرابعة والعشرين من عمرها، بعد أن ظلّ أرملاً لسنوات عديدة وقام بتزويج ابنته الكبرى من ابن الأسقف بعد وقتٍ قصيرٍ جداً من شغله وظيفه مرشد المرّتلين. إذ شاعت نميمة في بارچستر، تؤكد أنه لولا جمال ابنة السيد هاردينغ، ل بقي شماساً برتبة أبساليس. ولكن في هذه النقطة، كذب النمامون، كحالهم على الدوام. إذ ما من أحد بين القساوسة من رفاق السيد هاردينغ في الحرم أكثر شعبية منه. وقبل أن يشجب النمامون أمر ترقية السيد هاردينغ إلى مرشد المرّتلين من قبل صديقه الأسقف، ألقوا باللوم على الأسقف جهراً، لأنه لم يُحرّك ساكناً من أجل ترقية رفيقه السيد هاردينغ كل هذا الوقت. على أية حال، تزوجت سوزان

هاردينغ بعد اثني عشر عاماً من القس الدكتور² ثيوفيلوس غرانتلي - ابن الأسقف - ورئيس شمامسة بارچستر وخوري³ أسقفية بلومستيد. ثم أصبح والدها، بعد بضعة أشهر، مرشد المرّتلين في كاتدرائية بارچستر، كهبةً استثنائية من الأسقف⁴.

وصلنا الآن إلى حكاية ظروف غريبة مرتبطة بمنصب مرشد جوقة المرّتلين علينا توضيحها. ففي عام 1434 م، توفي في بارچستر شخصٌ يدعى جون حيرام. وجون هذا صنع ثروةً من تجارة الصّوف في المدينة، وترك - في وصيةٍ له - المنزل الذي توفي فيه، وعدداً من المروج والطرق المحيطة بها قرب البلدة، ما يزال اسمها «حدود حيرام» و«أراضي حيرام»، لإعالة اثني عشر شخصاً طاعناً في السن من العاملين في ندف الصوف ممن يُفترض أنهم ولدوا ونشأوا وأمضوا أيام حياتهم في بارچستر. كما أشار - في وصيته - كذلك، أن تُبنى المآوي للمُعْدَمين، مرفقةً بسكنٍ لائقٍ لراعي المآوى، وأن يتلقى الراعي أيضاً، مبلغاً سنوياً معيناً من إيجارات الأراضي المذكورة. إلى جانب ذلك، أوصى، وهو الذي يملك قلباً ملؤه اللوئام، أن يكون لدى مرشد المرّتلين في الكاتدرائية خيار أن يكون راعي مآوي المُعْدَمين كذلك، إذا ما وافق الأسقف.

تأسس المآوى، ومنذ ذلك اليوم حتى يومنا هذا أخذت أحواله تزدهر. على الأقل، كان المآوى قد تأسس، والتركة قد ازدهرت. ولم يعد هناك وجود لندف الصوف في بارچستر. لذلك قام الأسقف وكبير الكهنة والراعي، الذين تولى كل فردٍ منهم الأمر بدوره، بتقديم طلب للرجال المُسنين، لجلب عدد ممن يعيشون عائلة على الآخرين في حد ذاتهم: البستانيون المرهقون، حفارو القبور العجزة، أو حافظوا غُرف المقدمات الثمانينيون. ممن حصلوا - ولحسن حظهم - على مسكنٍ مريحٍ ويوميّةٍ قدرها شلن واحد وأربعة بنسات، وهي حقهم من المرّتب المخصص لهم بناءً على وصية جون حيرام كما أكدوا ذلك لهم.

فيما مضى، أي في غضون خمسين سنة من الوقت الحالي، لم يتلقَ الندافون غير ستة بنسات في اليوم، وكانت وجبة إفطارهم وعشاءهم يُجهز على مائدةٍ مشتركة من قِبَل الراعي.

وكانت هذه الترتيبات تتماشى بدقةٍ بالغةٍ مع الصياغة الكاملة لوصية حيرام العجوز. ولكن، ساد اعتقاد بأن هذه الترتيبات معقدة، ولا تُناسب ميول الرعاة ولا النزلاء المعدمون. لذلك استبدلوا بيوميّة الشلن الواحد وأربعة بنسات بموافقةٍ مشتركةٍ لجميع الأطراف، بما في ذلك الأسقف وأعضاء المجلس البلدي لبارچستر. وهذا ما كان عليه حال رجال حيرام الاثنا عشر

عندما عيّن السيد هاردينغ راعٍ عليهم؛ ولكن إذا كان من الممكن اعتبارهم موسرين في هذا العالم حسب حالة كل واحدٍ منهم، فإن الراعي المحظوظ أيسرُ حالاً منهم. وأصبحت الأملاك والأراضي التي كانت تنتج التبن وترعى فيها الأبقار في زمن جون حيرام، مخفيةً تحت صفوفٍ من المنازل. وازدادت قيمة الممتلكات تدريجياً، من سنةٍ إلى أخرى، ومن قرنٍ إلى قرن. وغدت مُقدّرةً من قِبَل أولئك الذين يعرفون قيمتها، ويجمعون دخلاً معتبراً من خلالها، ومن قِبَل عددٍ ممن لا يعرفون شيئاً عنها، لتزداد أرباحهم لدرجة تكاد أن تكون مذهلة.

كوّنت عائلة آل تشادويك سمعة حسنة في بارچستر. لقد عاشوا مُحترمين من قِبَل الأساقفة وكبار الكهنة والشمامسة ومرشدي جوقات المُرتلين، حتى أن موتاهم مدفونين في محيط الكاتدرائية. إذ لم يُعرف عنهم قط بأنهم أناس مستبدين يصعب التعامل معهم، وإنما عاشوا دوماً في يسرٍ، معتنين بمنزلهم أيما اعتناء، وشغلوا مكانة مرموقةً في مجتمع بارچستر. كان السيد تشادويك الموجود حالياً سليل أسرة نبيلة المحتد ذات أصلٍ شريف، والمستأجرون الذين يعيشون في تلك الأملاك، فضلاً عن أولئك الذين يعيشون ضمن نطاق ملكية الأسقفية التابعة للأبرشية، كانوا بغاية الرضا للعمل مع وكيلٍ سخيٍّ، جديرٍ بالإعجاب مثله.

وعلى مدى سنواتٍ عديدة، بالكاد كشفت السجلات عن مبالغ عائدات هذه الملكيات، وربما، منذ اللحظة التي نُفِذت فيها وصايا حيرام بالكامل. إذ كانت عائدات الملكية يدفعها الوكلاء أو المؤاكرين إلى الراعي، الذي يُقسّمها بين النزلاء المحتاجين؛ وبعد ذلك يؤدي لنفسه ما يستحق من المال. حتى حلَّ عليهم زمان لم يحصل فيه الراعي المسكين على شيء سوى منزلٍ بجدرانٍ عارية. إذ تعرضت الأراضي للفيضانات. وشاعت الأقاويل أن حدود أراضي بارچستر، أصبحت أرضاً مجدبة. وفي تلك الأوقات العصيبة، بالكاد تمكن الراعي من تقديم الإعانة اليومية لأتباعه الاثني عشر. إلى أن انحسرت الفيضانات وعادت الأحوال إلى عهدها تدريجياً. جُففت الأراضي، وبدأت الأكوخ تظهر على الحدود. وبكل أمانة، كافأ الرعاة أنفسهم ثمن أيام الضراء التي ولّت. وبالتالي، لم يتوقعوا حدوث كوارثٍ أخرى في أيام الخير. وعلى هذا المنوال، ازداد دخل الراعي، جرى توسيع وتزيين البيت البديع الملحق بالماوى. وأصبح المكتب واحداً من أكثر الأماكن المرغوبة للموظائف الكهنوتية اليسيرة الملحقة بكنيستنا. كان ذلك الآن في عطية الأسقف بالكامل، ومع أن كبير الكهنة وجماعة من الرهبان، قد اتخذوا فيما مضى موقفاً حول هذا الموضوع، فقد ظنوا أنه سيكون أكثر

مواتاة لسمعتهم أن يُعيّن الأسقف مرشداً أكثر ثراءً، على مرشدٍ فقير الحال يعينوه بأنفسهم. كان راتب مرشد جوقة المُرتلين في بارچستر يبلغ ثمانون جنيه أسترليني في السنة. وكانت العائدات التي تصدر عن إدارة المأوى تصل إلى ثمانمئة، بالإضافة إلى قيمة المنزل.

ثم شاعت في بارچستر أقاويل، بضع أقاويلٍ سطحية انتشرت على فتراتٍ متباعدة، بأنَّ عائدات ممتلكات جون حيرام قُسمتْ بطريقةٍ غير منصفة. ولكن من الصعوبة بمكان القول بأنها أقاويل من النوع الذي يقض مضجع المعنيين بها. وما فتئت الأقاويل تدور همساً، حتى وصلت إلى أسماع السيد هاردينغ. فشخصية مثل شخصية السيد هادينغ في بارچستر، كان ذائع الصيت للغاية، لدرجة أن حقيقة تعيينه كانت ستُخرس إشاعات أنكى من تلك التي شاعت. غير أن السيد هاردينغ كان رجلاً رحب الباع ولا يتحامل على الآخرين. وبدأ شعور يخامرُه عن إمكانية حقيقة ما يقال. فأعلن في يومٍ تسنّمه المنصب، عن نيته في إضافة بنسين في اليوم كعلاوةٍ لكل فرد من أفراد المأوى، يدفعها من جيبه الخاص، مما يجعل مجموع المبلغ اثنين وستين جنيهاً وأحد عشر شلن وأربعة بنسات. غير أنه أيضاً، أكد للرجال مراراً وتكراراً، ومع أنه آلى على نفسه الاستمرار في دفع المنحة، إلا أنه لا يضمن عهد خلفائه في المنصب. وأنه لا يمكن اعتبار البنسين الإضافيين إلا كمنحةٍ شخصيةٍ منه، وليس من صندوق العائدات. كان معظم النزلاء المعدمين، أكبر عمراً من السيد هاردينغ، وكانوا قنوعين تماماً بالمال الذي يستند عليه دخلهم الإضافي.

بيد أن هذا السخاء من جانب السيد هاردينغ، لم يمرّ مرور الكرام، بل لاقى معارضة، إذ حاول السيد تشادويك إقناعه بالعدول عن ذلك برفقٍ ولكن بصورةٍ جدية. أما صهره العنيد، رئيس الشمامسة، الرجل الوحيد الذي يهابه السيد هاردينغ، فقد اعترض اعتراضاً فورياً، بل شديد اللهجة على مثل هذه المنحة. ولكن الراعي، كان قد أعلن عن قراره قبل أن يتمكن رئيس الشمامسة من التدخل. ذلك أن القرار بات موضع التنفيذ بالفعل. أما مأوى حيرام هذا، فهو بنايةٌ جميلةٌ للغاية. تكشف عن ذوقٍ سليم تحلّى به المهندسون المعماريون الكنسيون في تلك الأيام. يطلُّ على ضفاف نهرٍ صغيرٍ يجري حول حدود حرم الكاتدرائية، كونها على الجانب الأبعد من المدينة. يمرُّ الطريق إلى لندن عبر ذلك النهر بجسرٍ مقنطر رائع. وعند النظر من هذا الجسر، يلاحظ الغريب نوافذ غرف النزلاء المسنين، كل زوج من النوافذ تفصله دعامة صغيرة. ويمتد بين المبنى والنهر، طريق واسع من الحصى. طريقٌ نظيف ومعتنى به على

الدوام. وعند نهايته، تحت حاجز لوح الاقتراب من الجسر، يوجد مقعد كبيرٌ بال، حيث يُرى عددٌ من نزلاء حيرام حيث يجلسون تحت أشعة الشمس أيام الطقس الدافئ. وراء هذا الصف من دعامات الحائط، بعيداً عن الجسر وعن مجرى المياه التي تنعطف بصورةٍ مباغته أيضاً، تبرز الشبابيك المشربية⁵ الجميلة لمنزل السيد هاردينغ، ومرجه المحشوش بأناقة.

يمتد المدخل إلى المأوى من طريق لندن، وهو مكوّن من طريق يعلوه قوس بوابة ضخمة من الحجر الثقيل، غير اللازم، كما قد يتصوره المرء في أيّ زمان، لحماية اثني عشر رجلاً مسناً. ولكنه مواتٍ لمظهر مأوى حيرام الخلاب. عند المرور عبر هذه البوابة، المُشرّعة للجميع من الساعة السادسة صباحاً حتى الساعة العاشرة مساءً، ولا يتم فتحها بعد ذلك أبداً، إلا عند القرع على جرسٍ ضخم من القرون الوسطى ومعلقٌ بشكلٍ معقد، حيث لا يمكن لأيّ دخيل الوصول إلى مقبضه. وحيث بالإمكان رؤية الأبواب الستة لمساكن العجزة، يقبع خلفها حاجز حديديٌّ نحيف، يمر من خلالها أجمل أعيان بارچستر حظاً إلى فردوس سُكنى السيد هاردينغ. والسيد هاردينغ رجلٌ قصير القامة، يشارف عمره الستين. إلا أنّ علامات التقدم بالعمر لم تكن باديةً جداً عليه. فشعره رماديّ، لكنه ليس أشيب. نظره ضعيفٌ جداً، ولكن عينيه صافيتان ومشرقتان، مع أنّ النظارة المزدوجة التي يحملها وتتأرجح في يده ما لم تكن مثبتة على أنفه، تُظهر بأنّ الزمن قد نال من نظر عينيه. يديه ناصعتا البياض صغيرتان وقدميه كذلك. يرتدي رداء الرهبان دائماً، رداءً أسود مشقوف الذيل، وبندطالاً أسود يصل إلى الكاحلين، وجراميق سُود. يُغيظ إلى حدٍ ما، بعض الرهبان العيّابون في الكنيسة بوضع وشاح أسود اللون حول رقبته⁶.

لا يستطيع أقرب أتباع السيد هاردينغ الإقرار بأنه عاش عيشة رجلٍ كادح. فظروف حياته، لم تتطلب منه أن يكدّ في عمله. ومع ذلك، يصعب تصنيفه كرجلٍ متكاسل! فمنذ تعيينه بمنصب مرشد المُرتلين، نشر بكل ما تمكن من جمعه من الورق الرقّي المطلي بالذهب والطباعة، مجموعة من الأناشيد القديمة لجوقة كنيستنا. ومجموعة من البحوث المطولة عن

هنري برسل، وليم كرتج، وجيمس ناريس⁷.

وقد طوّر من أداء جوقة المُرتلين في بارچستر بشكلٍ كبير، والتي أصبحت تحت قيادته، تنافس أيّ جوقة في أيّ كاتدرائية من كاتدرائيات إنكلترا. وقد أدى ما هو أكثر من وظيفته

المعتادة في خدمات الكاتدرائية، إذ كان يعزف على التشيلو يوميًا لأي مجموعة قد تتحلق حوله، أو في أسوأ الأحوال من دون مستمعين تمامًا.

لا بُدَّ أن نذكر صفةً أخرى خاصةً بالسيد هاردينغ، كما قلنا آنفًا، صحيحٌ أن دخله يبلغ ثمانمائة جنيه في السنة، وليس له من أسرته سوى ابنته الوحيدة، ومع ذلك فهو لم يبدُ قطُّ أنه مرتاحُ البال من ناحية الأمور المالية. إذ كلفه مُجلِّد «موسيقا هاردينغ الكنسية» أكثر مما يحسبه الجميع، باستثناء المؤلف والناشر، والقس ثيوفيلوس غرانتلي، الذي لا يسمح لأي سلوك تبذيري يصدر من والد زوجته، بالإفلات منه.

ثم أنه سخيٌّ مع ابنته، إذ أبقى في خدمتها عربةً صغيرةً وزوج من المهور. وهو في الواقع سخيٌّ مع الجميع، ولا سيما مع العجزة الاثني عشر الذين هم بطريقتهم غريبة تحت رعايته. وبمبلغ ثمانمئة جنيه في السنة، لا شك أن السيد هاردينغ في قمة العالم - كما يقول المثل - ولكن، مهما يبلغ من مرتبة عالية، فهو لا يعلو على رئيس الشمامسة ثيوفيلوس غرانتلي، لأنه بشكل أو بآخر مدينٌ لصهره على الدوام، الذي تولى، إلى حدٍ ما، تنظيم الشؤون المالية لمرشد جوقة المُرْتَلِين.

أبصالتس: أي مُنشد أو مُرْتَل وهي رتبة شماسية

يقصد به الملقان وجمعه ملافنة: لقب يُعطى لبعض رجال الدين في الكنائس السريانية اعترافًا بإنجازات قاموا بها في مجال اللاهوت والعقيدة. آثرت الاحتفاظ بترجمة اللقب «دكتور» لسهولة لفظه ومطابقتها لغويا للرتبة والمهنة المقصودة كذلك.

نائب الأسقف

هنا، جاء هذا المنصب كهديّة من قداسة الأسقف على غير المعتاد، لأن مرشد المرتلين هو عضو في هيئة الكهنة أو الكُهان، وعادةً ما يتم تعيينه من قبل كبير الكهنة أو أحد كبار أعضاء الكهنة

النوافذ المشربية أو الشناشيل كما يُشاع في العراق، نافذة ناتئة ترتكز على كتائف البناء

ثياب السيد هاردينغ الدينية هنا قديمة الطراز، إذ كان وشاح الرقبة في زمن حكايتنا أبيض اللون

مؤلفان مشهوران لموسيقا الكنيسة الإنكليزية

الفصل الثاني: مُطْلَح بَارِجِسْتَر

مضى على تعيين السيد هاردينغ في قيادة جوقة بارجستر للمُرتلين عشر سنوات حتى الآن. وللأسف، فإن الأقاويل بخصوص عائدات ممتلكات حيرام شاعت مرة أخرى. لا أحد يحسد على السيد هاردينغ الدخل الذي يتمتع به، والمكان المريح الذي صار إليه بشكلٍ رائع. بيد أن مثل هذه الأقاويل بدأت تُنشر في مناطق مختلفة من إنكلترا.

لقد أكد الساسة الطماعون المندفعون في مجلس العموم، وبسخطٍ واضح جداً، أن القساوسة الجشعين لكنيسة إنكلترا، قد اتخمتهم الثروات التي تركتها المؤسسات الخيرية في الماضي لمواساة العُجْز، أو لتعليم الصغار. لقد وصلت القضية الشهيرة لمأوى سانت كروس⁸ إلى المحاكم القانونية في البلاد، وقوبل كفاح السيد ويستون في روتشستر، بالتعاطف والدعم. وبدأ الناس يدعون بأن هذه القضية من بين القضايا التي ينبغي النظر فيها. أما السيد هاردينغ - الذي كان ضميره مرتاحاً تجاه هذه القضية - لم يشعر قط بأنه قد تلقى جنيهاً واحداً لا يستحقه من وصية حيرام. وقد أخذ بطبيعة الحال دورة في الكنيسة لمناقشة هذه القضايا مع صديقه الأسقف، وصهره رئيس الشمامسة. وفي حقيقة الأمر تلقى رئيس الشمامسة الدكتور غرانتي الأمر وهو يرعد ويبرق. فهو صديقٌ شخصيٌّ لكبار وجهاء رهبان روتشستر، وكتب خطابات في الصحافة الرسمية تتعلق بذلك المتمرد الدكتور ويستون، إذ يتخيل أتباعه، بأنه لا بد أن يحسم الموقف بهدوء على وجه التقريب. وهو معروفٌ أيضاً في جامعة أوكسفورد كمؤلف كُتَيْبٍ يحمل توقيع خوري، بشأن قضية إيرل غيلد فورد ومأوى القديس كروس، يناقش فيه بوضوح أن قواعد العصر الحالي لا تعترف بالتمسُّك بنص كلمات وصية المؤسس ذاتها بالمعنى الحرفي، ما عدا مصالح الكنيسة التي كان مؤسسها معنياً بها للغاية - والتي - من الأفضل أن يستفتوا فيها لتمكن أساقفتها من مكافأة أولئك الشخصيات المميزة - المنارات - ممن حققت خدماتهم فوائداً جمة للمسيحية.

ورداً على ذلك، يُقال إن هنري دي بلوا، مؤسس مأوى القديس كروس، لا يابه برفاهية الكنيسة الإصلاحية كثيراً⁹، وإن سادة مأوى القديس كروس، يصعبُ وصفهم «بالمنارات»

في خدمة المسيحية. ولكن مما لا شك فيه أن أصدقاء رئيس الشمامسة يؤكدون تأكيداً قاطعاً أن منطق حاسم، وأنه في الواقع لم يتلقَ قبولاً أو جواباً بعد.

وبهذا، استمد السيد هاردينغ قوة كبيرة لإسناد دعواه وإراحة ضميره، ولربما نتخيل أنه لم يسبق أن خامر السيد هاردينغ أدنى قدرٍ من الندم لتلقيه مبلغاً ربع سنويّ قدره مئتي جنيه. في الواقع، لم يخطر الموضوع على باله بهذه الصورة. وتحدث غير ما مرة، وسمع الكثير عن وصايا المؤسسين القدامى والدخل الوارد من ممتلكاتهم، خلال العامين الأخيرين. بل إنه استشعر شكاً في لحظةٍ ما - منذ أن استبعد منطق صهره - عما إذا كان اللورد غيلدفورد يستحق وبصورة واضحة، الحصول على دخل بهذا القدر الذي يتلقاه من إيرادات مأوى القديس كروس عن حق. ولكنه هو شخصياً كان يتلقى أجراً مبالغاً فيه قدره ثمانمئة جنيه، لهذا السبب - منح رعاياه الاثني عشر، اثنين وستين جنيهاً وأحد عشر شلن وأربعة بنسات في السنة طواعيةً. وهو من يؤدي المال، مهام مرشد جوقة المُرْتَلين كما لم يؤدها مرشداً يوماً منذ بناء كاتدرائية بارچستر. فلم تفسد هذه الفكرة عليه هدوءه، ولم يستشعر وخز الضمير يوماً.

بيد أن السيد هاردينغ بات مشغول البال بسبب القيل والقال المنتشر في بارچستر. ومهما يكن، هو على دراية بأن اثنين من المسنين ممن هم تحت رعايته قد سُمِعوا وهم يقولون بأنه: لو كان لكل واحد منهم حرية القرار، فلربما حظي كل واحد منهم بمئة جنيه في السنة، وعاش كسيد من السادة عوضاً عن الشلن الواحد وستة بنسات في اليوم! وبأنهما لا يملكان سبباً كافياً لأن يكونا شاكرين لمنحة البنسين اللعينة، فيما يتمتع السيد هاردينغ والسيد تشادويك، فيما بينهما، بآلاف الجنيهات التي لم يخصصها جون حيرام لأمثالهما. إن نكران الجميل هذا هو ما يحز في نفس السيد هاردينغ. كان أحد هذين الشيخين المستائين، رجلاً يدعى أيل هاندي، دخل المأوى عنوةً. كان يعمل ببناءً في بارچستر، وكان قد كسر عظم فخذه بسقوطه من سقالةٍ بينما كان يعمل في الكاتدرائية. وقد منحه السيد هاردينغ أول غرفةٍ شاغرةٍ في المأوى بعد الحادث، مع أن الدكتور غرانتلي كان حريصاً أشد الحرص على منح هذه الغرفة، لعاملٍ لا يُطاق، يشتغل عنده في أسقفية بلومستيد، كان قد فقد كل أسنانه، ولم يدر رئيس الشمامسة كيف يتخلص منه بطرقٍ أخرى.

لم ينسَ الدكتور غرانتلي تذكير السيد هاردينغ بمدى قناعة جو موترز بالشلن والست بنسات قبل بضعة أيام. وكم أن تصرف السيد هاردينغ كان أحق بأن يسمح لراديكالي من البلدة بأن

يصير مدعاةً لقلقهم. ولعل الدكتور غرانتلي في تلك اللحظة، نسي بأن المؤسسة الخيرية كانت مخصصةً للعمال المهرة العاطلين عن العمل في بارچستر.

يعيش في بارچستر، طبيبٌ شابٌ جراحٌ يدعى جون بولد. ويعرف كلُّ من السيد هاردينغ والدكتور غرانتلي حق المعرفة بأن جون بولد هو السبب الأساسي في نشأة مشاعر التمرد الخطيرة في المأوى! نعم، والنهضة كذلك. من ذلك الحديث المرفوض عن ممتلكات حيرام الذي ساد مرةً أخرى في بارچستر. ومع هذا، فإن السيد هاردينغ والسيد بولد على معرفة ببعضهما. ويمكننا القول، بأنهما صديقان على الرغم من التفاوت الكبير بين عمريهما. ولكن الدكتور غرانتلي يتوجس خيفةً من المحرضين الأثيمين، كما وصف جون بولد في إحدى المرات، أثناء الحديث عنه أمام مرشد المرّتلين. وكونه رجلاً أكثر حذرًا من السيد هاردينغ، وصاحب رؤى بعيدة، ولأنه مستبدٌ برأيه، فهو يشعر بالفعل أن جون بولد هذا سوف يثير مشاكل مهولة في بارچستر. وعليه، فإنه يعتبره عدوًا، ويعتقد أنه لا ينبغي السماح له بالدخول إلى اجتماع ديني في الهواء الطلق، وبأي صفةٍ ودّية. وبما أن جون بولد سوف يستأثر اهتمامنا كثيرًا، علينا أن نسعى إلى توضيح هويته، ولماذا يقف في صف نزلاء مأوى جون حيرام.

جون بولد هو جراحٌ شاب، قضى العديد من سنوات صباه في بارچستر. كان والده طبيباً في لندن، حيث كوّن قدرًا من المال، واستثمره في بناء مبانٍ في تلك المدينة. إذ تعود حانة «دراغون وانتلي» ومكتب بريد¹⁰، وأيضًا أربع محلات تجارية في الشارع الكبير، ونصف الفيلاّات الأنيقة - كما تظهر في الدعايات - المبنية خارج المدينة وراء مأوى حيرام مباشرةً، حيث سكن الدكتور بولد في إحدى هذه الفيلاّات ليقضي أيام حياته كلها حتى يموت. وفي بارچستر قضى ولده جون بولد أيام إجازاته وعُطل أعياد الميلاد فيما بعد عندما نجح من المدرسة وانتقل لدراسة الجراحة في مستشفيات لندن. وفي فترة تخرُّج جون بولد وتمكنه من حمل لقب المهنة: «جراحٌ وصيدلانيٌّ»، توفي والده العجوز، تاركًا ممتلكاته في بارچستر لابنه، ومبلغًا معينًا بنسبة ثلاثة بالمئة لابنته ماري التي تكبر أخاها بأربع أو خمس سنوات.

صمم جون بولد على الاستقرار في بارچستر والاهتمام بأملأكه، وكذلك بعظام وأجساد جيرانه الذين يطلبون مشورته الطبية في مشاكلهم الصحية. لذلك، رفع لوحة نحاسية كبيرة مكتوبًا عليها «جون بولد، جراحٌ»، مما أثار سخط تسعة أطباء ممارسين كانوا يكفون

للحصول على لقمة العيش من الأسقف وكبير الكهنة والرهبان. ومن هناك بدأ في إدارة ممتلكاته بمساعدة أخته.

في تلك الفترة، لم يتجاوز عمره أربعاً وعشرين سنة. ومع أنه مضى على وجوده كجراح في بارچستر ثلاث سنوات حتى اليوم، لم نسمع أنه ألقى ضربة كبيرة بالممارسين التسعة الفاضلين. لذلك تبدد قلقهم منه وذهب أدراج الرياح، إذ إنه لم يأخذ ثمن أتعابه طيلة ثلاث سنوات. ومن ناحية أخرى، فإن جون بولد رجل ذكي، وسوف يكون بالممارسة، جراحاً بارعاً. إلا أنه سلك مساراً آخر في الحياة. ولأنه كان يملك ما يكفي ليعيش، لم يُجبر على العمل من أجل لقمة العيش. ورفض إخضاع نفسه لما أسماه «شقاء المهنة»، ويقصد بذلك العمل العام كجراح ممارس كما اعتقد؛ فأوجد لنفسه عملاً آخر. وراح يُضمد الكدمات ويُركب أطرافاً لأهالي الطبقة المُعدمة مثلما يدعي بطريقته، ولكنه يفعل ذلك بدافع الحب. لن أزعج بأن لرئيس الشمامسة الحق في وسم جون بولد بالرجل المُحرّض، وذلك لأنني أجهل لأي مدى يجب أن تكون آراء المرء متطرفة قبل أن يوصف بهذه الطريقة المجحفة. غير أن بولد مُصلحٌ عظيم الشأن.

كان شغفه مُنصباً على درء أنواع المفاسد؛ الانتهاكات التي ترتكبها الدولة، تجاوزات الكنيسة، تسلط المجلس البلدي. وقد أصبح عضواً في مجلس بلدة بارچستر، وأثار قلق ثلاثة رؤساء بلديات على التوالي، بحيث أصبح من الصعب إلى حد ما، العثور على رئيس بلدية رابع، بالإضافة إلى إساءات في الممارسات الطبية، ومفاسد عامة في العالم بأسره. كان مخلصاً تماماً في مساعيه الوطنية لإصلاح البشرية. وفيه ما يدعو للإعجاب متعلقٌ بقدراته على تدارك الضرر وكبح الظلم. ولكنني أخشى أن يكون مُشبعاً بفكرة أنه صاحب مهمة خاصة للإصلاح. سيكون من صالح الشباب أن يخامرهُ شيءٌ من الريبة بنفسه، وقدراً أكبر من الثقة بالأهداف الصريحة للآخرين، إذا أمكن إقناعه بأن العادات القديمة لا تعني أن تُسبب ضرراً بالضرورة، وأن التغييرات قد تكون خطيرة. لكن كلا! كان بولد يتمتع بحماسة متوقدة وثقة بالنفس شبيهة بثقة الثوري الفرنسي جورج دانتون بنفسه، فهو يلعن العادات المبعوضة التي احترمها الناس على مر الزمان بضراوة راديكالي متطرف!

فلا عجب أن الدكتور غرانتلي يعتبر جون بولد كالجمره الهابطة في قلب الحرم الهادي المعريق لكاتد رائية بارچستر. وكان الدكتور غرانتلي ليتجذبه كما يتجنب الطاعون، لكن

الطبيب الجراح والسيد هاردينغ سرعان ما توطدت صداقتهما. إذ اعتاد جون بولد الصغير باللهو في مَرَج السيد هاردينغ عندما كان صبيًا صغيرًا، وقد كسب قلب مرشد المرّتين مرات عديدة بالإصغاء بانتباه تام إلى ألحانه المقدسة. وعلى مر الأيام - ولأصدقكم القول - أصبح قريبًا من الفوز بقلب شخصية أخرى داخل نفس الجدران، من ساعته. لم ترتبط إيانور هاردينغ بعلاقة خطبة رسمية بجون بولد. ومع أنها لم تعترف لنفسها كم يحظى ذلك الشاب المُصلح بمكانة عزيزة في قلبها، لكنها لا تستطيع تحمّل أن يتحدث عنه أي أحد بسوء. ولا تجرؤ على الدفاع عنه عندما تسمع صهرها يتحدث بلهجة هجومية ضده. لأنها - مثل والدها - تهاب الدكتور غرانتلي إلى حد ما. وبدأت تكره رئيس الشمامسة كُرهاً شديداً. عندها، أقنعت والدها بأنه سيكون من الظلم والتفاهة إبعاد صديقه الشاب بسبب سياسته وتوجهاته. وأنها لا يعينها التواجد في بيوت لا تلقاهُ فيها. وإنّها في الحقيقة مغرمة به، إذ لا يوجد سببٌ وجيه واحد يمنع إيانور هاردينغ من حُب جون بولد. فهو يملك كل تلك الصفات التي من شأنها أن تلمس قلب أي فتاة. إنّه رجلٌ شريف وطموح، ظريفٌ، وسيم وحسن النشأة، شجاعٌ وفي مقتبل الشباب، أي أن شخصيته متكاملة من النواحي كلها، يملك ما يكفي لإعالة زوجته؛ وهو صديق والدها. وقبل كل شيء، مغرماً بها. إذن لم لا يتعلق قلب إيانور هاردينغ بجون بولد؟!

يعتقد الدكتور غرانتلي، الذي يملك أعين يقظةً كثيرة كما العملاق أرغوس، بعد أن أدرك منذ فترة طويلة في أي اتجاه تسير الأمور، بأنّ هناك العديد من الأسباب القوية تمنع حدوث ارتباط كهذا. لم يعتقد أنه من الحكمة حتى الآن التحدث إلى والد زوجته بشأن ذلك، لأنه يعرف مدى تسامح السيد هاردينغ في كل ما يتعلق بابنته؛ لكنه ناقش القضية مع رفيقة عمره التي يثق بها ثقة عمياء، في غرفتهما المهيبة التي يتوسطها سرير تتدلى منه ستائر على الطراز الكهنوتي في أسقفية بلومستيد.

يا لعذوبة المواساة والنصيحة القيّمة التي نالها صديقنا رئيس الشمامسة داخل تلك الغرفة المهيبة! حيث يصير أقل رسمية في تلك الغرفة فقط، وحيث يهبط من مرتبته الدينية العليا إلى مستوى بشريٍّ فان! ففي عالم الآخرين، لا يترك الدكتور غرانتلي جانباً، سلوكه المعروف به بالمرّة. فهو يحظى بمهابة قديس عجوز ممزوج بدماثة أسقف حديث العهد. ومع ذلك، هو كما هو دائماً. هو رئيس الشمامسة دائماً، إنه، لا يهفو أبداً على عكس هوميروس الشاعر¹¹. حتى مع والد زوجته، وحتى مع الأسقف وكبير الكهنة، فإنه يُبقي على تلك النبيرة الجمهورية

والتصرفات المتعالية التي تثير الرهبة في قلوب شباب بارچستر، ويُروّع - طبعاً - أسقفية بلومستيد برمتها. وبمجرد أن يستبدل تلك القبة الجاروفية الجديدة - دوماً - التي يرتديها رجال الدين الإنكليز - بطاقة نوم مشغولة بالشراريب، وتلك الثياب السوداء اللامعة، بقميص نومه المعتاد، حتى يعود ليتحدث وينظر للأمر بصفته الدكتور غرانتلي، ويفكر كرجلٍ اعتياديّ.

لطالما فكّر معظمنا في مدى صرامة تجربة الدين التي تواجهها زوجات كبار رجال كنيستنا. بالنسبة لنا، فإنّ هؤلاء الرجال هم تجسيد للمقدّيس بولس. فطريقة مشيتهم موعظةً ناطقة. ثيابهم النظيفة الداكنة تفرض علينا الإيمان والخضوع. وتبدو أمهات الفضائل - الأربعة - وكأنها تحوم حول قبعاتهم المقدسة. فكبير الكاتدرائية أو المطران، كلٌّ في جلبابه الكهنوتيّ، على يقين من توقيرننا لهم. وأسقف حسين المظهر يملأ أعماق أرواحنا بالرهبة. ولكن كيف يمكن لهذا الشعور أن يدوم في قلوب العائلات التي ترى الأساقفة بلا أرديتهم الكهنوتية، ورؤساء الشمامسة بلا ثيابٍ تقريباً؟!!

ألا يعرف كل فردٍ منا عددٌ من القساوسة؟ ما خلا المقدسين منهم! عددٌ من الشخصيات الدينية البارزة ممن تنعقدُ ألسنتنا أمامهم وتصير خطواتنا معهم أكثر وقاراً؟ ولكن لو رأيناها ذات مرة وهو يمتطّ جسده تحت الملاءات في السرير، يتثاءب وسع فمه ويدفن وجهه في وسادته، عندها نستطيع أن نثرثر أمامه بمثل تلك السهولة التي نتحدث فيها مع طبيبٍ أو محامٍ. ومن هذه الأسباب - بلا شك - اتضح أن رئيس شمامستنا، كان يستمع إلى نصائح زوجته، رغم أنه كان يعتبر نفسه مؤهلاً لتقديم النصائح لكل من يقابله.

«عزيزتي» قال الدكتور غرانتلي، فيما كان يعدّل طيات غطائه الكبير، «إنّ جون بولد زار بيتَ أبيك اليوم أيضاً. لا بدّ أن أباكٍ أحمقٌ جداً»
فأجابت السيدة غرانتلي: «إنه أحمق. لطالما كان أحمقاً!» متحدثة من تحت الأغطية المريحة. «وهذا ليس بالأمر الجديد عليه»

«لا يا عزيزتي، ليس بالأمر الجديد عليه وأعلم ذلك، لكن، في مثل هذه المرحلة، بمثل هذا الطيش، فإنه ... إنه ... سأقول لك شيئاً يا عزيزتي. إذا لم يكثر بما هو مُقبِلٌ عليه، فإنّ جون بولد سيكون على علاقة مع إيلانور»

«أعتقد أنه كذلك، سواء اكثر أبي للأمر أو لم يكثر. ولمَ لا؟!»

«لَمْ لَا؟!» كاد رئيس الشمامسة أن يصرخ مما دفع طاقة نومه بحيث كادت أن تسقط على أنفه وأستأنف قائلاً: «لَمْ لَا؟! إنَّ جون بولد حديث نعمة فضوليّ ومزعج! أوضع شاب رأيته في حياتي. أتعلمين بأنه يحشر أنفه في شؤون والدك كثيراً ودونما مبرر... وأكثر...» وكونه وقع في حيرة من أمره في إيجاد نعوت مهينة أكثر من ذلك، أنهى تعابيره التي تنم عن الاشمئزاز مغمغماً: «يا إلهي!» بأسلوب وجدّه فعلاً جداً في الاجتماعات الدينية للأسقفية. ولا بد أنه في تلك اللحظة قد نسي أين كان.

«فيما يتعلق بكونه رجلاً مزعجاً يا رئيس الشمامسة...» قالت السيدة غرانتلي، التي لم تتبنَ قطّ اسماً أكثر ودّاً من هذا عند مخاطبتها زوجها.

واستطردت: «إنّي لا أوافقك الرأي في ذلك. ليس لأنني أحبُّ السيد بولد فهو مغرور جداً بالنسبة لي إلا إنَّ ليانور تُحبه، وسيكون أفضل شيء في العالم لأبي إذا تزوجا. ولن يثير بولد المشاكل بشأن ماوى حيرام لو أصبح صهراً لأبي»

واستدارت السيدة صوب الجهة الأخرى من السرير تحت الأغطية بطريقة كان الطبيب معتاداً عليها، وكأنها تُخبره بكل وضوح - كما لو بالكلمات - أن كل شيء يتعلق بهذا الموضوع كان قد انتهى بالنسبة لها في تلك الليلة.

«يا إلهي!» راح الدكتور غرانتلي يغمغم. فكما يبدو، كان يحتدم غيظاً لدرجة كبيرة. لم يكن الدكتور غرانتلي رجلاً سيئاً على الإطلاق. وإنما هو رجلٌ مُكوّنٌ من حصيلة المعرفة التي تلقاها في أغلب الظن. إذ إنَّ قدراته العقلية كانت كافيةً لشغل منصب كهذا في العالم، لكنها لم تكن كافية لوضعه في المقدمة. إنّه يؤدي بانتظام صارم، واجبات قسيس أسقفية، والتي يعتبرها، بحسب ظنه، أوسع مجالاً من راعي أبرشيته، ولكنه بوصفه رئيساً للشمامسة، يتفوق.

ونظن، كقاعدة عامة، بأنه إما الأسقف يقوم بعملٍ يسير أو رؤساء الشمامسة الخاصين به. فحيث يؤدي الأسقف مهامه، فإن رؤساء الشمامسة لن يكون لديهم سوى القليل لإنجازه، والعكس صحيح. في أبرشية بارچستر، يؤدي رئيس شمامسة بارچستر مهامه. وهو بهذه الصفة، مثابراً وموثوقاً، وحصيفاً كما يتباهى به أصدقاؤه على وجه الخصوص. عيبه الوحيد يكمن في يقينه المفرط بمزايا ومزاعم رتبته الكنسية، أما نقطة ضعفه الكبرى فهي ثقته العمياء بهيبة سلوكه وبلاغة لسانه على حدٍ سواء. إنه رجلٌ مناقبيّ، يؤمن بالمبادئ التي

يُعَلِّمُهَا، ويؤمن كذلك، بأنه يسير وفقاً لمبادئه. مع أننا لا نستطيع القول بأنه سيحوّل خدّه الأيسر لمن لطمه على الأيمن، أو أنه سيعطي معطفه لإنسانٍ سرق رداءه، أو أنه مستعد لأن يغفر لأخيه حتى سبع مرات. بل إنه متشدّد للغاية فيما يتعلق بتسديد مستحقّاته، معتبراً أن أيّ تراخ في هذا الصدد من شأنه أن يُعرِّضَ سندات الكنيسة المالية للخطر. ولو كان الأمر عائداً له، فإنّه سوف يرسل إلى الجحيم، ليس فقط كل فردٍ مصلح، بل وكل لجنة وكل هيئة من شأنها أن تجرؤ حتى على طرح سؤالٍ يتعلق برصد إيرادات الكنيسة!

«إنها إيرادات الكنيسة، وعمامة الناس يُقرّون بذلك. الكنيسة قادرة على تدبر أمر إيراداتها الخاصة بالطبع». وهكذا كان معتاداً على الجدال أثناء الحديث عن الأفعال المنافية للدين الصادرة عن اللورد جون راسل¹² والآخرين إما في بارچستر أو في أكسفورد.

لا عجب إذن، أن الدكتور غرانتلي يمقت جون بولد، وأن اقتراح زوجته بأن يوثق صداقته بهذا الرجل أثار استيائه. وكي نكون منصفين معه، لم يفتقر رئيس الشمامسة للشجاعة، إذ كان على استعداد تام لمواجهة عدوه في أي ميدان وبأي سلاح. كان يحظى بذلك الإيمان في حججه الخاصة بأنه كان واثقاً من التوفيق، وليس أمامه إلا أن يكون متأكداً من مواجهة عادلة من جانب خصمه. لم يكن لديه أدنى فكرة عن قدرة جون بولد على إثبات أن دخل المأوى قد أُخْتَلِسَ! لماذا إذن يتعين عليه التماس السلام بين مثل هذه الصداقات الوضيعة؟ عجباً! تشجيع عدو كافرٍ بالكنيسة على علاقة بأخت زوجة أحد أعيان الكاتدرائية وابنة رجل آخر ذو شأن رفيع!، علاقة بأنسة شابة كانت صلاتها بالأبرشية وكنيسة بارچستر وثيقة جداً للحد الذي يمنحها حق المطالبة بزواج يتمتع بالذكاء ويملك ثروة لا بأس بها إلى حد ما! وعندما يتحدث الدكتور غرانتلي عن خصوم غير مؤمنين، فإنه لا يقصد ضمناً افتقار المرء للإيمان بعقائد الكنيسة، وإنما الشك الذي لا يقل خطورة فيما يتعلق بنزاهته بالأموال المالية. أما السيدة غرانتلي، فهي قلما تصم أذنها عن ادعاءات الرتبة الكنسية العليا التي تنتمي إليها، وقلما تختلف هي وزوجها في الأسلوب الذي ينبغي الدفاع به عن الكنيسة. وياله من أمر غريب إذن بأن تُبدي رغبةً للاستسلام في مثل هذه الحالة! أخذ رئيس الشمامسة يتذمر مرةً أخرى بـ «يا إلهي!» وهو يستلقي بجانبها، لكنه يتذمر بصوت مسموع له فقط، وراح يكرر ذلك إلى أن أراحه النوم من التفكير العميق.

لم يرَ السيد هاردينغ سبباً يمنع ابنته من الوقوع في حب جون بولد. لم يكن غافلاً عن مشاعرها. ولربما، خامرهُ أسفٌ عميقٌ للدور الذي يخشى أن بولد سيلعبهُ فيما يتعلق بالمأوى، وهذا الأسف نابعٌ من خوفه من أن يبتعد عن ابنته أو أن تنفصل ابنته، عن الرجل الذي تحبه.

لم يتحدث قط مع إيلانور عن حببها، فهو آخر رجل في العالم يُلمح لمثل هذا الموضوع دون إجراء مشاورات، حتى لو كانت ابنته. ولو افترض أن لديه ما يُبرر عدم الموافقة على بولد، لكان أبعد ابنته عن المنزل، أو منع بولد من زيارته. لكنه لم يجد مسوغاً لفعل ذلك. لعلهُ كان يُفضّل أن يكون صهرهُ الثاني رجل دين، لأن السيد هاردينغ مرتبطٌ أيضاً بالرسامة الكهنوتية. وعلى أيّة حال، إن لم يحدث ذلك، لكان على أية حال، يتمنى أن يكون ثمة معرفة ذات صلة وثيقة به، يشاركه التفكير بقضايا الكنيسة على نحوٍ مماثل. إلا أنه لن يعادي الرجل الذي أحبته ابنته لأنه اختلفَ معه في مواضيع كهذه.

حتى الآن، لم يتخذ بولد أية خطوة باتجاه هذه القضية قد تُزعج السيد هاردينغ شخصياً بأي شكل. بعد بضعة أشهر، وبعد معركة ضارية لم تكلفه سوى القليل من المال، انتصر على امرأة مسنة معينة في الشارع الرئيسي السريع من أهل الحي فرضت رسوماً - تعرفه مرورية - على امرأة مسنة أخرى قد شكتها إليه. فسمع بالقانون البرلماني المتعلق بالشركة القابضة، واكتشف بأن شخصاً مقرباً منه، قد فرضت عليه ضرائب - كذلك تعرفه مرورية - ظلماً! فتوجه صوب بوابة الضرائب بنفسه، دفع الرسوم، ثم رفع دعوى على حارس البوابة. ثم أثبت أن الطرق الجانبية التي يغدو ويروح عبرها أناسٌ كثيرون، مجانية كلها. انتشرت شهرة نجاحه على نطاق واسع خارج بارچستر، وبدأ الجميع ينظرون إليه على أنه مدافعٌ عن حقوق الفقراء في بارچستر.

وبعد فترةٍ قصيرةٍ من شهرته في هذه القضية، سمع من أحياء متفرقة، بأن رجال حيرام يُعاملون على أنهم فقراء مُعدمين! في حين أن الممتلكات التي كانوا في الواقع ورثةً لها، كانت ضخمة! وبتحريض من المحامي الذي وكلهُ في قضية الرسوم المرورية على الشوارع الرئيسية، دعا بولد السيد تشادويك لكي يكشف الحساب المتعلق بأموال الشركة.

كان السيد بولد قد أعرب في كثير من الأحيان عن سخطه إزاء اختلاس أموال الكنائس بصفة عامة، خلال استماعه لأحاديث صديقه مرشد المُرتلين السيد هاردينغ. لكن الحديث لم يُشر إلى أي سلب للأموال في كاتدرائية بارچستر. وعندما حملهُ المحامي فيني على التدخل

في شؤون مأوى حيرام، فإن توجيه مساعيه ستكون منصبة على السيد تشادويك. وسرعان ما أدرك بولد أنه إذا تدخل في شؤون السيد تشادويك بصفته الوكيل، فإن عليه أيضاً أن يتدخل في شؤون السيد هاردينغ بصفته الراعي. ومع أنه أسف على الموقف الذي سيوضع فيه بسبب ذلك، فإنه لم يكن الرجل الذي يتراجع عن تعهداته لأجل دوافع شخصية.

وحالما عقد عزمه على المضي قدماً في هذه المهمة، شرع في تنفيذها بقدراته المعهودة. حصل على نسخة من وصية جون حيرام، التي بعد أن فهم نصها، تمكن من فهم الموضوع بالكامل. تحقق من حجم الممتلكات وقيمتها بقدر استطاعته. ثم حرر قائمة لما قيل له بأنه التوزيع الحالي لدخل المؤسسة. وما إن تزود بهذه التفاصيل، حتى قام بزيارة السيد تشادويك بعد أن أبلغ ذلك السيد مسبقاً بزيارته. وطلب منه كشفاً حسابياً يتضمن إيرادات المأوى ونفقاته خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية.

رفض السيد تشادويك طلب السيد بولد بطبيعة الحال، إذ يدعي السيد تشادويك أنه لا يملك سلطة الكشف عن شؤون أحد الأملاك التي يديرها، وأنه مجرد موظف مأجور.

سأل بولد: «ومن هو صاحب الصلاحية لإعطائك هذي السلطة سيد تشادويك؟»
«الوحيدون الذين وظفوني سيد بولد» قال الوكيل.

«ومن هؤلاء يا سيد تشادويك؟»

فالتمس السيد تشادويك إعفاءه من الإجابة على هذه الأسئلة لأنه، إذا كانت هذه الاستفسارات من باب الفضول فقط، فحريٌّ به ألا يجيب عليها. أما إذا كان لدى السيد بولد أي إجراءات قانونية خفية بالحُسابان، فلعله من المستحسن أن يسعى رجل ضليع بالقانون، للحصول على كل المعلومات المطلوبة بطريقة مهنية. كان محامياً السيد تشادويك هما السيد كوكس والسيد كامنز يقيمان في نزل لينكولن.

سجل السيد بولد عنوان كوكس وكامنز، ولاحظ أن الطقس كان بارداً في هذا الوقت من السنة، فتمنى للسيد تشادويك أن يحظى بصباحٍ طيب. أجاب السيد تشادويك بأن الجو باردٌ أساساً خلال يونيو، وودعه بانحناءة.

فقصد السيد بولد محاميه فيني مباشرة. لم يكن معجباً بمحاميه، إلا إنه كما قال، كان بحاجة لرجل ضليع بالقانون وصنوفه فحسب، ويؤدي عمله كاملاً مقابل المال. لم يكن لديه أدنى فكرة عن وضع حياته بين يدي محامٍ، لكنه أراد أن يعرف الأمور القانونية من محامٍ كما

يستلم معطفه من خياط. ولأنه لم يستطع معرفة ذلك بنفسه، ظنَّ أنَّ فيني هو الرجل الأنسب في بارچستر من أجل غاياته. وكان - على أية حال - مصيباً في ذلك من ناحية، إذ إنَّ فيني تجسّدُ للخضوع بعينه.

فأوصى فيني بإرسال رسالة فورية إلى كوكس وكامنز، واضعاً في الاعتبار أنه سيحصل على ثلث جنيه مقابل أتعابه¹³.

«اضرب بيدٍ من حديد يا سيد بولد. طالبهم حالاً وبصورة قاطعة وصريحة، ببيان كامل عن شؤون المأوى»

«لنفترض أنني قابلتُ السيد هاردينغ أولاً» اقترح السيد بولد.

«نعم نعم، بكل تأكيد...» قال فيني الممثل لسيدته: «مع ذلك، بما أن السيد هاردينغ ليس رجل أعمال، فقد تؤدي مقابلاته إلى بعض المتاعب. ولكن، لعلك على حق سيد بولد، لا أعتقد أن رؤية السيد هاردينغ قد تضرُّ أحداً»

رأى فيني من تعبير وجهه مؤكِّله أنه ينوي المضيَّ قدماً كما يحلو له، وأنه سيحصل على ما يريد.

قضية معروفة في مأوى سانت كروس «دار وينشستر للعجزة» حيث كان إيرل غيلفورد الغني «وليس غيلدفورد، كما يذكره ترولوب» هو مدير أو راعي المأوى منذ عام 1808، مع غيره من الوظائف الأخرى التي وفرت له دخلاً هائلاً. أي من المجموعات التمثيلية الرئيسية العديدة للبروتستانتية الكلاسيكية التي نشأت في القرن السادس عشر. في الأصل، استخدمت جميع كنائس الإصلاح هذا الاسم (أو الاسم الإنجيلي) لتمييز نفسها عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية «التي لم يتم إصلاحها» أو لم تتغير.

Posthouse: هو مكتب بريدي أو نُزْل يقدم خدمات ذات صلة بالبريد مثل قبول الرسائل والطرود البريدية ويتم الاحتفاظ بالخيول فيه ويمكن استئجارها للمسافرين وسعاة البريد.

مَثَل يشير إلى الأخطاء الواردة في شعر هوميروس. بما معناه لكل عالم هفوة.

اللورد جون راسل: (1792 - 1878)، سياسي يميني ومدافع عن الإصلاح السياسي والكنسي. معادي لرجال الدين، معادي للعقائد الأنجلو كاثوليكية لحركة أكسفورد، ومؤيد لعلم اللاهوت الليبرالي، سلوك راسل خلال فترات توليه منصب وزير الداخلية (1835 - 189) ورئيس الوزراء (1846 - 1852) أكسبه عدم ثقة المحافظين من رجال الكنيسة العليا مثل رئيس الشمامسة غرانتلي. وكان يؤيد تخصيص الإيرادات الفائضة للكنيسة المنشأة في أيرلندا لتمويل الإصلاح الاجتماعي هناك، وأيد إعادة توزيع الإيرادات داخل كنيسة إنجلترا، وفي عام 1850 أنشأ لجنة ملكية للتحقيق في حالة جامعة أكسفورد، التي كانت في ذلك الوقت معقلاً لحزب الكنيسة العليا.

ما يعادل 33 بنساً وفي ذلك الوقت يُعتبر الحد الأدنى للرسوم القياسية لعمل المحامي.

الفصل الثالث: أسقف بارچستر

بدا المساء وشيكاً عندما قفل بولد عائداً إلى المأوى. لكنه كان على دراية بأن السيد هاردينغ يتناول العشاء عند الساعة الرابعة خلال فصل الصيف، وأن إليانور معتادة على التنزه خلال المساء، وأنه قد يجد السيد هاردينغ بمفرده. وعند وصوله إلى البوابة الحديدية الصغيرة المؤدية إلى حديقة مرشد المُرْتَلين، كانت الساعة بين السابعة والثامنة. ولكن، كما لاحظ السيد تشادويك، كان نهراً بارداً بالنسبة لشهر يونيو، وكان المساء معتدلاً، عذباً وهادئاً.

كانت البوابة الصغيرة مفتوحة. وما إن رفع الترابس حتى تناهت إلى أذنه من الطرف البعيد للحديقة، ألحان تشيلو السيد هاردينغ. فأخذ السيد بولد يتهدى باتجاه المنزل عبر المَرَج، فرآه يعزف، واتباعه متحلقون حوله. كان الموسيقار جالساً في كرسي حديقة داخل ظُلة صيفية مباشرة بحيث يمكن للتشيلو الذي يضعه بين ركبتيه أن يستقر على الأرضية الحجرية الجافة، وضعوا أمامه، حامل نوتة موسيقية بدائية الصنع، عليه ذلك الكتاب المقدس الثمين وإحدى صفحاته مفتوحة، ذلك المجلد الكنسي العزيز على قلبه والذي تكبّد الكثير من أجل إتمامه وكلفه الكثير من الجنيهات. ويحيط به - إما وقوفاً أو جلوساً أو متكئين - عشر رجال من الاثني عشر ممن سكنوا معه تحت سقف مأوى جون حيرام. فيما غاب الرجلان الآخران، ولن أزعم أنهما في قلبيهما كانا على بينة بالظلم الذي ارتكبه أو سيرتكبانه اتجاه راعييهما اللطيف، لكنهما في الفترة الأخيرة كانا بعيدين عنه، وموسيقاه لم تعد تناسبهما.

كان من المسلمي رؤية أمكنة هؤلاء المسنين الموسرين وتعابير وجوههم التواقّة المُصغية. لن أزعم بأنهم مطربون بالموسيقا التي يُنصتون إليها، ولكن تركيزهم كان يدلّ بأنهم مغتبطين بها، وبدا الحبور يغمرهم حيث كانوا، وبقدر ما يعترهم من سرور، كانوا عازمين على منح السعادة بالمقابل، ولم يخيبوا في ذلك. فانشرح فؤاد مرشد المُرْتَلين لاعتقاده بأن الألحان التي كانت بالنسبة له تكاد أن تكون مفعمة بالبهجة، نالت إعجاب نزلاء المأوى ممن أحبهم حباً جمّاً. وكان معتاداً على التباهي بأن هذا هو الجو السائد في المأوى، لدرجة أن يجعل منه

حرمٌ لائق بتعبّد القديسة سيسيليا خصيصاً. ¹⁴

وراءه مباشرة، في أقصى ركنٍ من الدكة التي تُحيطُ بالظُلَّة الصيفية، جلس رجلٌ مسن، ومنديله ملقى على ركبتيه برقّة، وكان يستمتعُ باللحظة، أو يتظاهر بذلك على نحوٍ بارع. كان واحداً من المُعمِّرين طويلاً لأنه تجاوز الثمانين، وقد بلغت السنون منه كل مبلغ. لكن لم يزل قوي البنية ذا قوامٍ منتصب وجميل، وحاجبين كثين متشاقلين ينساب حولهما بعضٌ من خصلات شعره الخفيف الأشيب. فثياب المأوى السمكة السوداء التي كان يرتديها، والبنطلون الخيشي القصير، والحذاء المغلق بالأبزيم أضفوا عليه مظهرًا لا يُدقّقاً. وبينما كان جالساً ويدها مطبقتان على عكازه، وذقنه يستند على يديه، بدا مستمتعاً جيداً بحيث سيسعد معظم الموسيقيين بتواجده. بلا شك، كان هذا الرجل -واسمه بونس- مفخرة المأوى، إذ جرت العادة دائماً على أنه ينبغي اختيار شخص باعتباره يتمتع إلى حد ما، بسطة على الآخرين. ومع أن السيد بونس -المختار من قبل إخوته الأدنى شأنًا منه للإشراف على أمورهم- لا يتلقى أجرًا أعلى من أجورهم، غير أنه يعرف جيداً كيف يحافظ على سمو منزلته. وكان من دواعي سرور مرشد المرّتلين بأن يدعو «نائب راعي المأوى»، دون أن يخجل من ذلك، حتى أنه في بعض الأحيان، عندما يخلو المكان من الضيوف، يطلب منه الجلوس معه، قريباً من مدفأة قاعة الجلوس ذاتها، وشرب كأس ممتلئ من نبيذ بوّرت موضوع بالقرب منه، ولا يغادر بونس دون أن يعب كأساً ثانية! لكن ما من توسلات تدفعه إلى شرب الكأس الثالث.

«حسناً حسناً يا سيد هاردينغ. أنت طيبٌ جداً... جداً». كان يردد ذلك دائماً ما إن يملأ كأسه الثاني. ولكن عندما كان يُجهز عليه وتنقضي نصف ساعة، يقف بونس منتصباً، وبمباركة يخصه بها راعيه، يأوي إلى مسكنه الخاص. فهو يعرف العالم حق المعرفة إلى الحد الذي يجعله عازفاً عن المجازفة برفاهية مثل هذه اللحظات الذهبية، بإطالة أمدها حتى تصير لحظات مزعجة. وكما قد يتخيل المرء، كان السيد بونس من أشد المعارضين للتجديد، حتى الدكتور غرانتلي لم يشمئز من شيءٍ أكثر من أولئك الذين يتدخلون في شؤون المأوى. كان كاهناً بكل ما في الكلمة من معنى، مع أنه ليس معجباً بالدكتور غرانتلي شخصياً، إذ نشأ قلة اهتمامه من عدم وجود متسع في المأوى لشخصين متشابهين للغاية مثله ومثل الدكتور غرانتلي، وليس بسبب نفور المشاعر. كان السيد بونس يميل إلى الاعتقاد بأن الراعي وهو نفسه، بإمكانهما أن يُديرا المأوى دون مزيد من المساعدة، وبما أن الأسقف هو المسؤول

الشرعي على إدارة شؤون المأوى بموجب وصية جون حيرام، إذن من حقه أن يحظى باحترام خاص من كل المشمولين بالوصية. وعليه، فإن جون حيرام لم يعنِ قطّ أن يتدخل رئيس الشمامسة في شؤون مأواه.

ولكن في تلك اللحظة، تبددت هذه الهواجس من ذهنه، وكان ينظر إلى راعيه، وكأنما ينظر إلى موسيقا سماوية، والموسيقار لا يقلُّ عن ذلك بتاتاً.

ولأن السيد بولد كان يسير بهدوء على العشب، لم يلحظه السيد هاردينغ في البداية، واستمر يعزف بقوسه على أوتار التشيلو النائحة، عزفاً هادئاً. لكنه سرعان ما علم من الجالسين أن غريباً ما، قادمٌ. فرفع بصره، وأخذ يُرحب بصديقه الشاب بكل حفاوة.

«لا تكثرث بأمرى من فضلك يا سيد هاردينغ، أرجوك. إنك تعرف مدى ولعي بالموسيقا الدينية». قال بولد.

«أوه! لا عليك..». أجاب مرشد المُرتلين وهو يسد الكتاب. ومن ثم فتحه مرة أخرى بعد أن أدرك نظرة الرجاء المُفرحة في عيني صديقه العجوز بونس. أوه يا بونس، أوه بونس! أخشى في النهاية، بأنك طيب القلب ولكنك إمعة!

«حسناً، سأختم المقطوعة إذن. أنها مقطوعة السير هنري رولي بيشوب الأثيرة إلى حدٍ ما بالنسبة لي¹⁵. وبعدها سنذهب في نزهة ونتحدث حتى تعود إليانور وتحضّر لنا الشاي يا سيد بولد».

لذلك، افترش بولد الأرضية المُعشبة الناعمة ليُصغي - أو بالأحرى - للتفكير بكيفية طرح موضوع ينطوي على الكثير من الخلافات بعد هذا الانسجام الرائع بينهما، وتعكير صفو سلام من كان متأهباً للترحيب به بكل طيبة.

لاحظ بولد أن العرض سرعان ما انتهى، فقد شعر بأنه يواجه مهمةً صعبةً إلى حدٍ ما، وأنه أغتم إلى درجة كبيرة لمغادرة آخر الرجال المسنين ببطءٍ كعادتهم في الذهاب عند التوديع. كاد قلب بولد يقفز في فمه فيما أخذ مرشد المُرتلين يُدلي بكلماتٍ مألوفة لكن طيبة على لطف الزيارة.

«زيارة شخص واحد في مثل هذا الوقت من المساء...» قال السيد هاردينغ «تُعادل عشر زيارات في الصباح. كل شيء في الصباح، رسمي. الحديث الاجتماعي الحقيقي لا يبدأ إلا

بعد العشاء، لهذا أتعشى مبكراً كي أستقبل زيارات على قدر ما أستطيع»
«صحيحٌ تماماً يا سيد هاردينغ. ولكن أخشى أنني عكستُ ترتيب الأمور، وأدين لك
بالكثير من الاعتذار لإزعاجك في العمل في مثل هذه الساعة؛ لكنني جئتُك في قضية مهمة»
بدا السيد هاردينغ مُتَحيراً، ومُرتبِكاً. فثمة شيء في نبرة صوت الشاب يوحي له بأن الزيارة
ستنتهي على نحوٍ مزعج. وانكمش حين شعر بأن الشاب صدَّ حفاوة استقباله له.
«أرغب بالتحدث إليك بشأن المأوى...» تابع بولد.

«حسناً حسناً. من دواعي سروري أن أخبرك بما أستطيع عنه...»
«إن الأمر يتعلق بالحسابات!»

«إذن يا صديقي العزيز، لن أفيدك بشيء، لأنني أجهل تفاصيل ذلك. كل ما أعرفه أنهم
يدفعون لي ثمانمئة جنيه في السنة. اذهب إلى تشادويك، إنه يعرف كل شيء يتعلق
بالحسابات. والآن أخبرني، هل ستستفيد المسكينة ماري جونز من أطرافها مرة أخرى؟»
«طيب، أظنها ستستفيد لو أبدت بعض الحرص. لكن يا سيد هاردينغ، أرجو ألا تمنع
مناقشتي عما سأقوله عن المأوى»

تنهَّد السيد هاردينغ تنهيدة مطوّلة وعميقة. فقد مانع ممانعةً حادة لمناقشة أيّ موضوع من
هذا القبيل مع جون بولد ولكنه يفتقر لبراعة السيد تشادويك المهنية، ولم يكن يعرف كيف
يُعني نفسه من المتاعب المقبلة. تنهَّد بحزن، ولم يردّ.

«إنني أحترمك جداً يا سيد هاردينغ. أكنُ لك بالغ الاحترام وأصدقهِ...»

«شكراً سيد بولد شكراً» قاطعهُ مرشد المُرتلين بنبرة حادة وصبرٍ نافذ. «ممتنٌ جداً، ولكن
دعك من هذا. فأنا عرضة لأن أكون مخطئاً مثل أي إنسان آخر.. بل من المُرجح كذلك»
«ولكن يا سيد هاردينغ، يجب أن أعبر عما أشعر به خشية أن تعتقد أن هناك عداوة
شخصية فيما أنوي فعله»

«عداوة شخصية! تنوي فعله! أنت لا تنوي أن تدق عنقي أو أن تدفعني للمثول في
المحكمة الكنسية!»

كتم بولد ضحكةً كانت وشيكةً، فقد كان جاداً للغاية في قضيته وعازماً كذلك. ولا
يستطيع أن يجعل منها مزحة. مشى هنيهة دون أن ينبس بكلمة قبل أن يستأنف حديثه. خلال

ذلك، كان السيد هاردينغ الذي ما فتى القوس في يده، يعزف على تشيلو خيالي، عزفاً سريعاً¹⁶.

فقال الشاب في النهاية:

«أخشى أن هناك سبباً للاعتقاد بأن وصية جون حيرام، لم تُنفذ بحذافيرها يا سيد هاردينغ، وقد طُلب مني أن أتحقق من الأمر»

«جميل! ليس لدي أدنى اعتراض! وهذا يعني أننا لا نحتاج لأن نخوض حديثاً آخر حول ذلك الآن!»

«أمرٌ واحد فقط يا سيد هاردينغ. لقد أحالني تشادويك إلى كوكس وكامنز وأعتقد أنه من واجبي أن أتقدم إليهما بطلب للحصول على كشف حساب عن المأوى. وقد أبدو فيما أفعله وكأنني أتدخل في عملك، وآمل أن تسامحني على فعل ذلك»

فأجابه السيد هاردينغ ببعض الجدِّية وهو يقوم منتصباً:

«سيد بولد، إذا كنت تؤدي عملاً على نحوٍ منصف، فقل الحقيقة لا غير. لا تخض حرباً غاشمة لتحقيق مآربك، ولن أحمل عليك شيئاً يستحق المغفرة. أحسبك تعتقد أنني لا أستحق المرتب الذي أتلقاه من المأوى، وأن هناك من يستحقه. أيّاً كانت الأقاويل التي يثيرها بعضهم، فلن أنسب إليك أبداً دوافع دنيئة فقط لأنك تعتنق رأياً يخالف رأيي ويضربُ مصالحهم! أرجوك، أدِّ ما تعتبره واجبك. لا أستطيع مساعدتك في شيء، ولن أكون عقبه في طريقك. لكن دعني أسديك نصيحة، لا يسعك تقديم وجهات نظرك ولا يسعني نقل وجهات نظري، بأي نقاش يجري بيننا أيّاً كان السبب. ها قد عادت إليانور وعربة المهور، وسنشرب الشاي!»

بيد أن بولد شعر بأنه لا يستطيع الجلوس بهدوء مع السيد هاردينغ وابنته بعد هذا الحديث. لذلك تذرَّع بكثير من الاعتذارات الخرقاء. وعند مروره بإليانور وعربتها الصغيرة التي يجرُّها مَهْرٌ، لم يفعل شيئاً باستثناء أنه رفع قبعته منحنيّاً لها، ثم تركها في حيرةٍ مخيبة للأمل لمغادرته. مما لا شك فيه أن سلوك السيد هاردينغ قد أثار إعجاب بولد تماماً، ذلك أن راعي المأوى أصر على موقفه وجعله يعتقد أنه على وشك التدخل دون مبرر كافٍ في شؤون خاصة

برجل جليل لا يظلم أحداً. إلا إن السيد هاردينغ نفسه لم يكن راضياً عن وجهة نظره في القضية البتة.

ففي المقام الأول، تمنى أن يُحسن الظن في بولد وأن يُجِبَّه لخاطر إليانور، ومع ذلك لم يستطع إلا أن يشعر بالنفور من عنجهية سلوكه. فبأي حق يقول أن وصية جون حيرام لم تُنفذ بحذافيرها؟ لكنما السؤال الذي أُثيرَ في قرارة نفسه: ترى هل نفذوا بوصية جون حيرام بطريقة منصفة؟ هل قصد جون حيرام أن يتلقى راعي مأواه من الميراث أكثر مما يتلقاه الرجال الاثنا عشر كلهم، ممن بُنيَ المأوى من أجلهم؟!

أمن الممكن أن يكون جون بولد مُحَقَّاقاً؟، وأن راعي مأوى جون حيرام القس قد تلقى - من غير إنصاف - على مدى السنوات العشر الماضية دخلاً يخص آخرين شرعاً وقانوناً؟ ماذا لو تبين بعد أن يصبح الأمر حقيقة واقعة أنه - وهو الذي كان يحيا حياةً بغاية السعادة والهدوء والاحترام - قد استحوذ على ثمانمئة جنيه من غير حق، ولن يقدر على سدادها أبداً؟!

لا أزعج بأن السيد هاردينغ بدأ يخشى أن تغدو القضية حقيقة واقعة؛ لكن أولى درجات الشك بدأت تومض في ذهنه. ومن هذا المساء فصاعداً، لم يهدأ بال لراعينا الطيب الودود، ولم يزُرهُ الفرح. وهكذا راحت أفكار من هذا القبيل تُثقل قلب السيد هاردينغ وهو جالس يرتشف شايه، شارد الذهن ومشغول البال خلال تلك اللحظات الأولى من أيام العذاب الشديد. شعرت إليانور المسكينة أن ثمة شيئاً مُريباً في كل ذلك، ولكن أفكارها بشأن هذا الضيق في هذا المساء لم تتجاوز تصرفات عشيقها وطريقة مغادرته المفاجئة الفظة. ظنت أن شجاراً بين بولد ووالدها قد نشأ، فشعرت بما يشبه الغضب منهما، مع أنها لم تحاول أن تُفسِّرَ لنفسها سبب ذلك.

فكَّر السيد هاردينغ ملياً وعميقاً في تلك التفاصيل قبل أن يخلد إلى النوم وبعده. وطوال فترة استيقاظه كان يتساءل مع ذاته عن صحة ادعائه بالدخل الذي يتمتع به. وعلى أي حال، يبدو من الواضح أنه مهما كان سوء حظّه بعد تعيينه في هذا المنصب، فإن أحداً لن يجروا على القول بأنه كان يجدر به إما أن يرفض التعيين من البداية، أو أن يأبى مثل هذه الأجور فيما بعد. فكل العالم - بمعنى العالم الكنسي المحصور في الكنيسة الإنكليزية - يعلم أن الإشراف على مأوى بارچستر وظيفة سهلة ذات مُرتب ممتاز، بيد أن أحداً لم يلمه على قبوله! ولكن كم من اللوم كان سيسمع لو أنه رفض هذه الوظيفة! كم كان سيبدو مجنوناً لو أنه صرَّح، عندما

كانت الوظيفة شاغرة ومعرضة عليه، بأنه يتورع عن تلقي ثمانمئة جنيه في السنة من واردات ممتلكات جون حيرام، وأنه يُفضّل أن يتلقاها شخصٌ غريبٌ آخر!

كيف سيهز الدكتور غرانتلي رأسه الحكيم يميناً وشمالاً تعبيراً عن عدم موافقته، وكيف سيتشاور مع رفاقه في الحرم عما يشبه الانسحاب السخي بعد القرار الأحمق من هذا الخادم الكنسي المسكين! فإن قرر قبول المنصب، فإنه كان على بينة كذلك من أنه لن يكون في صالحه رفض أقل بنس من مُرتب هذا المنصب. إذ كان لهذه المحاباة في التوظيف أقسومةٌ قيّمة من جانب الأسقف، وليس من شيم السيد هاردينغ التقليل من شأن هذا المنصب الرفيع الذي حُبّي به وأنّ عليه الثبات على موقفه اتجاه وظيفته.

ولكن بطريقةٍ أو بأخرى، لم تكن هذه الحجج مُقنعة، رغم أنها بدت منطقية. وبقي السؤال الحقيقي يُطرح في ذهنه: هل نُفِدت وصية جون حيرام بحذافيرها؟ وإن لم تُفد، ألم يكن التحقق من أمر تنفيذها من واجبه مهما كان حجم الضرر الذي قد يلحق بمنصبه؟! ومهما كانت القسوة التي قد يتلقاها من أسقفه ورفاقه؟ وبالحدث عن رفاقه، اجتاح الهم تفكيره عندما تذكر زوج ابنته! كان يعرف جيداً مدى قوة دعم الدكتور غرانتلي له، لو حمل نفسه على وضع قضيته بين يدي رئيس الشمامسة وتركه يخوض المعركة. لكنه عرف كذلك، إنه لن يجد هناك أيّ تفهّم لقلقه، ولا أيّ مشاعر ودية أو عزاء قلبي. سيكون الدكتور غرانتلي على أهبة الاستعداد لحمل هراوته بوجه كل الدخلاء الوافدين باسم «مصلحو الكنيسة»! لكنه سيفعل ذلك على أرض لا تُدنس عصمة الكنيسة! صراعٌ كهذا لن يمنح الراحة للسيد هاردينغ أو يمحو قلقه. فهو لم يكن حريصاً على إثبات رجاحة موقفه، حتى لو كان كذلك!

لقد ذكرتُ سابقاً إنّ الدكتور غرانتلي هو القائم على شؤون الأسقفية، فوالده الأسقف كان ميّالاً إلى حياة الكسل نوعاً ما. ومع أنه لم يكن قط رجلاً ذا همة، بيدَ أنه كان شخصية ذات صفات جعلته عزيزاً على كل من يعرفه. لقد كان عكس ابنه تماماً. كان عجوزاً رقيق الجانب، يعارض كل شعور بالتغييرات المفاجئة السلطوية والتفاخر الأسقفي. ولربما كان من الجيد بالنسبة له - في مثل حالته - أن ابنه كان قادراً في سن مبكرة، على القيام بما لم يعجز عن فعله ببراعة عندما كان شاباً، وما لم يستطع فعله قط بعد أن تجاوز السبعين من عمره. عرف الأسقف كيف يرفّه عن رجال الدين في أبرشيته، وكيف يتجاذب أحاديث مسلية سريعة مع زوجات الكهنة، وكيف يجعل مُعاوني الكهنة يعيشون مطمئنين؛ لكن الأمر تطلب

من رئيس الشمامسة يدًا من حديد للتعامل مع قضايا أخرى أمثال المتمردين، سواء في عقائدهم أو حيواتهم.

أحب الأسقف والسيد هاردينغ بعضهما من كل قلبيهما. لقد شاخا معًا، وقد أمضيا معًا سنوات عديدة وطويلة في المساعي والأحاديث الدينية. ثم صار أحدهما أسقفًا وظل الآخر مجرد كاهن بسيط، وبقي حبل صداقتهما متينًا حتى في تلك الحالة. ومنذ أن تزوج أولادهم، وتسلم السيد هاردينغ منصب راعي مأوى حيرام وقيادة جوقة المُرْتَلين، أصبح كلاً منهما في عين الآخر، الكل بالكل.

لن أزعم بأنهما أشرفا على إدارة الأبرشية بينهما، لكنهما أمضيا وقتا طويلا في الحديث عن الرجل الذي يديرها، وفي وضع خطط صغيرة لكبح جماح غيظه ضد المقصرين بحق الكنيسة، والحد من طموحاته لسيادة الكنيسة.

عقد السيد هاردينغ عزمه على فتح قلبه والاعتراف بقلقه لصديقه القديم. وذهب إليه في الصباح التالي لزيارة جون بولد الفظة.

وحتى ذلك الوقت، لم تصل إلى مسامع الأسقف، أي شائعات عن هذه الإدعاءات المجحفة بالمأوى. لا شك أنه سمع بوجود من يُشككون في صلاحيته بمنح ثمانمئة جنيه بالسنة لمثل تلك الوظيفة اليسيرة، كما كان قد سمع - بين الحين والآخر - عن الانغماس في ملذات الفجور والخروقات المخزية في بلدة بارچستر المحترمة والهادئة. ولكن كل ما كان يفعل، وكل ما كان يُطلب منه القيام به في مثل تلك الحالات، هو أن يومئ برأسه حُزناً، ثم يرجو ابنه الديكتاتور الصارم، للتحقق بأن ما من ضرر قد أُحِقَ بسمعة الكنيسة!

كانت قصةً طويلة كان على السيد هاردينغ أن يرويها قبل أن ينجح بإيصال وجهة نظره للأسقف؛ إلا إننا لا نحتاج لمتابعة القصة معه حتى النهاية! في البداية، نصح الأسقف باتخاذ خطوة واحدة، وأوصى بعلاج واحد لهذه القضية، فهو لا يملك سوى علاج واحد فقط في دستور معالجاته كلها! علاج قوي بما فيه الكفاية للسيطرة على مثل هذه الفوضى الخطرة! لقد أوصى برئيس الشمامسة!

«حوّل الأمر إلى رئيس الشمامسة» أكد بعد أن تحدث السيد هاردينغ عن بولد وزيارته. ثم أضاف: «سوف يصلح رئيس الشمامسة الأمور» أجاب الأسقف بلطفٍ عندما تحدث صديقه متردداً عن مدى عدالة موقفه، «ما من رجلٍ يسوّي مثل هذه القضايا كرئيس الشمامسة»

غير أن جرعة العلاج هذه التي وصفها الأسقف، فشلت في تهدئة قلق المريض على الرغم من كونها جرعة قوية، وفي الواقع كادت أن تؤدي به للغثيان.

«ولكن يا قداسة الأسقف، هل سبق أن قرأت وصية جون حيرام؟»

اعتقد الأسقف أنه قرأها سابقاً، قبل خمسة وثلاثين عاماً خلت، عندما وضعوا نصها أمامه لأول مرة، ولكنه لم يستطع الإجابة بصورة قاطعة. ومع ذلك، كان يعرف جيداً أنه يملك مطلق الحرية في إظهارها أمام راعي مأوى حيرام، ويعرف كذلك، أن مسألة دخل الراعي، محسومة على نحوٍ منتظم.

«لكن يا سيدي الأسقف، السؤال هو: من يملك سلطة إقرار المُرْتَب؟ وإذا كانت الوصية، كما يقول هذا الشاب، تنص على تقسيم عائدات الممتلكات إلى حصص، فمن له سلطة تغيير نصوص الوصية؟»

كان لدى الأسقف فكرة غير واضحة مفادها أن نص الوصية غيّر نفسه بنفسه بمرور السنين، وأن هناك نوع من التشريعات الكنسية تحدّ نزلاء المأوى الاثني عشر من أي حق في أيّ زيادة في الدخل ينشأ عن أيّ زيادة في قيمة الممتلكات. وقد ذكر شيئاً عن التقاليد، وأن معظم المتعلمين أثبتوا صحة الترتيبات الحالية بحكم خبراتهم. ثم تحول في النهاية، إلى نقطة مراعاة الحفاظ على الفرق الواجب في الرتبة والدخل بين رجل دين يحمل رتبة كنسيّة ذات دخل، وبين مسنّين مُعَدَمين يعتمدون على الصدقات! ثم اختتم سلسلة حججه بإشارة أخرى لرئيس الشمامسة.

جلس مرشد جوقة المُرْتَلين يتأمل ملياً وهو يحرق في النار ويصغي لمبررات صديقه المنطقية. كان فيما قاله الأسقف نوعٌ من الراحة، لكنها راحة وقتية. لقد جعل السيد هاردينغ يشعر أن الكثير أو بالأحرى كل من يعملون تحت إمرته، يرونه على حق. لكنه فشل في أن يُثبت له بأنه كان على حق فعلاً.

«قداسة الأسقف...» قال السيد هاردينغ في النهاية بعدما لبث كلاهما صامتين لوهلة، «قد أخذ نفسي وأخذك إن لم أخبرك بأني غير راضٍ تماماً عن كل هذا. لا أظنني قادرٌ على إجبار نفسي على الاتفاق مع الدكتور غرانتلي! ثم أن أكتشف - بعد التحقيق - أن بولد على حق وأني على خطأ! ماذا سأفعل حينها؟!»

كان الرجلان المسنان جالسين بالقرب من بعضهما، قرييين لدرجة أن الأسقف كان بإمكانه وضع يده على ركة السيد هاردينغ، والضغط عليها بلطف، وكان السيد هاردينغ يعرف جيداً ما تعنيه هذه الحركة! لم يكن لدى الأسقف أي حجة أخرى ليقدمها. ولا يملك القدرة على الكفاح من أجل القضية كما يكافح ابنه. لم يستطع إثبات أن جميع شكوك السيد هاردينغ لا أساس لها من الصحة. لكن بإمكانه أن يتفهم صديقه، وقد فعل ذلك. شعر السيد هاردينغ أنه قد تلقى ما جاء من أجله. خيّم فترة أخرى من الصمت. وبعد ذلك تساءل الأسقف، بقدر غير معتاد من الهمة، عما إذا كان لهذا «الدخيل المزعج» - وهو يعني جون بولد- أي أصدقاء في بارچستر.

قرر السيد هاردينغ إخبار الأسقف بكل شيء، وأن يخبره عن حب ابنته، وكذلك عن أسباب قلقه. وأن يحكي عن جون بولد بدوره المزدوج «كزوج ابنته المستقبلية» و «غريمه الحالي». ومع أنه مدرك بأن هذا تصرف غير مقبول منه البتة، فقد حان الوقت للقيام بذلك.

«تربطه علاقة شخصية بمنزلي يا أسقف!»

أخذ الأسقف يحدّق فيه. فهو لم يكن ممعناً في مسائل العقيدة والتشدّد الكنسيّ كابنه، لكنه ما يزال عاجزاً عن فهم كيف يسمح المرء لعدوّ حقيقي للمؤسسة الدينية، بالدخول لبيته والارتباط معه بعلاقة شخصية! لم يكن كأبي منزل عادي لشخصية بمنصب قويّ مثل السيد هاردينغ فحسب، وإنما شخص تمت الإساءة إليه كثيراً بصفته راعي المأوى!

«في الواقع، إنني شخصياً، أحب السيد بولد كثيراً» تابع الضحية النزيه متردداً وهو يروي الأخبار الفظيعة، «ولأكون صادقاً معك.. لقد فكرتُ في بعض الأحيان أنه من غير المستبعد أن يُصبح صهري الثاني...»

لم يُصفرّ الأسقف. إذ نخالهم يعجزون على فعل ذلك عندما يكرسون أنفسهم لخدمة الرب. وفي أيامنا هذه، قد يجتمع المرء بقاضٍ فاسد بنفس سهولة رؤية أسقفٍ يُصفرّ، لكنه بدا كما لو كان سيفعل ذلك لو لا ثيابه الكهنوتية!

يا له من عديل لرئيس الشمامسة! ياله من زواج في كنيسة بارچستر! يا لها رابطة مباشرة بقصر الأسقف! لم يشكّ الأسقف -سريع التصديق- في أن جون بولد، الذي كان يتمتع بتأثير كبير، سيغلق جميع الكاتدرائيات، ولربما جميع الكنائس الرعوية، ويقوم بتوزيع عُشر إيرادات الأسقفية على أتباع الكنيسة الميثودية والمعمدانيين والقبائل المتوحشة الأخرى.

وسوف يُدمّر الكرسي المخصص للأساقفة في مجلس اللوردات، ويصنع قبعات جاروفية وأكمام أردية الأساقفة بطريقة مُحرمّة كما تُصنَع قلنسوات ساكني الدير والصنادل والثياب المنسوجة من قماش الخيش! هنا يجلس رجلٌ طيب سيُدخلُ إلى الأروقة الكنسيّة الهادئة، إنسانٌ يُشكك في نزاهة راعي الأبرشية، وعلى الأرجح، مرتدٌّ عن الثالوث الأقدس!

لاحظ السيد هاردينغ الأثر الذي أحدثته أخباره، وكان شبه آسف على صراحة ما كشف عنه، لكنه بذل كل ما في وسعه لتخفيف كآبة صديقه وراعيه.

«أنا لا أزعم بأنهما يتواعدان. لو كان هناك شيء من هذا القبيل، لأخبرتني إيلانور، إنني أعرفها حق المعرفة، وكانت ستُخبرني بذلك يقيناً؛ لكنني أعرفُ بأنهما معجبان ببعضهما. وكوني إنساناً وأباً، ليس لدي أيُّ اعتراض على المودة التي تربط بين قلبيهما»

«لكن يا سيد هاردينغ، كيف ستُجابههُ إن غدا صهرك؟»

«لا أنوي مجابته، هو من يفعل ذلك. وإن كان هناك ما ينبغي فعله بهدف الدفاع، فأعتقد بأن تشادويك سيتولى ذلك. أظن...»

«أوه، سيحرص رئيس الشمامسة على تولي ذلك. لن يردع رئيس الشمامسة شيء أبداً عن القيام بما يراه صحيحاً حتى لو صار هذا الشاب عديله»

ذكر السيد هاردينغ الأسقف بأن رئيس الشمامسة والمُصلح الشاب لم يصبحا عديلين بعد، وأربما، لن يُصبحا أبداً؛ ثم انتزعَ منه وعداً بعدم ذكر اسم إيلانور في أي نقاش يدور بين الأسقف - الأب ورئيس الشمامسة - الابن فيما يتعلق بقضية المأوى؛ ثم غادر بعد أن أوقع صاحبه المسكين في حيرة واستغراب وذهول!

قديسة مسيحية وشفيعة الموقنين وهي واحدة من الشهداء العذارى ممن حكم عليها الامبراطور ماركوس أوريليوس بالموت بسبب إيمانها بالسيد المسيح وتم قتلها في جزيرة صقلية.

هنري رولي بيشوب 1786 - 1855 ملحن إنكليزي

عادة من العادات الغربية للسيد هاردينغ، أنه يبدأ بتحريك أصابع يده كما لو كان يعزف على كمان وهو عادةً ما يفعل ذلك في الأوقات التي يكون فيها تحت ضغط نفسي شديد وعندما يكون عاطفياً.

الفصل الرابع: نزلاء مأوى حيرام

لم تكن أهم الأطراف المعنية بالأحداث التي أوشكت على بذر الشقاق والنزاع في كاتدرائية بارچستر، في طليعة من ناقشوا الوقائع الموضوعية للقضية، كما هو الحال غالباً. وفي الوقت الذي كان الأسقف، ورئيس الشمامسة، وراعي المأوى، وكيل الكنيسة، والسيدان كوكس وكامنز، مشغولين بالقضية كل واحد منهم على طريقته الخاصة، ليس علينا أن نظن بأن نزلاء مأوى حيرام ظلّوا بموقف المتفرج السلبي! إذ كان فيني المحامي موجوداً فيما بينهم، يطرح تساؤلات خبيثة، ويشير آمالاً كبيرة. يخلق حزباً معادياً لراعي المأوى، ويؤسس فيلقاً في معسكر العدو، كما يسميه هو مجازياً. فيما كان المسنونون المساكين - سواء وقع ظلمٌ عليهم أو لم يقع - المتضررين الوحيديين. وبالنسبة لهم، فإن كل ما يحدث لا يمكن إلا أن يكون شراً محضاً، وأيّما شر!

كيف يمكن لحصصهم أن تزداد؟

رغباتهم وسبل الراحة متوفرة كلها. ثمة بيوت دافئة تأويهم، ثياب جيدة، أطعمة وفيرة، وراحة بعد حياة من الكدح والشقاء! والأهم من كل ذلك، إنهم يملكون كنزاً لا يقدر بثمن في آخر سنوات حياتهم، لديهم صديقٌ صادقٌ طيب القلب، يُصغي لأحزانهم، يعتني بهم في مرضهم، ويجبر خواطرهم لدنو آجالهم في هذه الحياة وقربهم من العالم الآخر! وهذا ما يتبادر إلى ذهن جون بولد في بعض الأحيان عندما يتحدث بصوت عالٍ عن حقوق النزلاء ممن تولى مهمة الدفاع عنهم؛ لكنه يلزم الصمت أمام هذه الإشارات داخل صدره باسم صوت العدالة الرنان:

«ستأخذ العدالة مجراها، ولو أُطبقت السماء على الأرض»

يجب أن يحظى هؤلاء المسنون - وبالحق - مئة جنيه في السنة بدلاً من شلن واحد وستة بنسات في اليوم، وينبغي أن يتلقى راعي المأوى مئتين أو ثلاثمئة جنيه بدلاً من ثمانمئة. كل ظالم باطل، وعلى كل المظالم والإساءات أن تُجبر. وإذا رفض تولي المهمة، من غيره سيتولّاها؟

«من الواضح أن كل واحد منكم يحق له الحصول على مئة جنيه في السنة بموجب القانون العام». هذا ما همس به فيني في أذني أيل هاندي، والذي نقله بدوره إلى رفاقه الأحد عشر. علينا ألا نتوقع الكثير من أقرب أقربائنا، بل حتى من نزلنا مأوى جون حيرام! إذ كان الوعد المبشر بالخير المتمثل بمئة جنيه سنوياً، ينعقد بداخل كل رجلٍ فيهم آنذاك. لم يكن على بونس العجوز أن يُبدد الوقت بالتفكير، وقد دعمه اثنان من أتباعه في مبدئه. ولكن من المؤسف أن أيل هاندي، الذي كان زعيم الطامحين إلى الثروة، أصبح لديه أتباع أقوى! وسرعان ما صدقه بما لا يقل عن خمسة رجال، مؤمنين بأن وجهات نظره كانت مُنصِفةً، جاعلين منه رمزاً من رموز المأوى. أما بالنسبة للثلاثة الآخرين ذوي العقول المفتقرة للثبات، كانوا مترددين بين الزعيمين بونس وأيل، يقودهم أمل الذهب، وباتوا حريصين على استرضاء القوى التي ما زالت قائمة.

قُدِّمَ اقتراح برفع عريضة إلى الأسقف من قِبَل النُزلاء، يطلبون من جنابه أن تأخذ العدالة مجراها وأن تُطبَّق على المستفيدين الشرعيين من مأوى جون حيرام الخيري، وأن تُعمَم نُسَخُ من هذه العريضة والرد الذي سيتلقاه، على جميع صُحف لندن الرائدة، وبذا اكتساب سمعة سيئة فيما يتعلق بهذه القضية.

واعتبرَ أن ذلك سيمهد الطريق أمام إجراءات قانونية خفيفة. وهذه ستكون خطوة مهمة بأن يُصبح في حوزتهم توقيعات وعلامات الموصى لهم من المتضررين الاثني عشر كلهم. لكن هذا كان مستحيلاً! إذ إن بونس كان سيقطع يده قبل أن يوقع على العريضة.

حينذاك، أكَّد المحامي فيني أنه إذا تمكنوا من دفع أحد عشر رجلاً إلى التوقيع على العريضة، فلربما يتم اعتبار بونس الراض العنيد على أنه غير مؤهل للبت في مثل هذه القضية، بل يتم اعتباره على إنه ليس بكامل صحته العقلية، وستؤخذ العريضة باعتبارها انعكاساً لآراء الرجال الباقين.

ولكن هذا لم يكن ليتحقق! إذ كان أصدقاء بونس عنيدين مثله، وحتى الآن لم يملأ العريضة سوى ستة توقيعات. وكان الأمر الأكثر استفزازاً، أن بونس يستطيع توقيع اسمه بخطٍ مقروء، وكان واحداً من بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة المترددين، يتباهى بقدرة مماثلة طيلة سنوات، وكان في الحقيقة يملك كتاباً مقدساً، يفخر بحمل توقيعه بخط يده منذ حوالي ثلاثين عاماً: «جوب سكولبيت». ولكن ساد اعتقادٌ بأن جوب سكولبيت، قد نسي قدرته

هذه، وبناءً على ذلك عزفَ عن توقيع العريضة، فحذى المترددون البقية حذوه، وبالتالي، لن تكون عريضةً موقعةً من نصف نزلِء المأوى، ذات أثرٍ قويٍّ!
كانت العريضة ملقاةً في غرفة سكولبيت، بانتظار ملئها بتواقيعٍ إضافية كتلك التي حصل عليها أيبيل هاندي عن طريق طلاقةٍ لسانه. وقد ثبتوا التواقيع الست التي تحملها العريضة كما ينبغي على النحو الآتي:

النزيل النزيل النزيل

أيبيل هاندي ماثيو سبرغس غريغوري مودي

التوقيع التوقيع التوقيع

وخصصوا أماكن - كما ينبغي - بقلم رصاص للرفاق المتوقع انضمام تواقيعهم. ولأجل سكولبيت وحده، تركوا مكاناً يُمكن أن يمضي فيه توقيععه بأسلوب واضح كما يوقع الموظف.
كان هاندي قد جلب العريضة وفردها على الطاولة الخشبية الصغيرة، ثم وقف على مقربة منها، مفحماً ومُتلهفًا، يتبعه مودي بدواةٍ تاركًا وراءه فيني بحذر. وحمل سبرغس عاليًا كما لو أنه يحمل سيفًا، قلم حبرٍ أسود اللون مستعملًا بكثرة. وأخذ يحاول جاهدًا من وقت إلى آخر، أن يُقحمه بيد سكولبيت الراض للتوقيع. يرافق هاندي المُطّلع على الأمور، اثنان من رفاقه المشيرين للشكوك، وليام غازي وجوناثان كرامبل. فإذا كان ينبغي تقديم العريضة، فقد حان الوقت الآن لذلك كما قال السيد فيني. كان ثمة قلقٌ بالغ يساور أولئك الذين يحقُّ لهم مئة جنيه سنويًا، كما يظنون، ويتوقف حقهم على الوثيقة المعنية بصورة رئيسية.
«أن نُحرَمَ من كل هذا المال، من قِبَلِ عجوزٍ أحمق يدّعي أن باستطاعته كتابة اسمه مثل أسياده!» همس مودي الجشع لصديقه هاندي.

فأجابه هاندي، محاولاً أن يمنح ملامحه الممتعضة المُندرة بالشرِّ، ابتسامة تنمُّ عن رضىٍ، لكنه فشل في ذلك فشلاً ذريعاً: «حسنًا يا جوب، أرى أنك مستعدُّ الآن، يقول السيد فيني: هذا هو مكان توقيعك، أترى...»، ثم وضع إصبعه المُصفرَّ الضخم على الورقة المُلطَّخة وأردف: «ضع توقيعك أو اسمك هنا، لا فرق بينهما. هيّا يا عجوز. إذا كان الأمر كذلك فسوف نحظى برفاهيةٍ صرف هذه الأموال. لذلك، كلما أسرعنا كلما كان أفضل! هذا هو شعاري!»

«ومما لا شكَّ فيه، ليس بيننا رجلٌ واحد في ريعان شبابه ولم يعد بوسعنا انتظار ذلك المرشد العجوز الماكر صاحب التشيلو المصنوعة أوتاره من أمعاء الماعز!» أضاف مودي.

هكذا كان يتحدث هؤلاء الأوغاد عن صديقنا الطيب، بهذا اللقب الذي كان سيغفره لهم عن طيب خاطر، غير أن التلميح إلى أوتار ترانيمه الربانية، مصدر فرحه المنعوم الشجي بكل ما في الكلمة من معنى، من شأنه أن يُثير حفيظته أكثر. ولنأمل أنه لم يعلم بتلك الإهانة قط.

«فكر بالأمر فقط يا بيلي غازي العجوز...» قال سبرغس الذي يصغر رفاقه عمراً، إلا إنه لم يكن أكثر المسنين جاذبيةً، كونه سقط في نار وهو ثمل ذات مرة، وأحرق إحدى عينيه وإحدى وجنتيه وجزءاً من ذراعه: «مئة جنيه سنوياً، لصرفها كلها، فكّر بالأمر فقط يا بيلي العجوز!»

ثم كثر سبرغس تكشيرةً بشعة كشفت إلى أقصى حد عن شدة الحادثة.

لم يكن العجوز بيلي غازي ينبض حماسةً. حتى أن هذه الآمال الذهبية لم تثره إلى القيام بما هو أكثر من فرك عينيه ضعيفتي النظر بكمّ ردائه، والغمغمة ببطء: «إنه لا يعرف، لا يعرف...».

«لكنك تعرف يا جوناثان...» تابع سبرغس، والتفت إلى صديق سكولبيت الآخر، الذي كان جالساً على مقعد بجانب الطاولة، يحدق بنظرة خاوية في العريضة.

كان جوناثان كرامبل رجلاً لطيفاً ومتواضعاً. وكان قد شهد أياماً طيبة، قبل أن يهدر أولاده الفاسدون ثروته وجعلوه يعيش حياةً بائسةً إلى أن تم نقله إلى المأوى وأصبح من أفراد منذ عهد قريب.

ومنذ ذلك اليوم لم يعرف الحزن ولا المتاعب، وكانت محاولة غمر قلبه بآمال جديدة، في الواقع، محاولةً قاسية.

«مئة جنيه سنوياً مبلغٌ رائعٌ يقيناً يا جاري سبرغس. كان ذلك جيداً ذات مرة بالنسبة لي، إلا أنني لم أستفد شيئاً منه» أجاب جوناثان وتنهّد تنهيدةً خافتة وهو يتذكر أبناءه من صلبه الذين سرقوه.

«وسوف تحصل على المال مرة أخرى يا جو. وسيكون برفقتك شخص ما ليحفظ أموالك ويبقي عليها هذه المرة» علق هاندي.

أطلق كرامبل تنهيدةً أخرى. لقد كان مُدرِّكاً لضعف الثروات الدنيوية، وكان من دواعي سروره أن يتركوه دون محاولات ترغيب بالقضية، وأن يظل سعيداً بمُرتب شلن واحد وست بنسات في اليوم.

«هيا يا سكولبيت!» صاح هاندي مجدداً وقد بدأ صبره ينفد «إنك لن تُسائر بونس العجوز في مساعدة ذلك القس على سرقتنا جميعاً. خذ القلم ووقّع هياً» ثم أضاف وهو يرى أن الشك ما يزال يساور سكولبيت: «بالنسبة لي، رؤية رجل يخشى من الدفاع عن حقه، من أكثر المواقف وضاعة!»

«دمرهم جميعاً حتى رعاة الأبرشية...» زمجر مودي «الامتسولون الجوعى، كما لو أنّ بطونهم لن تشبع قبل أن يستولوا على كل شيء»

«من سيؤذيك يا رجل؟» دخل سبرغس في النقاش، «لا تدعهم يشكلون تهديداً عليك. إنهم لا يجرؤون على طردك بعد أن صرتَ فرداً من المأوى. كلا! ليس ذلك الماكر ذو الأوتار المصنوعة من أمعاء الماعز! فلتساعده عجولها على العزف!»

يؤسفني أن أقول بأنهم أشاروا إلى رئيس الشمامسة بهذه التلميحات البذيئة، بشخصيته الدنيوية.

«ستكسب مئة جنيه سنوياً. وما من شيءٍ لتخسره» استأنف هاندي، «يا سلام! حسناً، كيف للمرء أن يساوره شكٌ في حدوث أمرٍ ممتاز مثل هذا الذي نخشاه. لكن معظم الرجال مهزوزون. معظمهم ولدوا جناءً بالفطرة. وبعضهم يدبُّ الرُوعَ في قلوبهم من أول لمحةٍ لمعطفٍ وصدرية سيّد نبيل!»

آه يا سيد هاردينغ، لو أنك أخذتَ بنصيحة رئيس الشمامسة في تملك القضية المتنازع عليها، عندما كان جو مترز هو المرشح المنافس لذلك النزيل الناكر للجميل!

«خائفٌ من راعي الأبرشية» زمجر مودي وعيناه تجدح بنظرة ازدراء تفوق الوصف، «سأخبركم ممّ أنا خائفٌ. خائفٌ من عدم الحصول على أيّ شيءٍ منهم باستثناء ما يمكنني أخذه بالقوة والحق! هذا أكثر ما أخشاه من أي كاهن»

فأجابهم سكولبيت على نحوٍ تبريري: «لكن السيد هاردينغ ليس بهذه الدرجة من السوء! لقد منحنا بنسان في اليوم، أليس كذلك؟»

«بنسان في اليوم؟!» صاح سبرغس بلهجةٍ تنمُّ عن احتقار وهو يكشف عن جوفٍ مُحمرٍّ لعينه المفقودة على نحوٍ فظيع.

«بنسان في اليوم؟!» غمغم مودي وهو ينبس باللعنات: «انسَ أمرهما!»

«بنسان في اليوم!» صرخ هاندي: «أيجدر بي أن أذهب إليه ممسكًا قبعتي في يدي، لأشكر الرجل على منحة البنسين في اليوم بينما هو مدينٌ لي بمئة جنيه في السنة؟! كلا! لعل الأمر يروق لك، لكن ليس لي. هيا يا سكولبيت، هل ستترك توقيعك على هذه العريضة أم لا؟»

تطلع سكولبيت لرفيقه بحيرةٍ بالغة ثم قال: «ما رأيك يا بيلي غازي؟» لكن بيلي غازي عجز عن إبداء رأيه. فأطلق صوتًا يُشبهُ ثغاء خروف عجوز، وكان المقصود منه التعبير عن عذابات شكوكه، وردد مرة أخرى بأنه «لا يعرف».

«أمسك أيها العجوز الأعرج...»، قال هاندي وهو يقحم القلم بيد بيلي المسكين: «وَقِّع هنا... أووه أيها العجوز الأحمق! لقد لطخت كل شيء! وَقِّع هنا... هذا من أجلك. أووه هذا أجمل توقيع سبق لي رؤيته»

وهكذا، فإنها بقعةٌ حبرٍ كبيرة كان من المفترض أنها تمثل قبول بيلي غازي الضمني.

«والآن، حان دور جوناثان...»، قال هاندي ملتفتًا إلى كرامبل.

«مئة جنيه يقينًا سنويًا مبلغٌ جيدٌ» قال كرامبل مجددًا «حسنًا أيها الجار سكولبيت، ما رأيك؟»

«افعل ما يحلو لك! افعل ما يحلو لك وارحمني»، أجاب سكولبيت.

وهكذا، دفع هاندي القلم بيد جوناثان الذي ترك توقيعًا بخطِّ مائلٍ، غير واضحٍ ولا معنى له. مُبينًا تلك المقاطعة والهيئة التي من شأن جوناثان كرامبل نقلها.

ثم قال هاندي الذي هدأ بعد نجاح محاولاته في الإقناع: «هيا يا جوب سكولبيت، لا تدعهم يقولون إن بونس العجوز يسيطر على رجل مثلك. رجلٍ لطالما يمشي في المأوى برأسٍ مرفوع كما هو بونس، مع أنك لم تسعَ خفية وراء مقاصد شخصية بحجة شرب النبيذ، ولم تختلس ولم تطلق الأكاذيب على لسان أسياذك كما يفعل هو!»

حمل سكولبيت القلم، وأخذ يلوّح به تلويحاتٍ صغيرة في الهواء، لكنه كان ما يزال مترددًا.

«وإن أردتَ رأيي، لا تكتب اسمك على العريضة نهائياً. وقّع مثل الآخرين فقط»، علق هاندي.

بدأ العبوس يُزايِل جبين سكوْلبيت
«كلنا نعرف أن بوسعك التوقيع لو طاب الأمر لك، لكن لربما لا ترغب في أن تبدو معتدّاً
بنفسك».

«طيب، سيكون التوقيع أفضل»، قال سكوْلبيت
«يبدو وكأنه إجراءٌ سيئٌ أن أحدهم يكتب اسمه بينما يترك الباقيون تواقيعهم، أليس
كذلك؟»

«أسوأ ما في العالم... هناك.. هناك...» أجاب هاندي وهو ينحني على العريضة، ثم رسم علامة صليب ضخمة في الحيز الذي تُرك لتوقيعه. «انتهت اللعبة...» صاح هاندي وهو يختلس العريضة منتصراً. «والآن أصبحنا على متن نفس القارب، أعني نحن التسعة. أما بالنسبة لبونس العجوز وأتباعه، فيمكنهم أن...»، إلا أنه وبينما أخذ يعرج متوجهاً نحو الباب، متكئاً على عكازٍ من جانب وعصيّ من الجانب الآخر، التقى ببونس نفسه.
«حسناً يا هاندي؟ وماذا بإمكان بونس العجوز أن يفعل؟»، قال الرجل الطيب ذو الشعر الأشيب.

غمغم هاندي ببضع كلمات، وكان على وشك المغادرة إلا إنه توقف عند المدخل بعد أن اعترض طريقه بونس ذو البنية الضخمة.
«إنك تخطط هنا لأمرٍ لا خير فيه يا أيبل هاندي، وهذا واضح وضوح الشمس. وأعتقد أن ما تفعله سيذهب سدى!»

فجاءه رد بونس: «إنّي أهتم بشؤوني يا سيد بونس، كما تفعل أنت. وشؤوني لا تعنيك. لن يُجدي تجسسك واختلاسك النظر نفعاً، ولا حتى ضرراً!»
«إذن أعتقد يا جوب...»، تحدث بونس دون أن يكثر لخصمه، «إذا كان لا بُد من كشف الحقيقة، فقد وقعت على عريضتهم في نهاية المطاف!»
فبدأ سكوْلبيت أنه على وشك أن تنشق الأرض وتبتلعه من شعوره بالخجل.

«ما شأنك بتوقيعه؟ أظننا لا نحتاج إلى إذن منك لو أردنا جميعاً أن نسعى لتحقيق شيء لأنفسنا أولاً يا سيد بونس. رجل كبير مثلك يتسلل إلى غرفة جوب وهو مشغول، حيث لن يرحب بك أحدٌ...»

فأجاب بونس وهو ينظر لسكولبيت:

«أعرف سكولبيت منذ ستين عاماً. عرفته كصبيٍ منذ ولادته وعرفته كرجل. وعرفتُ الأم التي أنجبته وقتَ كُنّا - أنا وهي - صغاراً نلتقط الأحقوان معاً في الجوار هناك. وقد عشت معه تحت السقف نفسه أكثر من عشرة أعوام، وبالتالي، يحق لي الدخول لغرفته بدون إذن، والتسلل إليها كذلك!»

«بإمكانك ذلك يا سيد بوند، بإمكانك ذلك في أي وقت كان ليلاً أو نهاراً»

فتابع بونس، وهو ينظر إلى الرجل المقصود ويخاطب الآخر: «وأنا حرٌّ أيضاً لإخباره رأيي، وأن أقول له بأنه ارتكب حماقةً وخطأً فادحاً بفعلته هذه! لقد أدار ظهره لشخص هو من أعز الأصدقاء على قلبه، وانخرط يلعب لعبة الآخرين ممن لا يكثرثون بأمره، سواء أصبح فقيراً أو غنياً، معافىً أو مريضاً، حياً أو ميتاً! مئة جنيه سنوياً؟ هل أنتم بهذه الدرجة من الغباء لتعتقدوا بأنهم لو منحوا أحداً مئة جنيه سنوياً، فإن أمثالكم من سيحصلون عليها؟!» قال وهو يشير بإصبعه إلى بيلى غازي، سبرغس، وكرامبل.

«هل فعل أيُّ منا شيئاً يستحق نصف هذا المال؟ هل جلبونا إلى هنا ليجعلوا منا نبلاء وسادة بعد أن انقلب العالم كله ضدنا ولم يعد بإمكاننا كسب قوت يومنا؟ أُلستم أغنياء بأفكاركم مثله؟» وأشار بونس إلى الناحية التي يعيش فيها راعي المأوى قائلاً: «ألم تحصلوا على كل ما تمنيتموه وأكثر؟ ألم يمنح كل واحد منكم أعز ما عنده ليُشعركم بالأمان، ثم تنكرون جميله الآن؟»

«نريد ما تركه لنا جون حيرام، نريد ما هو لنا بالقانون. ما نتوقعه ليس مهماً. فما هو حقنا بحكم القانون يجب أن يكون لنا، وسنحصل عليه بالقانون» أجاب هاندي.

«القانون!» قال بونس بكل استخفاف: «القانون! هل سبق لك أن عرفتَ بأنَّ أغلب القضايا التي يتبناها القانون أو المحامون هي قضية الإنسان الفقير؟ هل سيعاملك السيد فيني معاملةً حسنةً كذاك الرجل؟ هل سيعتني بك عندما تكون مريضاً ويواسيك وأنتَ بائس؟ هل

«...»

«كلا، ولن يمنحك نبذ بؤرت أيها العجوز في ليالي الشتاء الباردة. لن يفعل أليس كذلك؟» تساءل هاندي وهو يضحك من فورة حسه الفكاهي! ثم انسحب هو وأتباعه، حاملين معهم العريضة ذات التأثير القوي.

لا يغني البكاء على ما فات شيئاً. وليس بيد السيد بونس إلا أن يعود إلى غرفته، مشمئزاً من هشاشة طباع بني آدم!

فيما كان جوب سكولبيت يحك رأسه، وجوناثان كرامبل يردد: «مئة جنيه سنوياً يقيناً مبلغٌ عظيم». في حين راح بيلى غازي يفرك عينيه ويغمغم بصوتٍ خافتٍ بأنه: «لا يعرف شيئاً».

الفصل الخامس: الدكتور غرانتلي يزور مأوى

مع أنّ الشك والحيرة قضيًّا مضجع راعينا المسكين، لم يجد مثل هذا الضعف سيلاً إلى قلب صهره المحترم. وكما يستعد الديك الذي لا يُغلب لخوض معركة، فينفض ريشه ويشحن مهامه، أخذ رئيس الشماسة يعدّ للعدة لمحرب القادمة، من غير أن تتأبه الشكوك أو المخاوف. إذ كان على يقين تام من عدالة قضيتِهِ، فلا يشكّن أحدٌ في ذلك. قد يخوض المرء معركته بشجاعة، لكن بضمير لا يُميّز بين الصواب والخطأ وبين الحق والباطل، غير أنّه لم يكن هذا هو الحال مع الدكتور غرانتلي.

فهو لم يؤمن إيماناً كبيراً بالأناجيل كما آمن بالعدالة المقدسة لمصادر الدخل الكنسيّ. وعندما شمرّ عن ساعديه للدفاع عن موارد مرشدي المرّتين الحاليتين والمستقبليين في بارچستر، كان يحركه شعور قوي بالقضية المقدسة، مثل من يمدُّ الشجاعة لمُبشّر في أفريقيا، أو كمن يؤهل راهبةً من راهبات الرحمة من أجل التخلي عن ملذات الحياة لرعاية شؤون مأوى.

كان على حافة منع الدنيويين من تدنيس أقدس بقعة في بارچستر. أن يدفع عن قلعة كنيسته، خصومها الأكثر شيوعاً ويلبس أقوى دروعه في أشرس المعارك، وأن يُؤصلّ - قدر الإمكان - سَكينة معتقداته للأجيال القادمة من كبار الشخصيات الكنسيّة. ومهمّة كهذه، تقتضي عزمًا استثنائيًا، ورئيس الشماسة ذو عزم لا يلين، وتقتضي كذلك شجاعة كبيرة وقلبًا مستبشراً في مسعاه، وكان قلب رئيس الشماسة مستبشراً وشجاعته لا تُقهر.

لقد أيقن بأنه لن يستطيع دفع والد زوجته للعمل بمثل هذه المشاعر، لكنّ ذلك لن يضيره كثيراً. فأثر أن يتحمل الوطأة العظمى للمعركة وحيداً، ولم يساوره شكٌ في أن والد زوجته سيُسَلِّم أمره إليه بخضوع تام.

«حسناً يا سيد تشادويك...» قال رئيس الشماسة وهو يسيرُ إلى مكتب الوكيل بعد قرابة يومين من توقيع العريضة كما ذكرنا ذلك في الفصل السابق: «هل وصلك شيء من كوكس وكامينز هذا الصباح؟»

سلمه السيد تشادويك رسالةً قرأها وهو يُمسّد ربله ساقه اليمنى المشدودة بطماق.

اكتفى السيد كوكس والسيد كامينز بالقول أنهما لم يتلقيا حتى الآن أي بلاغ من خصومهم، وعليه فإنهما يوصيان بعدم اتخاذ أية خطوات وإن كانت أولية. ولكن إذا ما اتخذ نزلء المأوى أي إجراء، فمن الأنسب استشارة مستشار الملكة¹⁷ رفيع المستوى، السير أبراهام هابهازرد.

«أتفق معهما...»، قال الدكتور غرانتلي وهو يطوي الرسالة، «أتفق معهما تماماً، هابهازرد الأفضل بلا شك، إنه كاهنٌ ضليع، كفءٌ مقاومٌ للتغيير، وأنسب شخصٍ يمكننا استشارته بكل المقاييس... وهو عضو في مجلس العموم كذلك وهذا أعظم ما في الأمر» وافقه السيد تشادويك الرأي تماماً.

«أتذكرُ كيف قضى على إدوارد هورسمن الوغد ذلك¹⁸ بسبب قضية إيرادات أسقف بيفرلي وكيف جعلهم يتخبطون على غير هدى في قضية الإيرل؟!» ومنذ أن أثار الناس مسألة كنيسة القديس كروس، أصبح «الإيرل» أحد اللوردات النبلاء بلا منازع في نظر الدكتور غرانتلي.

«وكيف أسكت ذلك الرجل في روتشستر. علينا بالسير هابهازرد بالطبع. ولأصدقك القول يا سيد تشادويك، علينا أن نأخذ حذرنا قبل فوات الأوان، وإلا فإن الطرف الآخر سوف يسبقنا!».

ومع كل إعجابه بالسير أبراهام، رأى الطبيب أنه ليس مستحيلاً تحريض ذلك الشخص رفيع المستوى وتوظيف نفوذه الهائل لنفع أعداء الكنيسة. وبعد أن حسَم الدكتور غرانتلي أمره في هذه النقطة بما يُرضيه، خرج قاصداً المأوى ليستطلع كيف تجري الأمور هناك. وبينما كان يعبر الحرم المقدس وينظر إلى الغربان التي أخذت تنعق بإكبار غير مألوف وهو يشقُّ طريقه، راح يفكر بمراة متعاظمة، بأولئك الذين بجحو دهم، سيغا مرون في بعثرة نعم مؤسسات الكاتدرائية الوفيرة.

ومن لن يخامرهُ نفس الشعور؟ إننا نعتقد بأن السيد إدوارد هورسمن نفسه سيرضخ، وأن عزيمة السير بنجامين هول¹⁹ ستخور، لو أفسح المجال لأولئك المصلحين العظماء أنفسهم بالمشي حول أبراج معظم كنائسنا العريقة تحت نور القمر.

من منّا لن يشعر بأنه مدين لكنسيّ يتقاضى أجراً عندما يسيرُ بمحاذاة ذلك الدرب الهادئ الممتد على طول البصر في وينشستر وينظر إلى تلك البيوت المحترمة وقطع الأراضي المكسوة بالعشب المشذب، والشعور - كما يجدر للمرء الشعور - بانسراح ومهابة متناغمين في تلك البقعة! من منّا قد يقسو على كبير الكهنة، بينما يتجول حول حرم هيريفورد رائع الجمال. والاعتراف بأن في ذلك الحرم، بهجة ممزوجة بمسحة لونية، التصميم المتناسق مع الشكل، البرج المهيّب والنافذة ذات الطوابق، كل ذلك يظهر في تناغم وكمالٍ بكل ما في الكلمة من معنى؟! من يجرؤ على المشي في رواقٍ مقنطرٍ من أروقة ديرٍ في سالزبوري، متنعماً بدفء بالشمس، مُنعماً النظر في مكتبة جويل 20 وذاك البرج الذي لم يسبق له مثيل، دون أن يدرك بأن الأساقفة ينبغي أن يكونوا أثرياء أحياناً!

على طريقة تفكير رئيس الشمامسة ألا تفاجئنا! فهو حصيلة قرون من توسع هيمنة الكنيسة! فبالرغم من وجود بعض الفطريات النامية التي تشوه شكل الشجرة، والكثير من الأغصان الميتة، كم ثمرة من الثمار الشهية كنا ناكرين لجمالها؟ من منّا يقدر - دون أن يشعر بالندم - على كسر أغصان ميتة لشجرة بلوطٍ عجوز، باتت لا تنفع لكن بهاءها لم يزل؟ أو أن يجرف أجزاءً من غابة عتيقة، دون أن يعي بأنها تؤوي براعمَ يافعات، باتت اليوم فريسة الحزن بمنتهى القسوة والحتمية؟ ولكن، لم يكن رئيس الشمامسة رجلاً ذا إحساسٍ مرهف بالرغم من كل فضائله. بعد أن ألقى تحايا الصباح في غرفة استقبال السيد هاردينغ، لم يتحرّج قط من التهجم على جون بولد «المزعج» في حضور الأنسة هاردينغ، مع أنه خمّن تخميناً صحيحاً بأن تلك الأنسة كانت مهتمة باسم خصمه.

«نيلي يا عزيزتي، أحضري لي نظارتي من الغرفة الخلفية» قال والدها الذي كان حريصاً على مراعاة مشاعرها وتجنب إزعاجها في آن واحد.

جلبت إليانور النظارات، بينما كان والدها يحاول، بعبارات غامضة، أن يشرح لزوج أختها - المنطقيّ جداً - أنه من الأفضل عدم قول أي شيء عن بولد أمامها. ومن ثم انسحبت. ولم يوضّح لها أي شيء عن بولد والمأوى. لكن سليقة المرأة أعلمتها، بأن الأمور لا تسير على خير ما يُرام.

«علينا أن نفعل شيئاً بأقرب وقت» قال رئيس الشمامسة وهو يمسخ جبينه بمنديلٍ كبيرٍ زاهي اللون، فقد كان مشوش البال، وكان يمشي سريعاً والنهار الصيفي قائلظ الحرارة،

«سمعتَ بالعريضة طبعاً؟»

أقرَّ السيد هاردينغ، على مضضٍ إلى حدِّ ما، بأنه سمع بها.

«حسناً...»، قال رئيس الشمامسة وهو يبحث عن مفردات مناسبة ولكن، من دون جدوى.
فتابع: «علينا أن نفعل شيئاً، لن نسمح لهؤلاء القوم بسحب البساط من تحت أقدامنا ونحن جالسون ننظر إليهم»

فرييس الشمامسة المنطقي جداً، منح الحق لنفسه بتوظيف صيغ الكلام اليومية المُعبرة عندما يكون بين أقرب المقربين منه، رغم أن أحداً لم يستطع الإبحار في المتاهة المعقدة للمتشدق الكلامي المصاغ بعبارات صعبة عندما يكون محور الحديث «الكنيسة»، ورفاقه الأدنى مرتبةً منه، أتباعه.

لم ينبس الراعي ببنتِ شفة. كان يعزف صنوف الأنغام بقوس كمانٍ خياليٍّ، ويلغي بأصابع يده الثانية صنوف الأنغام الوهمية الأخرى. كانت نبرة صوته المضطرب عزاءً الدائم. ولأنَّ عريضة هؤلاء أثارت حفيظته، كانت النغمات المعزوفة تصلُّه بصورة بطيئة وضيئة، فلا أحد يرى الأيدي الخفية وهي تعزف! بل كأنما الأوتار التي يُعزف عليها مخفيةً في جيب الموسيقى والآلة التي يعزف عليها أدنى من مستوى كرسية. لكن بقدر ما بدأت روحه تطمئن للموضوع - بقدر ما بدأ قلبه اللواتق ينظر إلى صلب ما أثار غيظه، ويرى طريقه الواضح للخروج. كان يرقى إلى نغم أعلى، يشد الأوتار الخفية بيدٍ أكثر جرأة! وبخفة، يتحسس بأصابعه حبال الآلة من مستوى عنقه وصدريته وصعوداً حتى أذنيه مرةً أخرى، وهو يخلق لحناً طروباً من الموسيقى المثالية، تصل لقلبه وللقديسة سيسيليا، بأحلى أثر.

«أتفق تماماً مع كوكس وكامينز» أرفد رئيس الشمامسة، «إنهما يقولان بأن علينا التشاور مع السير أبراهام هابهازرد. لن أخشى ولو قليلاً من ترك القضية بين يدي السير أبراهام»
كان الراعي يعزف أبطأ الألحان وأكثرها إثارة للحزن، لم تكن ألحانه سوى مرثية تُعزف على آلة وترية واحد.

«أعتقد أن السير أبراهام لن يستغرق وقتاً طويلاً قبل أن يجعل السيد بولد مدرراً لما هو مقبلٌ عليه. أخالني أسمع السير أبراهام يستجوبه بدقة في محكمة القانون العام»

وراح الراعي يفكر في مرتبه، حياته المتواضعة، عاداته اليومية، ووظيفته اليسيرة، وكيف يخوض الآخرون جدالاً بسببه على هذا النحو، ولم يصدر من وتر الكمان ذاك غير عويل من

الأسى.

« أظنهم أرسلوا العريضة إلى أبي »

لم يكن الراعي على علمٍ بذلك. وظن أنهم سيرسلون العريضة في هذا اليوم بالذات.
« ما لا أستطيع فهمه هو كيف تتركهم يفعلون ذلك مع ما تحظى به من سلطة في هذا المكان، ومعك رجلٌ مثل بونس؟! لا أفهم لماذا تركتهم يفعلون ذلك »
« يفعلون ماذا؟ » سأل الراعي

« رفع العريضة! عجباً! أصغيتَ لذلك الرجل بولد، وذاك الحقير الآخر فيني! وسمحتَ برفع العريضة كذلك! لِمَ لم تأمر بونس بتمزيق العريضة؟! »
« لن يكون تصرفاً حكيماً على الإطلاق »

« حكيماً! صحيح، لكن من الحكمة تركهم يوقعون العريضة فيما بينهم ويرفعونها. أعتقد أنه يجدر بي العودة إلى قصر الأسقف كي أurd على العريضة الآن. سيحصلون على ردٍّ مقتضبٍ للغاية، أجزم لك! »

« ولكن لماذا عساهم ألا يرفعوا العريضة يا دكتور؟ »

« لماذا؟!!! »، رد رئيسُ الشمامسة، بنبرة عاليةٍ وقحة كما لو كان يتوقع أن يسمعه جميع من في المأوى من خلال الجدران، وأضاف: « لِمَ عساهم ألا يفعلوا؟ سأخبرهم بالسبب! اسمح لي أيها الراعي! أود أن أقول لهم شيئاً وهم مجتمعون »

أوجس الراعي خيفة لدرجة أنه نسي العزف هنيهة. لم يرغب - بأي حال من الأحوال - في أن يفوض لصوره أمر منصبه والراعي. كان قد قرر صراحة عدم التدخل في أي خطوة قد يرغب الرجال باتخاذها في هذه القضية الخلافية، وكان حريصاً على عدم اتهامهم ولا الدفاع عن نفسه. كان يعرف على وجه اليقين بأن رئيس الشمامسة سيتصرف نيابةً عنه، وأن أساليبه ليست وديّة؛ ومع ذلك فهو لا يعرف كيف يرفض طلب الإذن بذلك.
« أفضل التزام الصمت في هذه القضية » قال بلهجة متأسفة.

« تلتزم الصمت! » أجاب رئيس الشمامسة بذات النبرة العالية الوقحة والمتكبرة: « هل يطيب لك رؤيتهم يدمرون حياتك فيما تلتزم الصمت؟! أن تُمسي فقيراً؟ »
« إذا سأكون فقيراً أكيد... »

«كلامٌ فارغ يا أيها الراعي! أقولُ لك لا بد من فعل شيء! علينا أن نتصرف! سأقرع الجرس وأقول للرجال في الساحة ما ينبغي قوله!»

لم يعرف السيد هاردينغ كيف يعارض، وقد أصدر أوامر مكروهة تفضي بتجمع الرجال في ساحة المأوى. كانت الساحة، كما تسمى عادة، عبارة عن ساحة صغيرة مربعة الشكل تحيط بها المباني، تفضي من أحد جوانبها إلى النهر، محاطة بالسور العالي لحديقة السيد هاردينغ من الجوانب الأخرى، وبأحد أطراف جملون منزل السيد هاردينغ، وبنهاية صف المباني التي شكلت مساكن التزلّاء.

كانت الساحة مُعبّدة بالكامل، ومركزها مفروش بالبلاط. ثمة قنوات مائية حجرية صغيرة تمتد من زوايا الساحة الأربعة إلى تعريشة في المركز. ويتصل بنهاية منزل السيد هاردينغ ترعة مزودة بأربعة صنادير مخفية عن تأثيرات الطقس، حيث يحصل الرجال المسنون على مياههم، ويأخذون بشكلٍ عام حمامهم الصباحي.

لقد كان مكاناً هادئاً يطغى عليه جوٌّ من الكآبة، مظلاً بأشجارٍ حديقة الراعي. ومن الجانب المطل على النهر، كان هناك صف من المقاعد الحجرية، يجلس عليه الرجال المسنون، فترنو أنظارهم إلى الأسماك الصغيرة وهي تشق سريعاً مياه الجدول الجاري. على الطرف الآخر من النهر ينداح مَرَجٌ أخضرٌ خصبٌ يمتد إلى مقر رئاسة الكاتدرائية ويتصل به وينفتح قليلاً على عامة الناس، مثل حديقة كبير الكهنة ذاته. لذلك، ما من شيء قد يكون أكثر خصوصية من ساحة المأوى، وكان رئيس الشماسة هناك مصمماً على مخاطبتهم بلغة المنطق بكل ما يخص تصرفاتهم المتمردة. وسرعان ما تجمع الرجال في الساحة كما أبلغهم الخادم، فنهض رئيس الشماسة، الذي كان ذا إرادةٍ لا يُستهانُ بها، لمخاطبتهم.

«حسناً، أيها الراعي، أنتَ قادمٌ معي بالطبع» علق الدكتور غرانتلي عندما رأى أن السيد هاردينغ لم يتهيأ للانضمام إليه.

«آمل أن تعذّرني...» أجاب السيد هاردينغ.

«بالله عليك، دعنا لا نفسح مجالاً للخلافات في هذا المأوى. هيا نجتاز الصعاب ولكن قبل كل شيء، فلنتكاتف! تعال أيها الراعي، هيا. لا تتهرب من واجبك!»

كان السيد هاردينغ خائفاً. كان خائفاً من أن يُقاد للقيام بما هو ليس من واجبه! مع ذلك لم يكن قوياً بما يكفي لقول «لا» في وجه صهره، فقام وسار في إثره.

تجمع كبار السن على شكل مجموعاتٍ في الساحة. لا يقل عددهم عن أحد عشر، لأن جوني بيل المسكين كان طريح الفراش، ولم يتمكن من الحضور مع أنه أمضى توقيعه على العريضة كواحدٍ من أوائل أتباع هاندي.

صحيح أنه لم يستطع التحرك من السرير الذي يرقد فيه، صحيح أنه لم يكن لديه أصدقاء على وجه الأرض ما خلا هؤلاء الذين يسكنون المأوى ومن بين هؤلاء الرفاق كان الراعي وابنته الأوفى والأسخى معه؛ صحيح أن كل ما قد يحتاج إليه جسده العاجز أو ما يحظى به من أطعمة شهية كان متوفرًا له، ولكن ما برحت عيناه ذواتا النظر الضعيف تبرق لوهلة من فكرة امتلاك مئة جنيه سنويًا «وبكل وقاحة»، كما عبّر أبيل هاندي عنه ببلاغة؛ وكان العجوز المسكين جوني بيل قد ترك توقيعه على العريضة، طمعًا في ذلك.

عندما ظهر رجال الدين، كشف الرجال عن رؤوسهم. إلا أن هاندي لم يفعل ذلك فورًا، وراح يقدم رجالًا ويؤخر أخرى. لكن القساوسة الذين تحدث عنهم باستخفاف في غرفة سكولبيت، كان لهم تأثير عليه، مما دفعه إلى خلع قبعته هو أيضًا.

تقدم بونس أمام الآخرين، وانحنى متواضعًا لرئيس الشمامسة، وأعرب بكل احترام عن أمنيته في أن يكون الراعي والآنسة إليانور على ما يرام وأضاف قائلاً وهو يوجه حديثه إلى رئيس الشمامسة:

«وزوجة الدكتور، والأطفال في بلومستيد، وسيدي الأسقف».

وبعد تحياته، انسحب عائداً وأخذ مكانه مع البقية على المقاعد الحجرية.

عندما وقف رئيس الشمامسة ليخاطبهم منتصباً في وسط تلك الساحة الصغيرة، بدا وكأنه تمثالٌ كنسيٌّ وُضِعَ هناك، كما لو أنه ينتحل شخصيةً مماثلةً لمحارب كنسيٍّ هنا على كوكب الأرض. فقبعته الجاروفية الكبيرة الجديدة، توحى بقسيسٍ حقيقيٍّ، قلباً وقالباً، وتُفصح عن طبيعة عمله بكل وضوح، كما تفعل قبعات الصاحبيون ذات الحواف العريضة²¹.

فيما يشي حاجباه الكثان وعينه الواسعتان وفمه الذي يجيد نبس الكلمات وذقنه، بقوة رتبته الكهنوتية. صدره العريض المستور بقماشٍ ناعم يخبرنا عن يسر حاله، وتُظهر إحدى يديه المخبوءة في جيبه، التحكم ذا الطابع العملي الذي تُبقية كنيسة الأم على ممتلكاتها الدنيوية. أما اليد الأخرى، كانت طليقة للحركة، على أهبة الاستعداد للقتال إذا دعت الحاجة

دفاعاً عن صاحبها. وتحت هذه الهيئة التي تقر لها الأعين، يرتدي رئيس الشمامسة سراويل سوداء أنيقة ويحتذي جراميق لائقة، ما يدل على الاستقرار، والذوق والرونق الظاهريان لمؤسسة كنيستنا.

ما إن استقر رئيس الشمامسة في مكانه، حتى بدأ يحدثهم قائلاً:
«حسناً يا أتباعي، أودُّ أن أحدثكم قليلاً. صديقكم الراعي الطيب هنا، وأنا، وسيدي الأسقف، الذي أحدثكم نيابةً عنه، مغتمون، وفي الواقع، آسفون جداً لأن يكون لديكم أسباب قاهرة للشكاية. أي سببٍ منصفٍ للشكوى من قبلكم سيعمل راعي مأواكم على معالجة أسبابه فوراً، أو سيفعل ذلك قداسة الأسقف -والدي-، أو أفعله أنا نيابةً عنه، دون الحاجة إلى رفع عريضة من جانبكم»

وهنا توقف الخطيب هنيهة، متوقعاً أن يسمع ما يُشبه مهممات خفيضة تكشفُ أن أكثر الرجال حمقاً بدأوا يستسلمون، لكن لم تصدر مهممات كهذه. حتى أن بونس نفسه جلس مطبق الشفتين، صامتاً وغير راضٍ.

«دون الحاجة لأي عريضة على الإطلاق» كرر رئيس الشمامسة قوله وأضاف: «قيل لي أنكم أرسلتم العريضة إلى سيدي الأسقف» وصمت مؤقتاً لسماع الرد من الرجال، وبعد هنيهة، استجمع هاندي الشجاعة وقال: «نعم. لقد فعلنا ذلك»

«لقد أرسلتم العريضة إلى سيدي الأسقف. وفيها أوضحتكم، كما أُبلغت، بأنكم لا تتلقون حقكم من ممتلكات حيرام بالكامل»
وهنا أبدى معظم الرجال موافقتهم.

«والآن ما هي مطالبكم؟ ما الذي لا تملكونه هنا؟ ما هو...»

«مئة جنيه سنوياً...» غمغم مودي العجوز بصوتٍ كأنه اندفع من تحت الأرض.

«مئة جنيه سنوياً!» هتف رئيس الشمامسة المحارب، متصدياً لوقاحة هؤلاء المدّعون بيد ممدودة وقبضةٍ مسدودة، في حين أن قبضة يده الأخرى مثبتةٌ في جيب بنطاله بإحكام، هذا الرمز لثروة الكنيسة الذي لم يُمثله سياسة الثمن جنيه على نحوٍ غير لائق.

«مئة جنيه سنوياً يا رجال؟! لا بد أنكم مجانين! تتحدثون عن وصية جون حيرام! عندما بنى جون حيرام مأوىً للشيوخ المُتعبين، والعمال العجائز المُرهقين الذين كانوا يعملون

سابقاً، والمقعدين والمكفوفين وطريحي الفراش، وما شابه، هل تعتقدون أنه أراد أن يجعلَ منهم سادةً نبلاء؟

هل تظنون أن جون حيرام كان ينوي تخصيص مئة جنيه سنوياً لرجال وحيدين ومسنين كانوا لربما يكسبون شلنان أو شلنان وست بنسات في اليوم لأنفسهم ولعائلاتهم في أفضل الظروف المعيشية؟! كلا يا رجال! سأخبركم ما كان يعنيه جون حيرام: كان يعني أن اثني عشر رجلاً من العمال الفقراء المنهكين، رجالٌ لم يعد بإمكانهم إعالة أنفسهم، ممن لم يكن لديهم أصدقاء لمساندتهم، ممن قد يموتون جوعاً وبؤساً لو لم تمتد لهم يد العون والإحسان وتنتشلهم، كان يعني أن اثني عشر من مثل هؤلاء الرجال يجب أن يأتوا إلى هنا في عز فقرهم وبؤسهم، كي يجدوا داخل هذه الجدران المأوى والطعام قبل موتهم، وشيئاً من السكينة لإصلاح ذات بينهم مع الرب. هذا ما قصده جون حيرام. إنكم لم تقرؤوا وصية جون حيرام، وأشك كذلك في أن أولئك الرجال الملاعين الذين يحرضونكم قرأوها يوماً. أما أنا فقد قرأتها. وأعرف مضمون وصيته، وأقول لكم أن تلك كانت وصيته، وهذه نواياه»

لم ينس نزلء المأوى الأحد عشر بأي كلمة، وإنما جلسوا يستمعون إلى ماهية حقوقهم المزمعة بحسب قول رئيس الشمامسة. وراحوا يزنّرون النظر إلى بُنيته الضخمة مُتجهمين، ولكن في حينها ما أفصح أحدهم لا بالكلام ولا بالإشارة، عن الغضب والنفور اللذين من المؤكد أن نبرة صوتهم ستثيرهما.

وواصل الدكتور غرانتلي: «الآن دعوني أطرح عليكم أسئلة: أتخالون أنفسكم أسوأ حالاً مما أراده لكم جون حيرام؟ أليس لديكم مأوى وطعام ووسائل للراحة؟ أليس هذا أكثر مما تملكونه؟ ألا تتمتعون بكل ما لذ وطاب؟ ألا تحظون بطعام شهوي وسريرٍ دافئ؟! وفي جيوبكم أموالٌ أكثر بعشرة أضعاف مما كنتم قادرين على كسبه لأنفسكم قبل أن يحالفكم الحظ لدخول هذا المكان؟ واليوم ترفعون عريضةً إلى الأسقف، تُطالبون فيها بمئة جنيه في السنة؟! فلاخبركم أمراً يا أصدقائي، إنكم واهمون، ومخدوعون من قبيلٍ أو غاد يعملون لغاياتهم الخاصة. لن تحصلوا على شيءٍ ولو مئة بنس في السنة سوى ما تحصلون عليه الآن. وقد تحصلون على أموال أقل من ذلك وهذا واردٌ جداً. فمن الممكن أن يقوم الأسقف وراعيكم بإجراء تغييرات...»

«كلا، كلا. لا.» قاطعه السيد هاردينغ، الذي كان يُصغي بيؤسٍ لا يوصف إلى خطاب صهره: «لا يا أصدقائي لا أريد أية تغييرات، على الأقل، لا تغييرات تجعلكم أسوأ حالاً مما أنتم عليه الآن، طالما أنا وأنتم نعيش معاً»

«فليباركك الرب يا سيد هاردينغ» صاح السيد بونس

«ليباركك الرب يا سيد هاردينغ، ليباركك الله يا سيدي، نعلم أنك كنتَ صديقنا دائماً»

كان هذا هتاف عدد كافٍ من الرجال ليجعلوا من الواضح أن الشعور بالموقف بات شعوراً بصفةٍ عامة.

وبعد أن قوطع رئيس الشمامسة من خطابه قبل أن ينهيه؛ شعر أنه لا يستطيع استئناف الحديث بهيبةٍ وكرامة بعد هذا الجيشان الطفيف. فمهد طريق العودة إلى الحديقة يتبعه والد زوجته.

«طيب...» قال الدكتور غرانتلي بمجرد أن وجد نفسه داخل مستقرٍ بارد في حديقة الراعي، «أعتقد أنني تحدثت معهم بوضوح» ثم مسح العرق من على جبينه بعد أن ألقى خطاباً تحت شمس منتصف النهار في ذلك الصيف القائل مرتدياً بدلة كاملة من القماش الأسود الثقيل، وهذا عملٌ شاق.

«نعم، كنتَ واضحاً بما فيه الكفاية» أجابه الراعي بنبرةٍ لا تعبر عن الاستحسان.

فأجابه الآخر الذي كان راضياً تمام الرضا عن نفسه، جواباً واضحاً: «وهذا كل شيء. على المرء أن يكون واضحاً مع هذه النماذج من الناس، وإلا لن يكون مفهوماً. والآن، أظنهم فهموني وأعتقد أنهم عرفوا ما قصدته»

فوافقهُ الراعي الرأي. ولا شك أنه ظن بأنهم فهموا كاملاً ما قيل لهم.

«إنهم يعرفون جيداً ما عليهم أن يتوقعوه منا ويعرفون كيف سنجابه أي فردٍ متمردٍ منهم ويعرفون أننا لا نخشاهم. والآن سأتجه إلى منزل تشادويك لأخبره بما فعلته ثم سأقصد القصر وأكتب جواباً على عريضتهم هذه»

وضع السيد هاردينغ مصالح رعيته بعين الاعتبار لدرجةٍ كاد معها أن يُحمّل نفسه أكثر مما يُطيق، ولو كان قد فعل ذلك، لو أنه منح لنفسه فرصة التعبير عن الأفكار التي كانت تعتمل في داخله، لكان قد أدهش رئيس الشمامسة بتنديده علناً لتصرفاته التي لم يكن راغباً في أن

يكون شاهداً عليها. لكنّ مشاعرَ مختلفة، أبقته صامتاً. كان يمقت الخلاف مع زوج ابنته، وكان حريصاً - إلى حد بعيد - على تجنب أي مظهرٍ من مظاهر القطيعة مع أي شخص بشأن أي موضوع. كانت حياته هادئةً جداً خاليةً تماماً من الصراعات حتى أثرت قضية المأوى. مشاكل حياته المبكرة لم تتطلب منه سوى قوة التحمل ورباطة الجأش، في حين لم تفرض ازدهاراته لاحقاً جهوداً فعلية. كل ذلك لم يؤدِّ به لأي علاقةٍ مقلقة مع أي أحد البتة.

فشعر أنه سيُضحى بأي شيء تقريباً - أكثر بكثيرٍ مما كان يعتقد أنه قد يضحى - ليُبرئ نفسه من وطأة العاصفة التي خشي من هيجانها. كان يعزُّ عليه الأمر لدرجة التفكير بأن مياه جدوله الصغير الرقراق قد تضطرب ويتعكر صفوها على يد أناس لا تعرف الرحمة؛ وأن أروقتَه الهادئة قد تنقلب إلى ساحة معركة، وهذا الركن الخفي من العالم المخصَّص له - كما لو كان بعناية إلهية - قد يتم انتهاكه وتدنيسه، وكل ما فيه يصير بائساً وغير متزنٍ.

لم يكن ثمة أموال بحوزته كي يفندي بها صفو حياته، فهو لا يملك موهبة جمع الجنيهاً أبداً، ولكنه كان سيتخلى عن نصف إيراداته المستقبلية عن طيب خاطرٍ وشيءٍ من الحماسة الممزوجة بالفرح، لو أنه نجح بذلك في تبيد الغيوم التي كانت تتجمع فوق حياته.

فهل كان بإمكانه أن يُسوي الأمور بين المُصلح ورئيس الشماسية؟ بين صهره المحتمل بولد، وصهره الأول رئيس الشماسية. وهذه التسوية ما كانت لتتحقق بدافع حذرٍ لإنقاذ ما بقي من اطمئنان حتى الآن، لأن السيد هاردينغ ما فتى يشعر بشيء من الشك. لكن كان عليهم أن يتركوه وشأنه ليعيش حياته بهدوءٍ برفقة أشيائه اللطيفة التي يملكها، هذا إن اختار الاحتفاظ بها. لا، كان يتمنى أن يحيا بدافع الحب الخالص لحياة هادئة، ومن هلع كونه أصبح موضوعاً عاماً للأحاديث.

كان في كثير من الأحيان تثيره الشفقة على الآخرين، تدفع بقلبه إلى النحيب من أعماقه على أحزانهم، لكنه لم يشعر بالشفقة على أحد أكثر من ذلك اللورد العجوز، الذي كوّن ثرواته الأسطورية تقريباً من عمله في مناصب رفيعة في كنيسته، حتى أصبح محوراً للنقد اللاذع واحتقار عامة الناس. ذلك الكهنوتي البائس الثري، الذي لم يدعه الرجال يموت بسلام، وتضافر العالم بأسره على إذلاله ومقته ²².

هل سيقاسي السيد هاردينغ مصيراً كهذا؟ هل ستتناقل ألسن الناس اسمه على أنه أكلٌ لأموال الفقراء، أو كمن قد اختلس من صدقات الأجيال الأخرى، ثروته التي كانت تهدف

إلى إراحة المسنين والمقعدين؟ هل ستشهرُ به الصحافة ليُصبح رمزًا من رموز الظلم وليكون مثلاً على جشع الكنيسة الإنكليزية؟ وأن يُقال يوماً أنه سرق هؤلاء الشيوخ الذين أحبهم من أعماق قلبه بكل حنان وإخلاص؟ وبينما راح يجوب المكان بخطوات وثيدة لساعاتٍ تحت أشجار الزيزفون الوارفة تلك، يُقلّب في ذهنه هذه الأفكار المحزنة، عقد عزمه على اتخاذ خطوة كبيرة للتخفيف عنه من خطر مصير رهيب للغاية.

في تلك الأثناء، باشر رئيس الشمامسة عمله بضميرٍ مطمئن وقلبٍ مرتاح. عندها قال كلمة أو اثنتين للسيد تشادويك، ثم وجد العريضة - كما كان متوقعًا - في مكتب والده، وكتب جوابًا مقتضبًا للرجال قال لهم فيه: «**ما من مظالم في حياتكم لتتأروا لها، بل هناك أنعم سابعة عليكم أن تكونوا شاكرين لها**» وبعد أن رأى الأسقف يوقع جواب العريضة، استقل عربةً يجرها حصانٌ واحد وعاد إلى منزله إلى السيدة غرانتلي، وأسقفية بلومستيد.

محامي مرافعات عمله مباشر بالتاج الملكي البريطاني

إدوارد هورسمن 1807 - 1876 سياسي هاجم إصلاحات اللورد جون رسل باعتبارها موالية للأساقفة

السير بنجامين هول 1802 - 1867 وهو عضو في البرلمان، أيد الإصلاح الكنسيّ وهاجم المحسوبيات وسوء إدارة الممتلكات في كنائس إنكلترا

جون جويل هو أسقف سالزبوري 1560 وهو من بنى مكتبة الكاتدرائية

الصاحبيون أو الكويكرز مجموعة من المسيحيين البروتستانت نشأت في القرن السابع عشر في إنكلترا على يد جورج فوكس إشارة إلى إيرل غيلفورد الذي يدعوهُ ترولوب «غيلدفورد»

الفصل السادس: حفل شاي الراعي

بعد أن خالَج الأمر السيد هاردينغ خلاجاً مُراً، لم يسعُه إلا أن يُزَمِع أمره على القيام بشيء واحد. قرر ألا يستاء من الأفاويل مهما تكن، وألا يجعل من هذه القضية سبباً للخلاف سواء أكان مع بولد أم مع نُزلاء المأوى. وتعزيزاً لهذا القرار، كتب بنفسه خطاباً إلى السيد بولد بعد ظهر اليوم نفسه، يدعوه فيها إلى لقاء مجموعةٍ من الأصدقاء وسماعِ شيءٍ من الموسيقى في أمسية حددها في الأسبوع المقبل.

ولو لم يقطع وعداً لإليانور بإقامة هذا الحفل، في مثل حالته النفسية تلك، لكان على الأرجح تجنب مثل هذه المسرات، لكنه قطع وعداً، وشرّعوا بكتابة الدعوات. وعندما راجعت إليانور والدها في هذا الموضوع، علت وجهها أمارات الحزن لسماعه يقول: «أوه، كنتُ أفكر في بولد، وقررتُ أن أكتب له بنفسي، ولكن، عليك أن تكتبي إلى أخته أنت»

كانت ماري بولد تكبر أخاها، وفي زمن حكايتنا، كان عمرها يتجاوز الثلاثين ببضع أعوام. لم تكن امرأة شابةً قبيحة، لكنها مع ذلك ليست جميلة. كانت أجملُ مزاياها طباعها الرقيقة. لم تكن خارقة الذكاء، ولا مفعمة بالحيوية ولم تكن على ما يبدو تتمتع بقدراتٍ كقدرات أخيها؛ ولكنها كانت تهتدي بأسس المُثل العليا للصواب والخطأ. كانت ذات مزاج رائق، تتفوق فضائلها على عيوبها. من التقى بماري بولد صدفةً، لن يضعها بعين الاعتبار، ولكن من يعرفها حق المعرفة، سيحبها للغاية. وكلما عرفها المرء لفترةٍ أطول، كلما أحبها أكثر. وكانت إليانور هاردينغ من بين محبيها. مع أن إليانور لم تتحدث معها صراحةً عن أخيها، إلا أن كُل واحدةٍ منهما تفهم مشاعر الأخرى تجاهه. كان الأخ والأخت جالسين معاً عندما وصلت الرسائلتان.

«يا لها من غرابة! أن يرسل آل هاردينغ رسالتين! إذا أصبح السيد هاردينغ مسائراً للحدائث، فإنَّ العالم سيتغير» قالت ماري، ففهم أخاها على الفور طبيعة عرض السلام ونيته؛ ولكن لم يكن من السهل عليه أن يحسن التصرف بوجود هذه القضية، كما كان الحال بالنسبة للسيد هاردينغ. إنَّ طيبة القلب أقل مشقةً على المظلوم منها على الظالم.

شعر جون بولد أنه لا يجرؤ على الذهاب إلى حفل شاي الراعي، فهو لم يُحب إيانور أكثر مما يحبها الآن، ولم يشعر قط بهذا القدر من التوق على اتخاذها زوجةً له كما يشعر الآن في الوقت الذي ظهرت عقبات كثيرة تحول دون قيامه بذلك. وها هو والدها من يحاول إزالة تلك العقبات بنفسه كالعادة، ومع ذلك شعر أنه لا يستطيع الذهاب إلى منزلهم بعد الآن كصديقٍ مُقرب.

وفيما كان جالساً يفكر في هذه الأمور والرسالة بيده، كانت أخته تنتظر قراره.
«حسناً، أعتقد أننا ينبغي أن نكتب إجابات منفصلة، وأن يقول كلانا بأننا سنكون سعداء جداً لتلبية الدعوة»

«ستذهبين بالطبع يا ماري...» قال جون بولد، وافقت أخته بدون تردد، وواصل حديثه بنفس جادٍ وملامحٍ مُغتمة: «لا أجرؤ على الذهاب، أتمنى من كل قلبي لو أستطيع»
«ولم لا يا جون؟!» سألت ماري، فهي لم تسمع شيئاً حتى الآن عن المفاسد الصادرة حديثاً من الكنيسة الذي كان شقيقها على وشك المضي في أمر إصلاحها، على الأقل لم تسمع شيئاً من هذا القبيل مرتبطاً باسم شقيقها. فمكث يفكر بعض الوقت إلى أن قرر أنه من الأفضل أن يخبرها على الفور بالسبب الذي دفعه إلى ذلك: فلا بد وأن تعرف ذلك عاجلاً أو آجلاً.

«أخشى أنني لا أستطيع الذهاب إلى منزل السيد هاردينغ كصديقٍ بعد الآن»

«أوه يا جون؟! ولم لا؟ تشاجرت مع إيانور!»

«لا طبعاً. لستُ كذلك حتى الآن»

«إذن ما الأمر ما خطبك يا جون؟» سألته ماري وهي تنظر لأخيها بوجه قلقٍ مُحبٍ. لأنها تعرف جيداً كيف أن قلبه - كلُّ قلبه - موجودٌ في ذلك البيت الذي قال أنه لم يعد يستطيع دخوله. أجابها في النهاية: «لقد تبينت قضية هؤلاء الرجال الاثني عشر من مأوى حيرام. وهذا بالطبع جعلني أحتك مع السيد هاردينغ. ربما عليّ أن أقفَ بوجهه وأتعرض له، ولربما أن أجرحه كذلك»

رمقت ماري أختها بنظراتٍ ثابتةٍ لوهلة قبل أن ترد، ثم سألته فقط ما الذي ينوي فعله من أجل المسنين.

«إنها قصةٌ طويلة، ولا أعلم إن كنتُ أستطيع توضيحها لك بالتفصيل. كتب جون حيرام وصيةً، يوصي فيها بالتبرع بممتلكاته لمؤسسة خيرية - أي المأوى - لصالح عدد من المسنون من الفقراء. لكن العائدات، بدلاً من الذهاب لجيوب هؤلاء الرجال، فإنها تذهب - بشكلٍ أساسي - إلى جيب الراعي ووكيل الأسقف»

«وتنوي أن تحرم السيد هاردينغ من نصيبه منها؟»

«لا أعرف ما أنوي فعله بعد. أريد أن أقف على الأمر. أعني أن أتحقق ممن يستحقون هذه الممتلكات حقاً، وأتأكد - إن أمكنني ذلك - بأن تأخذ العدالة مجراها لفقراء بلدة بارچستر عامة، الذين هم، في الواقع الورثة بالوصية. باختصار، إن ما أعنيه هو إعادة الأمور إلى نصابها، إن استطعت»

«ولماذا تفعل هذا يا جون؟»

فأجاب جون:

«أتوقع منك أن تطرحي نفس السؤال الذي يطرحه الآخرون. ووفقاً لذلك، فإن واجب إنصاف هؤلاء الرجال المساكين ليس من مهام أحد. وإذا كنا سنتصرف بناء على هذا المبدأ، فإن أحداً لن يحمي هؤلاء المستضعفين يوماً، وما من أحد سيقف بوجه الظلم أبداً، ولا أحد سيناضل من أجل الفقراء!» وأخذ بولد يعزي نفسه بحماسة فضيلته هذه.

«لكن أليس هناك من يفعل هذا سواك؟!، من يعرف السيد هاردينغ منذ وقت طويل؟

بالتأكيد جون، كصديق، وكصديق شاب، يصغر السيد هاردينغ بكثير...»

«هذا هو منطق النساء في كل مكان يا ماري. ما علاقة العمر بهذه المسألة؟ لربما يتذرع الآخرون بأنه رجلٌ مسنٌ جداً. وبالنسبة لصدافته، إن كان حبل الصداقة هذا متيناً، فلا ينبغي السماح للدوافع الخاصة أن تكون سبباً في إرخائه. ولأنني أكنُّ احتراماً للسيد هاردينغ، فهل هذا سبب يجعلني أهمل واجبي الذي أدين به لهؤلاء الرجال العجائز؟ أو أن أتخلى عن عملٍ خير كما يمليه عليّ ضميري فقط لأنني آسفٌ لخسارة وجودي بين أبناء جلدته؟»

«إليانور يا جون؟» قالت ماري وهي تنظر بحياء لوجه أخيها.

«إليانور، أقصد الآنسة هاردينغ، إن كانت تعتقد ذلك ملائماً... أي إذا كان والدها... أو بالأحرى، لو كانت... أو، في الواقع، هو... إذا وجدوا ذلك لزاماً... حسناً، ليس هناك

ضرورة الآن للحديث عن إيلانور هاردينغ؛ ولكن إذا كانت تتمتع بذلك العقل الذي أقر له بالفضل، فإنها لن تدينني على القيام بما أظنه واجبي»

وأخذ بولد يعزي نفسه بعزاء الفلاسفة. مكثت ماري صامته لبعض الوقت، حتى ذكرها أخوها بأن عليها الإجابة على الرسائل. فنهضت، وجلست أمام طاولتها، أخرجت قلمها وورقة، وأخذت تكتب على مهل:

فيلات باكنهام

صباح الثلاثاء،

العزيزة إيلانور:

أنا...

ثم توقفت، وأخذت تنظر إلى أخيها.

«طيب يا ماري، لماذا توقفت؟»

«أوه يا عزيزي جون، أرجو أن تفكر جيداً بالأمر»

«أفكر جيداً بماذا؟»

«بالأمر كله، بالمأوى والسيد هاردينغ وما تقوله عن هؤلاء الرجال المسنون. لم يطلب منك أحد فعل كل ذلك... ما من واجب منطقي يقتضي منك معاداة صديقك المقرب العجوز. فكّر بإيلانور يا جون، ستفطر قلبها وقلبك!»

«كلام فارغ يا ماري، قلب الأنسة هاردينغ في أيد أمينة كقلبك»

«أرجوك يا جون، أرجوك. لخاطري، تخل عن الأمر. أنت تُدرك كم تعشق إيلانور!» وجاءت وجئت أمامه على البساط ثم أضافت: «أرجوك. سوف تجعل من نفسك وإيلانور وأبيها فريسةً للتعاسة. ستجعلنا بائسين جميعاً. ولأجل ماذا؟ من أجل حلم بتحقيق العدالة! إنك لن تجعل هؤلاء الرجال الاثني عشر أسعد مما هم عليه الآن!»

فأجابها وهو يفرد خصلات شعرها بيده: «إنك لا تفهمين الموقف يا عزيزتي»

«بلى، إنني أفهم يا جون. أعرف أن ما تنوي القيام به وهم، حلم يراودك. وأعرف جيداً أن ما من واجب يتطلب منك أن تنخرط في مثل هذا الجنون... هذه المهمة المدمرة! أعلم أنك تحب إيلانور هاردينغ من كل قلبك وأعلم أنها تحبك كذلك. لو أنك تبنيت واجباً مهماً جلياً،

سأكون آخر من يطلبُ منك التخلي عنه لأجل حُب أيِّ امرأة. لكن في مثل هذه القضية، فكِّر ملياً قبل أن تُقدِّم على فعلِ أيِّ شيءٍ يحتمُّ عليك أن تكون أنتَ والسيد هاردينغ على خلاف!»
لم ينبس أخوها ببنتِ شفة، فيما ظلت ماري جاثيةً هناك، متكئة على ركبتيه، لكنها ظنت من تعابير وجهه أنه يميل إلى الاستسلام.

«أيًّا كان، فلنقلُ بأنك ستتنضم لحفل الشاي هذا، ومهما يكن الأمر، لا تقطع حبل الوصال معهما وفي عقلك موضعٌ للشك» ونهضت ماري على أملٍ إنهاء رسالتها كما تريد.

«ليس في عقلي موضعٌ للشك» تحدث جون في النهاية وهو ينهض واقفاً، «لن أحترم نفسي مرة أخرى إذا استسلمتُ الآن لكون إيلانور هاردينغ جميلةً. إنني أحبها، وسأدفع عمري لسماعها وهي تُفصح لي عن مشاعرها بلسانها. بيدَ أنني لا أستطيع أن أراجع عن المهمة التي بدأتها. وأرجو أن تعترف فيما بعد بدوافعي وتحترمها. إلا أنني لا أستطيع الذهاب كضيف إلى بيت والدها بعد اليوم»

وهكذا، خرج بروتس بارچستر²³ لتعزيز عزمه عن طريق التأمل في مناقبه. فجلست ماري بولد المسكينة، وأنهت رسالتها بحزن، قائلة إنها ستحضر الحفل، ولكن شقيقها لن يستطيع لا محالة. أخشى أنها لا تستحسن كما يجدر، كل ما له صلة بمناقبه الاستثنائية من الجود بالذات.

بدأ حفل الشاي كما تبدأ مثل هذه الحفلات. كان هناك سيداتٌ عجائزٌ بدينات، بفساتين حريرية فاخرة، وشابات رشقات بفساتين منسوجة من الموسلين الناعم الرقيق، ورجال مسنون يقفون وهم يولون ظهورهم إلى المدفئة الخامدة، وبدا كأنهم غير مرتاحين للمرة كما يرتاحون وهم جالسون في أرائك منازلهم. وعلى مقربة من الباب، تجمّع شبّان نبلاء أنوفون، تعوزهم الشجاعة الكافية للتعرف إلى آنسات فساتين الموسلين، اللواتي وقفن منتصبات القامة في مجموعة مرتبة هلالية الشكل، بانتظار المواجهة. سعى الراعي جاهداً لإضفاء إثارةٍ ما، ولكنه فشل فشلاً ذريعاً، ذلك أنه لا يتحلى ببراعة الجنرال في قيادة المعركة. فيما بذلت ابنته قصارى جهدها لجبر خواطر رفيقاتها، اللواتي أخذن يتناولن كمياتٍ مُحددة من الكعك والشاي، ويتطلعن بصبرٍ إلى خطبةٍ مُحتملة. لكن إيلانور نفسها، لم تكن في مزاجٍ للمشاركة، فالعدو الوحيد الذي رغبت بمواجهته كان غائباً، وكانت هي وآخرون ضجرين إلى حدٍ ما.

كان أعلى صوتٍ من بين الأصوات كلها هو صوت رئيس الشمامسة الجمهوري، إذ أنه أسهب في الحديث مع رفاقه من القساوسة عن الأخطار المُحدقة بالكنيسة، وعن الشائعات المرعبة للمُصلحين المجانين في أكسفورد، والهرطقات المقرفة للدكتور ويستون. ولكن سرعان ما بدأت الأصوات الجميلة تعلو على استحياء، وبدأت التحركاتُ الطفيفة في المسافة الملحوظة بين المقاعد المستديرة وحوامل النوتات الموسيقية. كانت الشموع موزعةً في شمعدانات، وكانت ثمة كتبٌ ضخمة تُستخرجُ من تجاويف خفية. ثم، بدأت افتتاحية الأُمسية.

كم مرة دَوَّزَنَ صاحبنا هذه الأوتار وأعاد ضبطها قبل أن يدرك بأنه قد دَوَّزَنَهَا بما فيه الكفاية! كم احتكاكًا ناشئًا أعطى وعدًا بالتناغم الموسيقيّ القادم. وكم فستانًا من الموسلين الرقيق حفً وتجدد قبل أن تجلس إليانور وفتاة أخرى إلى البيانو. وكيف حشرَ أبولو الشاب ذو الجمال الفائق والقامة الفارعة، نفسه بين الآخرين موليًا ظهره للجدار، حاملاً مزماره الطويل مثله، المرفوع عاليًا فوق رؤوس رفاقه البارعين. ومدى صغر الزاوية التي انسل منها ذلك الكاهن القصير أحمر الخدين، وهناك وجد مكانًا لدوزنة كمانه المعتاد بمهارة لا مثيل لها!

ومن ثم، صدحتُ أصواتُ الآلات وبدأوا العزف سويةً، فتدفقت الألحان بنسقٍ تامٍ إلى كل مكان، وأخذتُ تصدح أعلى فأعلى. ثم... تنخفض وتنخفض، ثم تعود لترتفع وتصيرَ صاحبةً، كما لو أنها تُشعل نارًا للحرب ومن ثم تخفت كما لو كانت حدادًا على قتلى! وقبل كل شيء، أخذ نحيب التشيلو يعلو في كل حذب وصوب... لم يذهب سُدىً ذلك التدقيق في دوزنة تلك الأوتار وإعادة ضبطها مرارًا وتكرارًا. أنصتوا... أنصتوا... راحت هذه الآلات المحزونة، تروي حكايتها المؤثرة لوحدها في تلك اللحظة. الزموا الصمت، وأنصتوا برهبة للكمان والناي والبيانو واسمعوا أحزان رفيقهم الباكي. لن تنقضي سوى لحظاتٍ قبل أن تُدرك تمامًا أحزان تلك النوتات الموسيقية الهادئة جدًا، حتى يعود العنقوان الموسيقيّ للفرقة - فردًا فردًا - من جديد، بين من يميل على البيدال²⁴، وبين عازفين ثنائيين يطلقان أصابعهما العشرين بحثًا عن النغمات الموسيقية الجهيرة بكل ما يملكون من دوافع للحب.

وراح الشاب فائق الجمال ينفخ في مزماره حتى باتت ربطة عنقه المنشأة ليست بأفضل حالٍ من حبل مهترئ، فيما عزف الكاهن القصير بذراعيه كليهما حتى سقط مغشيًا عليه من

الإرهاق، في حال يُرثى له!

كيف انتهى الحال بهم هكذا، حين ينبغي على الجميع الصمت من باب التهذيب إن لم يكن من باب الذوق؟ كيف للمساوسة أن يغادروا وينهمكوا في مشادات كلامية؟ وأن ينسلّ الواحد تلو الآخر، ويطلقوا نيران أسلحتهم الخفيفة عشوائياً ومن غير دقّة.

أوه يا رجال، إنّ محاولات كهذه لن تحتل مُدناً، حتى وإن كان لا ينبغي لأرض العدو أن تكون عرضةً للهجوم تماماً! وفي نهاية المطاف، استعانوا بأسلحة ثقيلة أكثر فتكاً؛ غير متطورة ولكن ذات أثر. وهكذا تقدموا، اخترقوا مجموعة فتيات المسلمين، فصرن فريسة الحيرة والارتباك. أفسح المجال من بين مجموعة من الكراسي الضخمة، ولم تعد المعركة قائمةً بين أطراف متعارضة، وإنما من يدٍ ليد، وقدمٍ لقدم بين مقاتلين استثنائيين، كما في الأيام الخوالي المجيدة حين كانت محاور النضال نبيلةً بكل معنى الكلمة.

في الأركان، وتحت ظل الستائر، خلف الأرائك شبه المخفية وراء الأبواب، عند النوافذ المهشمة التي اتخذت من المنسوجات الجدارية المعلمة ساتراً لها، ثمّ أشخاص يُضربون ويردون الضربة، ضرباتٌ قاتلة، لا شفاء يُرجى منها، مؤدية للموت. وبصرف النظر عن هذا الصراع، ينشأ آخر أكثر واقعية وجدية، ينخرط فيه رئيس الشمامسة ضد اثنين من الكهنة الفخريين، يشاركه راعي أبرشيةٍ بدينٍ في أوج مراحل ازدهاره، في انفعالات وملذات لعبة الهويست²⁵. يراقبون بعزمٍ قلّ نظيره، الأوراق المخلوطة، ويتطلعون إلى الورقة الرابعة التالية، بكل حماس.

يا للطريقة التي يعيدون بها ترتيب أوراقهم بمنتهى الدقة! وكل واحدٍ منهم غيران من عين الآخر! ما سببُ تأني ذلك الدكتور النحيل؟!... ذلك الرجل المهزول ذو الفكين الأجوفين والعينين الغائرتين، الذي لا يليق بشراء كنيسته الأم!

أوه! ما السبب وراء تأنيك أيها الدكتور المهزول؟ انظروا لرئيس الشمامسة معقود اللسان وسط صراعاته، كيف يضع بطاقاته على اللوح ويرنو بعينه صوب السماء أو السقف طلباً للعدون. أنصتوا كيف يتنهد، كما لو أنّ إبهاميه في جيبي معطفه يشيران إلى أنّ نهاية هذا العذاب لم تقترب بعد! فارغٌ هو الأمل! وإن وُجد، فسيكون منغصاً على ذلك الدكتور المهزول الذي يُلقى كل ورقة من الأوراق بمنتهى الدقة، ويفكر ملياً بقيمة كل ورقةٍ آس فعالة،

وكل ورقة ملك حذر، وكل ملكة معطاءة؛ يتأمل ورقة الولد والعشرة، يحسب كل أوراق اللعب ذات النقش الواحد، ويُقدّر احتمالات فوزه كلها.

وفي النهاية، تُكشّف ورقة اللعب الأولى، تُلقى ثلاث أوراق أخرى على اللوح، إذ يلقي الدكتور الصغير أوراقه مجدداً، بينما يسجل خصمه نقطةً في جولة بعينين لامعتين، ويستمر اللعب على هذا المنوال ثلاث مرات... ثلاث مرات بالحظ نفسه الذي من المرجح أن يشدّ من عزيمة الكهنة الفخريين، قبل أن يتحرك رئيس الشمامسة للمعركة. لكن في الهجوم الرابع، جمّد حركة الملك المغلوب ذي الحاجبين المقطبين واللحية المشعثة، الذي وارى تاجه وصولجانه عن الأنظار، وورقة الاثنين البائسة.

«كما فعل داوود بجالوت» علق رئيس الشمامسة وهو يُلقى بأوراق اللعب الأربعة أمام رفيقه، ويسحب الورقة الرابعة، ثم ورقة رابحةً أخرى، ثم الملك، ثم ورقة الآس، وبعدها العشرة، التي أطاحت بآخر أبراج القوة الوحيدة المتبقية للدكتور المهزول، ملكته العزيزة أمام الأوراق الرابعة.

«ما الأمر، ما من ورقة أسباتيٍ أخرى؟» قال رئيس الشمامسة لرفيقه.

«ورقة واحدة فقط» غمغم راعي الأبرشية البدين بكل ما بقي عنده من قدرة على التحمّل، الذي لم يبرح مكانه هناك مُحمرّ الوجه، صامتاً، صامداً، متأنياً، حريصاً مع أنه لم يكن شريكاً ذكياً في اللعبة.

إلا أنّ رئيس الشمامسة لم يعبأ بعدد أوراق الإسباتي الموجودة أو عدمها! وراح يلقي ببقية أوراقه بسرعة مزعجة للغاية بالنسبة لخصومه، ويلقي إليهم نحو أربع أوراق على أنها الأوراق المخصصة لهم، ويدفع البقية عبر الطاولة إلى راعي الأبرشية مُحمرّ الخدين وهو يصيح:

«أوراق مضاعفة، وأوراق رئيسية مضاعفة، وأوراق مفردة آخر مرة!»، ما يُشير إلى خسارته بمقدار ثلاث أضعاف تحت ظل نور الشمعدانات. وقبل أن يُحصي الدكتور المهزول خسائره، وزع رئيس الشمامسة مجموعة أخرى من أوراق اللعب.

وهكذا مضى حفل شاي الراعي، إذ صرح الجميع، رجالاً ونساءً، وهم يتهيأون لترتيب شالاتهم وأخذ أحذيتهم، كيف أنهم قضوا وقتاً رائعاً. حتى السيدة غودينايف زوجة راعي الأبرشية مُحمرّ الوجنتين، قالت وهي تصافح الراعي، بأنها لم يسبق لها يوماً قضاء وقتٍ ممتع كالذي قضته اليوم! حتى إن هذا اليوم كشف لها مدى سخاء المسرات التي تحرم نفسها منه

في هذا العالم طالما تلازم الأريكة ذاتها من غير عمل ولا كلمة، ولا حتى وجود من تتحدث إليه. أما الشاب ديكسون الموظف المصرفي، بعد أن أذنت ماتيلدا جونسون له بشدّ عباءتها حول عنقها، أكد بأنّ مئتي جنيه في السنة وكوخ صغير من شأنهما أن يغمراه بالحبور. إلى جانب ذلك، كان متأكداً بأنه سيغدو مديراً يوماً ما. وبالنسبة لأبولو، الذي كان يحزم مزماره في حقيبته، شعر بأنه قد أبلى بلاءً حسناً. فيما أخذ رئيس الشمامسة يتغنى بشار انتصاره في اللعب والفرح يغمره، مع إن الدكتور المهزول مضى دون أن يتحدث ما عدا همهمات من قبيل: «ثلاث وثلاثون نقطة! ثلاث وثلاثون نقطة!» بين الفينة والأخرى يهمس بها وهو يمضي.

وهكذا غادر الجمع، تاركين السيد هاردينغ وحده مع ابنته. أما ما دار بين إليانور هاردينغ وماري بولد، فينبغي ألا يُروى. ففي الحقيقة، إنها لمسألةً جدية بالامتنان ألا يسمع المؤرخ أو الروائي كل ما يقوله أبطالهم أو بطلاتهم، وإلا، ما كانت لتكفي ثلاثة مجلدات ولا حتى عشرين! وفي هذه الحالة لم أسمع إلا النزر اليسير وبالصدفة من حديث الشابتين، لدرجة أنني أعيش على أمل إنهاء عملي في أقل من ثلاثمئة صفحة²⁶، وإكمال تلك المهمة المثلجة للصدر. رواية في مجلد واحد. لكن حديثاً ما قد دار بينهما.

عندما أطفأ الراعي الشموع، ووضع آتة الموسيقى في الحقيبة، وقفت ابنته مغتمّة ومستغرقة في التفكير بجانب المدفأة الخاملة، عازمة على التحدث إلى والدها، غير أنها مترددة فيما كانت ستقوله.

«حسناً يا إليانور، ستخلدين للنوم أليس كذلك؟!»

فأجابته وهي تمشي:

«نعم، أظن ذلك لكن يا أبتاه، لم يحضر السيد بولد هذه الأمسية، أتعرف السبب؟!»

«لقد أرسلنا دعوةً له. كتبتهُ بنفسِي» أجاب الراعي

«ولكن أتعرف لماذا لم يحضر؟»

«حسناً يا إليانور، بوسعي تخمين السبب. ولكن لا فائدة من ذلك يا عزيزتي. ما الذي

يجعلك مستغرقة في التفكير بهذا الشأن؟»

«أوه يا أبتى، هيا أخبرني..» هتفت إليانور، وطوقت عنق والدها بذراعيها وأخذت تنظر في وجهه: «ماذا سيفعل؟ ما الأمر؟ هل هناك أي... أي... أي...» فاشتبك عليها الأمر ولم تعرف الكلمة المناسبة بالضبط، «هل هناك مخاطر مُحَدقة؟»

«مخاطر؟! مخاطرٌ من أي نوع يا ابنتي؟»

«مخاطرٌ عليك، من المشاكل والخسارة وكذلك... أوه يا أبتى، لِمَ لَمْ تُخبرني بكل ذلك من

قبل؟!»

لم يكن السيد هاردينغ من الناس الذين يحكمون ظلمًا على الآخرين، ناهيك عن الابنة التي يحبها أكثر من أي شيء في الدنيا. مع ذلك، وفي تلك اللحظة، فإنه أساء فهمها. كان يعلم أنها تحب جون بولد، ونظر بعين العطف لهذا الحب بكل ما في الكلمة من معنى، وراح يستغرق في التفكير يوماً بعد يوم في موضوعهما، وبرغبة حانية من أبٍ مُحَبِّب، كيف يمكنه تسوية الأمور بحيث لا يضحى بقلب ابنته بسبب الخصومة المرجح نشوئها بينه وبين بولد. واليوم، وبعد أن تحدثت إليانور معه لأول مرة في الموضوع، كان من الطبيعي أن يُفكر بها أكثر من نفسه. ولا بد أن يظن بأن ما يُقلق ابنته هي رغباتها الشخصية، وليست رغباته هو. وقف صامتاً أمامها لوهلة، أخذت تحرق خلالها في وجهه. ومن ثم قَبَلَ جبهتها وأجلسها على الأريكة.

«أخبريني يا نيلي...» لم يكن يخاطبها بـ «نيلي» إلا في أحن حالاته المزاجية وأرقها وأسمحها وأعذبها. «قولي لي يا نيلي، أتحبين السيد بولد كثيراً؟»

فاجأها سؤال أبيها. لن أقول إنها قد نسيت نفسها ومشاعرها عند التفكير في جون بولد وعند حديثها مع ماري عنه. فهي بالتأكيد لم تنسَ نفسها. كان كبدها يتفتت كمدًا من فكرة أن الرجل الذي تعتر به ولا يسعها إلا أن تُقرِّب محبته، قد ينقلب على والدها ويتسبب في هلاكه! لقد شعرت بأن وقع خيبتها مريعاً، وأن مودته لها، لم تمنعه من سلوك هذا المسلك. لو كان يهتم بها حقاً، ما كان ليخاطر بحبها بمثل هذه الإساءة. غير أن جُلَّ خوفها كان على والدها، وعندما تحدثت عن الخطر، فإنها عنت الخطر المحقق بوالدها، وليس بها.

لذلك، فوجئت كثيراً بسؤال والدها.

«تسألني هل أحبه يا أبتى؟»

«نعم نيلي، هل تحبينه؟ لِمَ عساکِ ألا تحبينه؟ إنه سؤالٌ عاديٌّ، لكن هل تحبينه؟»
بقيتُ إليانور بلا حراكٍ بين ذراعيِّ والدها دون أن تنبس بحرف، فهي لم تستعد للاعتراف
بموضوع حُبها لبولد بتاتاً، بل كانت عازمة كما خيل لها، على ذكرِ جون بولد بالسوء، وأن
تسمع والدها يفعل ذلك أيضاً.
«تعالِي يا صغيرتي، فلنعترف بكل شيء، ستُخبريني بما يشغل بالك، وسأُخبركِ بما يشغل
بالي أنا والمأوى»

بعد ذلك، ودون انتظارٍ إجابة، أوضح لها قدر الإمكان، التُّهمة التي وُجِّهت إليه بشأن وصية
حيرام، والمطالبات التي وضعها عجائزُ المأوى؛ ومن ثم شرح لها ما اعتبره نقاط القوة
والضعف في موقفه؛ ثم الإجراءات التي اتخذها بولد، وما افترض بأنه على وشك اتخاذها.
ومن ثم - ودون أيّة تساؤلاتٍ أخرى - أخذ يخمن شيئاً فشيئاً، حقيقة حُب إليانور، وتحدث
عن ذلك الحب على أنه شعور لا يسعه شجبه مهما يحصل. لقد شعر بالأسف من موقف بولد،
وبرر ما كان يفعله، بل وأخذ يثني على همته وأهدافه الخيرة، وعدد الكثير من مناقبه الحميدة،
ولم يتحدث عن عيبٍ واحدٍ فيه.
وبعد ذلك، ذكّر ابنته كم كان الوقت متأخراً، وجبر خاطرها بشجاعة كبيرة بالكاد شعر بها،
وأرسلها إلى غرفتها بعينين دامعتين وقلب ملؤه الحبور.

عندما التقى السيد هاردينغ بابنته على الإفطار في صباح اليوم التالي، لم يخوضا مزيداً من
الأحاديث في هذا الصدد، وتجنبنا ذلك لعدة أيام. بعد حفل الشاي مباشرة، قامت ماري بولد
بزيارة للمأوى، ولكن كان هناك زوار كثيرون في غرفة الضيوف آنذاك، فلم تأتِ على ذكرٍ
لشقيقها. وفي اليوم التالي، التقى جون بولد بالآنسة هاردينغ في إحدى المماشي الهادئة
الكئيبة والظليلة في الحرم. كان في توقٍ شديدٍ لرؤيتها، لكنه لم يكن راغباً في زيارة بيت
الراعي، وكان في الحقيقة، يترقب مجيئها إلى الأماكن الخاصة التي تتردد عليها كثيراً.
«أخبرتني أختي...» قال وهو يتعجل بحديثه المقصود فجأة، «أخبرتني بأنك أقمتِ حفلاً
مُبهِجاً في تلك الأمسية. لقد حزنتُ لأنِّي لم أتمكن من المجيء»
«شعرنا بالحزن جميعنا» أجابت إليانور بهدوءٍ مُهيب.

«أعتقد يا آنسة هاردينغ بأنكِ عرفتِ السبب الآن...» تحدث بولد متردداً. ثم توقف، وبدأ
يُفسِّر ثانيةً، بيد أن الكلام استعصى عليه مرةً أخرى.

لم تساعدهُ إيلانور على الإطلاق.

«أظن بأن أختي شرحت لك الموقف يا آنسة هاردينغ»

«لا تُبرر يا سيد بولد. إنني متأكدة بأن والدي سيُسّر دائماً لرؤيتك، إن كنت راغباً بزيارتنا الآن كما السابق. لم يحدث شيئاً يغير من مشاعره. وبما يتعلق بوجهاتِ نظرك، فأنت بطبيعة الحال خير من يحكم»

«إن والدك لطيف وسخي ولطالما كان كذلك، لكن أنتِ يا آنسة هاردينغ، أنتِ شخصياً ...
أتمنى ألا تحكمني عليّ ظلماً، لأن...»

«سيد بولد، كُن واثقاً من أمرٍ واحد: سوف أرى والدي محققاً دائماً، وسأرى من يُعارضهُ مخطئاً. لو عارضه أولئك الذين لا يعرفونه حق المعرفة، فسأكون خيرةً قدر الإمكان وأظن بأنهم جانبوا الصواب في التقدير والحكم عليه! لكن هل ينبغي أن أرى من يعرفونه ويكنون له المودة والاحترام، يشنون حرباً عليه؟! عندئذٍ، سوف أضطر إلى تكوين رأي مغاير!» ثم انحنت انحناءة احترام، ومضت. تاركة محبوبها في مزاج تعيس.

. ماركوس يونيوس بروتس، سياسي في الجمهورية الرومانية وعضواً في مجلس الشيوخ الروماني وله شهرة كبيرة لاشتراكه في مؤامرة اغتيال يوليوس قيصر

آلة موسيقية تعمل بالدوس

شكل من أشكال لعبة الورق

كانت الرواية المكونة من ثلاثة مجلدات هي العنصر الرئيسي الشائع في المكتبات خلال العصور الفيكتورية

الفصل السابع: صحيفة المُشترى اليومية

مع أن إيلانور هاردينغ تصرفت مع جون بولد بتعالٍ عندما تركته، ليس علينا الاعتقاد بأنها كانت مزهوةً بنفسها مثل تصرفها. فقبل كل شيء، كانت تمقت فكرة خسارة محبوبها بطبيعة الحال. وفي اليوم التالي، خالجها شكٌّ من أنها لم تكن على طبيعتها كما تظاهرت. كان والدها قد أخبرها مرارا وتكرارا بأنه لم تبدر عن بولد أفعالاً مجحفة أو لئيمة. إذن لماذا عليها أن تؤنبه، وأن تُبعده عنها، وهي تعرف بأنها لا تملك قلباً يتحمل خسارته؟! ولكن هذه هي طباع البشر، ولا سيما طباع السيدات الشابات.

عندما هامت مبتعدةً عنه أسفل أشجار الدردار التي تظلل الحرم، فإنَّ نظراتها، أنفاسها، وكل حركةٍ وإيماءة من جسدها، عكسوا فكرة خاطئة عما في قلبها. إذ كانت ستتهبُّ كل ما تملك مقابل أن تُمسك بيده وأن تتفاهم معه وتعمل على إقناعه وإبعاده عما ينوى القيام به، أن تتغلب عليه بكل ما تملك من قوَّة أنثوية، وأن تفدي أباها بنفسها. لكن الكبرياء حال بينها وبين ذلك. وهكذا، غادرتُه دون نظرة حب أو كلمة لطيفة.

لو كان بولد ينظر لامرأة أو لمحبيبةٍ غير إيلانور، لكان قد فهم الموقف كله، كما فهمناه نحن. ولكن في شؤون الحب، لا يُبصر الرجال عندما يتعلق الأمر بعلاقاتهم الخاصة. يقول المثل: **إنَّ ضِعافِ القلوب لن يظفروا يوماً بقلب سيدة جميلة.** إنه لأمرٌ عجيبٌ بالنسبة لي، كيف يفوز رجلٌ جبان بحب سيدةٍ جميلة، إذ غالباً ما تتصف قلوب الرجال بالجبن! ولولا الطيبة المجبولة عليها طباعهنَّ، فإن رؤيتهن لمواطن الضعف في عزائمننا سيد فعهن أحياناً إلى النزول من قلاعهن المنيعة كي يساعدننا على اجتراح خبيتهن الذاتية. ولو صُنَّ قلوبهن، فإنهنَّ غالباً ما ينفذن بجلودهن ظافرات. وإن لم يكن القلب مغرماً، فإن الجسد حرٌّ طليق!

وأخذ الإحباط يدبُّ إلى قلب بولد المسكين. إذ أدرك أن نصيب علاقته بإيلانور هاردينغ قد خُتِم عليه بالشمع الأحمر! ما لم يوافق على التخلي عن مهمةٍ كان قد تعهَّد بها شخصياً، ولن يكون من السهل عليه التخلي عنها حقاً. إذ تم تكليف رجال القانون لاتخاذ الإجراءات اللازمة، وباتت القضية محل حديث عامة الناس إلى حدٍ ما. إلى جانب ذلك، كيف لفتاةٍ

شجاعة مثل إيلانور هاردينغ أن تُغرمَ برجلٍ يتخلى عن مهمّةِ تبناها؟ هل تقبل بأن يشتري مودتها على حساب احترامه لذاته؟

فيما يتعلق بمحاولته للإصلاح من شؤون المأوى، لم يكن لدى بولد أي سبب حتى الآن للقلق من نجاح مساعيه. كانت كاتدرائية بارچستر برمتها تستعد للتعامل مع القضية خطوةً بخطوة، إذ كان الأسقف، رئيس الشمامسة، الراعي، الوكيل، وعدة حلفاء آخرين من رجال الدين، يعقدون اجتماعات يومية، يناقشون خططهم واقتراحاتهم، ويستعدون للهجمة الكبيرة. لقد استشاروا السير أبراهام هابهازرد، لكنه لم يرد الجواب بعد ولم يعرفوا رأيه. وقد أرسلوا إليه نسخاً من وصية حيرام، ونسخاً من سجلات رعاة المأوى، ونسخاً من عقود الإيجار، ونسخاً من الحسابات. أرسلوا نسخاً من كل ما يمكن نسخه، ونسخاً من كل ما لا يمكن نسخه. وبدأت القضية تأخذ أبعاداً جديدة بالتصديق. لكن الأهم من ذلك كله، وُردَ ذكر القضية في صحيفة المشتري اليومية²⁷، إحدى أقوى الصحف - التي نشرت في إحدى أكثر إصداراتها المتوقعة عن قضية مأوى سانت كروس، وقد علقوا على ذلك:

«حالة أخرى - ذات أبعاد ثانوية في الحقيقة، ولكن تنطوي على أهمية مماثلة - من المرجح أن تصير محط أنظار الناس عامةً. بلَغنا أن راعي أو مدير مأوى قديم للفقراء، ملحق بكاتدرائية بارچستر، يتلقى أجوراً أعلى بخمس وعشرين مرة من الدخل السنوي المخصص له بناءً على وصية المؤسس، في حين أن المبلغ الذي ينفق سنوياً على الشؤون العامة للمؤسسة الخيرية يظل ثابتاً على الدوام. وبعبارةٍ أخرى، فإن الموصى لهم بموجب وصية المؤسس لم يحصلوا على أي فائدةٍ من الزيادة في قيمة الممتلكات خلال القرون الأربعة الماضية، ولكن هذه الزيادة قد شملت الراعي المدعو.

من المستحيل أن نتخيل حالة ظلم أفظع من هذه! لا يمكن الإجابة بالقول أن نحو ستة أو تسعة أو اثني عشر رجلاً مُسنّاً يتلقون القدر نفسه الذي يحتاجه المسنون من خيارات هذا العالم. على أي أساس أخلاقي أو تشريعيّ، تقليدي أو قانوني، تستند مطالبة الراعي بالدخل الكبير الذي يحصل عليه مقابل عدم قيامه بأي عمل؟ إن رضا هؤلاء المعدمين بالموجود - هذا إن كانوا راضين - لا يعطيه أي حقٍ بهذه الثروة! هل سأل نفسه يوماً، عندما كان يمدّ يده الكهنوتية، ليتلقى راتب عشرات رجال الدين

العاملين، عن أي خدمة يتقاضى أجرًا؟ هل سبق لضميره أن تساءل عن حقه في الحصول على مثل هذا الدعم المالي؟ أم هل من المعقول ألا يتبادر الموضوع إلى ذهنه أبدًا؟! ذلك أنه يتلقى هذه الأجرور منذ سنوات عديدة خلت، ويريد، إن شاء الرب وعافاه، أن ينعم لسنوات قادمة بثمار شخصٍ ورعٍ كدح في عمله لسنوات في العصور الماضية، غير مكترث بأي حق من جانبه، ولا بالظلم المحيط بالآخرين! يتعين علينا أن نُعبّر عن رأينا القائل بأنه يستحيل وجود مثل هذه الحالة من اللامبالاة الأخلاقية إلا في كنيسة من كنائس إنكلترا، وبين كهنتها فقط!»

لأجل هذا، لا بد لي أن أترك قرائي ليتخيلوا حالة السيد هاردينغ بعد قراءة المقال أعلاه. يُقال أن أربعين ألف نسخة من صحيفة المشتري تُباع يوميًا، وأن كل نسخة منها، يقرأها خمسة أشخاص على الأقل!

عندئذٍ، سيقرأ ويسمع مائتا ألف قارئ هذه التهمة الموجهة إليه، مائتا ألف قلب سوف يحتدم غضبًا بسبب هذه الظلّامة المطبقة، والسرقة العلنية لماوى بارچستر على يد الراعي! كيف كان سيوجب على كل هذا الكلام؟ كيف يفتح قلبه لهذا الجمع، لهؤلاء الآلاف من المثقفين والمهذبين، والرجال المختارين من بلده؟! كيف يُوضح لهم أنه لم يكن سارقًا، ولا كاهنًا كسولًا جشعًا يتزاحم على الثروات، بل رجلًا متقاعدًا ومتواضعًا، تقبّل ما عُرضَ عليه بكل براءة؟

« اكتبْ خطابًا إلى صحيفة المشتري اليومية»، اقترح الأسقف.

«ماذا!...»، علق رئيس الشمامسة، الخبير بأمور الدنيا والناس أكثر من والده الأسقف، وتابع قائلاً:

«نعم، كي يقمعوا الخطاب بالسخرية، ويقابلوه بالاحتقار مرارًا وتكرارًا، ويجعلوك تنتفض قلقًا بشتى الطرق، لتصير كفارًا في فم كلب صيدٍ متمرّس. ستكتب بضع كلمات أو رسالةً في خطابك ولن يكف رجال الدين الجهلة في الكاتدرائية عن الشرثرة! ستقترف خطأً صغيرًا بكتابة خطاب يضم تُرّهات لا صحة لها وسوف يعتبرونه اعترافًا، وسيكون بمثابة إدانة ذاتية! ستجد نفسك وقد صيرتَ شخصًا مبتدلاً، صفراوي المزاج، وقحًا وجاهلاً والاحتمالات التي تصب في صالحك بمثابة عشرة لواحد! ولأنك رجلٌ دين، ستكون مُدانًا بالكفر! قد يحظى المرء بأسمى الأسباب والمواهب والطباع، بإمكانه أن يكتب مثل جوزيف أديسون أو بقوة

جونيوس²⁸! مع ذلك لن يُفلح بكتابة ردّ عندما تهاجمه صحيفةٌ مثل صحيفة المشتري اليومية. لأنها في مثل هذه القضايا، كُليّة النفوذ والتأثير. إنَّ قوة هذه الصحيفة في إنكلترا كقوة حكم القيصر في روسيا، ومثل نفوذ المافيات في أمريكا. تُجيب عن مقالة كهذه؟! لا يا أيها الراعي! مهما كان ما تفكر به، لا تردّ عليهم. إننا نتوقع مثل هذه الأحداث، غير إننا لسنا مجبرين على التواري عن الأنظار أكثر من اللازم!»

وبينما كان مقال صحيفة المشتري يُعذب راعينا المسكين ويمارس ضغطاً كبيراً عليه، كان يُشكّل انتصاراً هائلاً لأطراف أخرى. ومع أن بولد شعر بالأسى لرؤية السيد هاردينغ يُهاجم بصورة شخصية، إلا أنه ما برح يمنحه الشعور بالبهجة لأن يرى صحيفة داعمة ذات تأثير واسع، تتناول قضيته.

أما بالنسبة لفيني المحامي، كان يتقد حماساً. يا للهول! أن تكون مضطعاً بالقضية نفسها، وتقف مع صحيفة المشتري في الجبهة نفسها، التي أخذت بالآراء التي أوصى بتأيدها ودعمها، وأن يناضل من أجل قضيته مع صحيفة المشتري اليومية! ولربما كي يذكروا اسمه على أنه ذاك الرجل المثقف الذي لاقت مجهوداته نجاحاً باسم فقراء بارچستر. قد يُعرّض أمام لجان مجلس العموم، والله وحده يعلم كم ستبلغ أجرته في اليوم، وقد يستلم مثل هذه الدعوات لسنوات! لم يكن هناك حدّ للأحلام الذهبية الكبيرة في ذهن فيني الطامح، الأحلام التي أثارها مدير صحيفة المشتري.

أما نزلاء المأوى، فقد سمعوا كذلك عن هذه المقالة، وصارت لديهم فكرةٌ وامضة ومبهمّة عن المحامي العظيم الذي تبني قضيتهم. أخذ أيبيل هاندي يعرج هنا وهناك ماراً بكل الغرف، مكرراً كل ما فهمه من الصحيفة المطبوعة مع إضافة أجود أنواع البهارات على الكلام. لقد أخبرهم كيف صرحت صحيفة المشتري بأنّ راعيتهم لم يكن أكثر من لص، وأن ما تقوله صحيفة المشتري صحيحٌ ولا يجانب الصواب كما يعترف العالم بأسره. وكيف أكدت الصحيفة بأنّ كل واحد منهم: «كُلُّ فردٍ منا يا جوناثان كرامبل، فكّر بالأمر! يحق له مئة جنيه سنويًا!» وأنّ تصريح المشتري لهو أشدُّ تأثيراً من قرار رئيس مجلس اللوردات! ثم استعرض الصحيفة التي جلبها لهم السيد فيني، والتي، رغم عدم تمكن أيّ منهم من قراءتها، ما تزال تتضمن في حيثياتها وتأثيرها، تأكيداً قاطعاً لما قيل لهم. فأخذ جوناثان كرامبل يُمعن التفكير في عائدات ثروته. تأكد جوب سكولبيت من مدى صواب قراره بتوقيع العريضة، وقد

قال ذلك عشرات المرات. فيما كان سبريغز ينظرُ شزراً بعينه الوحيدة على نحوٍ مخيف. أما مودي، بعد أن أصبح أكثر قرباً من العصر الذهبي القادم، فقد كره أولئك الذين ما برحوا يملكون ما يرغب فيه، أيّما كراهية.

حتى بيلي غازي وبيل المسكين طريح الفراش، دبت فيهما الهمة والحماسة. فيما وقف بونس العجوز بعيداً عنهم مقطب الحاجبين، والأسى ينغرز في قلبه عميقاً بشكلٍ لا يوصف، لأنه أدرك أن أيام الظلام، وشيكة.

وقد تقرر، بناءً على نصيحة رئيس الشمامسة، عدم توجيه أي اعتراض أو تفسير أو دفاع من الاجتماعات السرية في بلدة بارچستر إلى رئيس تحرير صحيفة المشتري. وحتى الآن، كان هذا هو القرار الوحيد الذي توصلوا إليه.

كان السير أبراهام هابهازرد منهماً في إعداد مسودة مشروع قانون لتسكّ البابوات، يسمى «مشروع قانون حماية دير الراهبات»، يطالب فيه تمكين أي رجل دين بروتستانتي يتجاوز عمره خمسين عاماً من تفتيش أي راهبة يشتبه في حيازتها وثائق تحمل في طياتها أثراً للخيانة أو رموزاً يسوعية²⁹، وكان من المقرر أن يضم مشروع القانون مئة وسبعة وثلاثين فقرة، كل فقرة تحتوي بنداً مختلفاً ينغص حياة كل بابوي. وكما كان معروفاً، فإن نصف الإيرلنديين المجانين سيُحاربون مشروع القانون حرفاً حرفاً، بعدما استغرق السير أبراهام هابهازرد وقتاً طويلاً في تفسيره وجعله مناسباً كفاية وعلى النحو الواجب. كان لمشروع القانون تأثيره المنشود. لذلك لم تُمرّر المسودة أبداً ولم تصبح قانوناً كما هو متوقع، إلا أن المشروع نجح في تقسيم صفوف أعضاء مجلس العموم الإيرلنديين، ممن تكاثفوا لفرض مشروع قانون على الوزارة يرغب الرجال كلهم على شرب الويسكي الأيرلندي ويفرض على النساء كلهن ارتداء قماش البولين الأيرلندي، ذلك أن الجزء المتبقي من جلسة اجتماع عصابة البولين والويسكي باتت بلا حول ولا قوة تماماً في يومها الثاني³⁰. وبالتالي فإن استشارة السير أبراهام لن تصل قريباً لكاتدرائية بارچستر، وظلت الشكوك والتوقعات والمعاناة تعترى جماعة بارچستر، على أشد ما يكون.

إشارة ضمنية إلى صحيفة التايمز، المعروفة لدى الفيكتوريين باسم «الصحيفة الصاعقة» بسبب مقالاتها الرائدة الموثوقة والمؤثرة وخاصة في مجال المقالات المتعلقة بالقضايا القانونية وحركة المُصلحون آنذاك

جوزيف أديسون أشهر كُتَّاب المقالات في النصف الأول من القرن الثامن عشر. جونيوس هو اسم مستعار لكاتب ألف سلسلة من الرسائل شديدة اللهجة يهاجم فيها جورج الثالث ووزراءه

1 إشارة ساخرة إلى مشروع قانون «استرداد الحرية الشخصية في حالات معينة» الذي قدم في عام 1853، والذي كان يهدف إلى توفير الإفراج عن النساء اللاتي يعتقد أنهن احتجزن رغماً عنهن في الأديرة الكاثوليكية الرومانية. على الرغم من أنه لم يصبح قانوناً أبداً، إلا أنه نجح في الفصل بين أعضاء مجلس العموم البروتستانت والكاثوليك.

في يوم القراءة الثانية لمشروع قانون «استرداد الحرية الشخصية في حالات معينة»، استؤنف النقاش حول مشروع قانون «رسوم ضريبة المُكوس على المشروبات الكحولية

الفصل الثامن: أسقفية بلومستيد

والآن، لا بُد أن نأخذ القراء والقارئات في زيارة إلى منزل كاهن أبرشية بلومستيد. وبما أنه ما يزال الصباح باكراً حتى الآن للصعود معنا إلى غرفة نوم رئيس الشماسية من جديد، إذا كانت سيدة القصر في حمامها حيث لن نمعن النظر في ذلك المكان وننتهك خصوصيته، سندخل إلى حُجيرة داخلية لتغيير الملابس حيث يرتدي الدكتور فيها ملابسها ويحتفظ بأحذيته وخطبه؛ وهنا سنقف على افتراض أن باب الغرفة كان مفتوحاً على مصراعيه كما لو أنه يمنح الإذن بالدخول في حوار بين قسيسنا آدم وزوجته المحترمة حواء.

«الخطأ كله خطؤك يا رئيس الشماسية. أخبرتك منذ البداية كيف سيؤول الأمر، وليس لأبي من يعتبره مسؤولاً عن كل ذلك سواك».

أجابها الدكتور وهو يظهر عند باب حُجيرة تغيير الملابس، وجهه ورأسه ملفوفان بمنشفة سميكة كان يجفف شعره بها تجفيفاً شديداً:

«رباه يا عزيزتي، كيف تقولين ذلك؟ إني أبذل قصارى جهدي»

«أتمنى لو أنك لم تفعل...» قالت السيدة مقاطعة إياه، «ليتك تركت جون بولد يغدو ويروح كما يشاء هو ووالدي، لكان هو وإليانور متزوجين الآن. وما كنا لنسمع كلمة واحدة عن هذه القضية!»

«لكن يا عزيزتي...»

«كل شيء على حق يا رئيس الشماسية. أنت على حق لا شك في ذلك ولا أعتقد للحظة أنك ستعترف يوماً بأنك قد لا تكون محقاً، لكن هذه هي الحقيقة. لقد قلبت هذا الشاب على أبي بسبب إزعاجه بأفعالك تجاهه»

«لكن يا حبيبي...»

«وكل ذلك لأنك لم ترغب أن يصير جون بولد عديلك. كيف يمكن أن تكون إليانور بخير وليس في حوزة أبي شلن واحد؟ مع أن إليانور تتمتع بجمال كافٍ، إلا أنها ليست ذات حُسنٍ أخاذ أبداً. لا أدري كيف قد تمضي حياتها إن لم تتزوج من جون بولد، كما يجب أن يحدث!»، أضافت الأخت القلقة وهي تلف الشريط الأخير في حداثها.

اعترى الدكتور غرانتلي شعورٌ بظلم شديد من نوبة غضب زوجته لكن ماذا عساه أن يقول؟! لقد أزعج جون بولد من غير ريب، ولا جرم أنه أبى أن يصير عديلاً له. أثارت هذه الفكرة حفيظته قبل بضعة أشهر خلت، ولكن الأمور تغيرت منذ ذلك الحين. صحيح أن رئيس الشمامسة بات يمقت جون بولد أكثر من ذي قبل إلا أن جون بولد أثبت مدى قوته! ولطالما كانت القوة موضعاً للاحترام! فبدأ هذا الكاهن صاحب المقام الرفيع يفكر بأن مثل هذه المصاهرة، لربما لم تكن خطوةً متهورة.

ومع ذلك، ظل شعاره «لا استسلام» مرفوعاً، وسيظل يحارب به. لقد آمن إيماناً راسخاً بأكسفورد، بمجلس الأساقفة، بالسير أبراهايم هابهازرد، وآمن بنفسه. فقط عندما يكون بمفرده مع زوجته، تحديق به شكوك الهزيمة. حاول مرة أخرى أن ينقل هذا الإيمان إلى السيدة غرانتلي، وبدأ للمرة العشرين يحدثها عن السير أبراهايم.

«أوه! السير أبراهايم؟!» قالت وهي تجمع مفاتيح المنزل كله قبل النزول، «لن يعثر السير أبراهايم على زوج لـ إيانور، ولا على معاشٍ آخر لأبي عندما يخرج من المأوى. تذكر ما أقوله لك يا رئيس الشمامسة: بينما أنت والسير أبراهايم تحاربون جون بولد، سيخسرُ أبي منصبه الرفيع. ماذا سيكون موقفك حينها تجاهه وإيانور؟ إلى جانب ذلك، من سيدفع للسير أبراهايم؟ على ما أعتقد، فإنه لن يتبنى القضية دون مقابل؟»

وهكذا، نزلت السيدة لأداء واجباتها العائلية بين أولادها وخدمها، مثلاً للزوجة الصالحة والحكيمة.

كان الدكتور غرانتلي ينعمُ بعائلة سعيدة ومثمرة. رُزقت هذه العائلة بخمسة أطفال. أولاً ثلاثة أولاد - يقضون حالياً الوقت في البيت بعد إجازة مدرسية لأجل الأعياد - وكانت أسماءهم على التوالي: تشارلز جيمس، هنري، وصموئيل³¹. ثم رُزقوا بنتين أصغر سناً. تُدعى الكبرى فلوريندا التي حملت اسم زوجة رئيس أساقفة يورك، وكانت ابنتها بالمعمودية. فيما تم تعميد الصغرى غريزيل على اسم أخت رئيس أساقفة كانتربري. كانوا أذكىء كلهم ويُشرون بوعده طيبٍ لأن يكونوا قادرين على خوض التجارب في العالم ومواجهة همومه. كانوا مختلفين في عاداتهم وكان لكل فردٍ منهم طباعه التي تميزه عن غيره، ولكلٍ منهم معجبٌ خاص من بين رفاق والدهم الدكتور.

كان تشارلز جيمس صبيًا نيقًا وحادراً. لم يُلزم نفسه بفعل شيء يوماً. كان يعرف على وجه اليقين كم كان متوقعاً من الابن الأكبر لرئيس شمامسة بارچستر، ولذلك كان حريصاً على عدم الاختلاط بحرية مع الأولاد الآخرين. لم يحظَ بمواهب كإخوته الأصغر سناً، لكنه يفوقهم في التصرفات حكماً ولباقةً. أما عيبه الوحيد - إن كان له عيب - فهو الإفراط في الانتباه للكلمات بدلاً من الأشياء؛ كان ثمة اعتقادٌ طيبٌ يُعرف به كما يخبره والده في بعض الأحيان، كان مولعاً بتسوية النزاعات وإيجاد الحلول بالتراضي.

أما هنري - الابن الثاني لرئيس الشمامسة - فكان المفضل لأبيه، إذ كان صبيًا نبيهاً بمعنى الكلمة. كان يتفنن بنبوغه على نحوٍ مدهش. حتى أن زوار أسقفية بلومستيد كثيراً ما يندهشون من براعة أسلوبه حين يكيّف من خلاله قدراته على القيام بأكثر الهوايات صعوبةً ظاهرياً متى ما طُلبُ منه ذلك. مثل ذات مرة دوراً كبيراً بصفته المصلح لوثر ³²، وأبهجهم بالطريقة الرائعة التي انتحل بها الشخصية. بعد ثلاثة أيام، أذهلهم من جديد، بتمثيل دور راهبٍ كبوشيّ يصارع للبقاء على قيد الحياة ³³. ولأجل هذه المأثرة الأخيرة، منحه والده جُنيهاً ذهبياً، وقد قال إخوته بأن المكافأة وعدهُ بها والدهم سلفاً في حال نجاح الأداء. وأرسله كذلك في جولةٍ سياحية ليحجّج ديفونشاير، وكانت هذه المكافأة من بين المكافآت التي بدأ الصبي حريصاً على الاستمتاع بها. إلا أن رفاق والده في تلك الأنحاء، لم يُقدِّروا مواهبه. فوصلت إلى البلدة شائعات محزنة عن شذوذٍ في طباعه. لقد كان أكثر الفتيان جرأةً وشجاعةً.

وسرعان ما عرف الناس، سواء في المنزل حيث يعيش هنري، أو على بعد بضعة أميال من كاتدرائية بارچستر، وفي وستمستر كذلك حيث مدرسته، بأن هنري الصغير قادرٌ على الملاكمة ببراعة وأنه لا يُسلم نفسه للهزيمة. كان الأولاد الآخرون ممن يدخلون في شجارٍ معه، يلتحق بهم رفاقهم للمساندة، بينما كان هنري يقاوتهم بلا نصير على الإطلاق. قد يعتقد من يساندونه - أحياناً - أنه هُزِمَ بسبب تأثير الضرب والإغماء بفقدان الدم، فيسعى أصدقاؤه جاهدين إلى سحبه من ساحة المعركة، لكن هيهات! فالصبيّ هنري لا يستسلم البتّة، ولا يسأم من القتال. كانت حلبة القتال المكان الوحيد الذي يبدو أنه يستمتع به. وبينما كان الأولاد الآخرون فرحين بعدد أصدقائهم المساندين، كانت فرحة هنري بكثرة أعدائه أعظم!

لم يكن بوسع أقربائه إلا أن يُعجبوا بشجاعته، وأولئك الذين لم يكونوا منحازين له كوالده، لاحظوا بأسفٍ شديد، بأنه وعلى الرغم من تودده مع السادة وأصدقاء رئيس الشمامسة، إلا أنه كان ذا سلوكيات متعجرفة ومستبدة مع الخدم والمساكين. لكن لربما كان صموئيل الولد المفضل لدى الجميع. إذ كان صابي الصغير العزيز - كما يُلقب توددًا - طفلاً محبباً بقدر ما كانت تخصه والدته المُحبة بمعاملة خاصة. إذ كان ذا سلوكيات هادئة لطيفة، جميل الحديث، لنبرة صوته لحن، كل عمل يقوم به ينمُّ عن كياسة، على النقيض من إخوته. كان مهذباً مع الجميع، ودوداً مع المتواضعين، ووديعاً حتى مع خادمة المطبخ الصغير.

كان صبيّاً تُعقدُ عليه آمالٌ كبيرة، يركز على كتبه، يُدخلُ البهجة على قلوب أساتذته. غير أن أخويه لم يكونا لطيفين معه. كانا يتذمران لأهمهما ذلك أن سلوك صابي المذهب له مغزى! ولاحظا - في أغلب الأحيان - أن كلمته مسموعةٌ في كنيسة أسقفية بلومستيد. وعلى ما يبدو أنهما كانا يخشيان أن يغدو صموئيل ذا شأنٍ كبيرٍ في البيت أكثر من أيٍّ منهما عندما يكبر، لذلك، كان هناك نوع من الاتفاق بينهما بأن يُخضعا صاموئيل الصغير، وأن يحطّا من قدره وشأنه.

غير أن ذلك لم يكن بالأمر اليسير، فالصغير صموئيل، رَغَمَ صِغَرِهِ، كان متقدِّد الذهن؛ لم يستطع أن يُقلد السلوكيات الصارمة لتشارلز جيمس ولا يمكنه أن يصارع مثل هنري، لكنه كان سيد نفسه يملك أسلحةً خاصة، ويرسُمُ خططاً، رَغَمًا عنهما كليهما، للإبقاء على المنزلة التي يحظى بها. يقول هنري أن أخيه مخلوقٌ مكرٌّ كاذبٌ. أما تشارلز جيمس، مع إنه لطالما تحدث عنه كأخيه العزيز صموئيل، لم يتوان في الوشاية به كلما سنحت له الفرصة. وكي نكون صادقين، كان صموئيل ولدًا محتالاً، حتى الذين أحبوه لم يكن بإمكانهم إلا أن يعترفوا بذلك، لأنه كان صغيراً جداً، وبغاية البراعة في انتقاء كلماته، وماهراً جداً في تحوير نبرة صوته!

أما بالنسبة للفتاتين الصغيرتين فلوريندا وغريزل، كانتا فتاتين لطيفتين جداً، لكنهما تفتقران لصفات إخوانهن في الثقة بالنفس. لم يُسمع لهما صوت في أسقفية بلومستيد عادة، وكانتا خجولتين وجبانتين بالفطرة، تتحدثان ببطء أمام الزوار حتى عندما يُطلب منهما ذلك؛ وعلى الرغم من أنهما تبدوان جميلتين للغاية بفستان الموسلين الأبيض النظيف والأوشحة الزهرية، إلا أن زوار رئيس الشمامسة قلما لاحظوا وجودهما.

مهما كان التواضع والوداعة الذي بدا على سيماء رئيس الشمامسة ومشيته خلال حديثه مع زوجته في معتزل حجيرة تبديل الملابس خاصتهما، فقد تبددت عندما دخل صالة الإفطار برأس مرفوع وخطى ثابتة. وفي ظل وجود شخصه الثالث حيث انتحل شخصية رب الأسرة والسيد، كانت تلك السيدة الحكيمة والذكية، تعرف جيداً الرجل الذي ارتبط قدرها به مدى الحياة، لتبسط سلطتها أبعد من الحد الذي قد يتجاوز تحمُّله.

حين لاحظ الغرباء في أسقفية بلومستيد، الجبين المقطب الذي أوحى لهم بالصمت وسط دائرة واسعة من الزوار والأطفال والخدم الذين اجتمعوا في الصباح لسماعه يتلو كلمة الرب، وشاهدوا كيف تجلس تلك الزوجة بوداعة وأمامها سلة المفاتيح، وتجلس على جانبيها البنتان الصغيرتان، ولما كانت مدركةً لتلك النظرة الآمرة في عيني زوجها؛ أجزم بأن الغرباء الذين يرونهم، لن يكون بوسعهم التصوّر بأن منذ خمسة عشر دقيقة خلت، واجهته بشجاعة، وبالكاد سمحت له بأن يفتح فمه ليدافع عن نفسه. ولكن هذه هي براعة المرأة! وهذا هو دهاؤها!

والآن لتأمل صالة الإفطار المؤثثة تأثيثاً فاخراً في أسقفية بلومستيد، والانطباع الرغيد لكل ممتلكات مسكن كاهن الأبرشية. كانت تعكس العيش الرغيد لا محالة، لكنها لم تكن رائعة الجمال ولا حتى ضخمة. ففي الحقيقة، كان من الممكن أن تخدم العين والذوق على نحو أجمل بالنظر إلى الأموال التي أنفقت على المسكن. كان ثمة جوٌّ من الكآبة يسود الغرفة وكان يمكن تفاديه دون التضحية بأصول وتقاليد المكان! وكان من الممكن اختيار الألوان وتوزيع الأنوار على نحو أجمل، ولكن لعل في فعل ذلك تشويهاً إلى حد ما للجانب الكهنوتي بكامله. على أية حال، لقد فرشوا سجاً جيد سميكاً داكنة وباهظة الثمن دونما تبصّر، وثبتوا أوراق الجدران تلك، المنقوشة نقشاً بارزاً، لكنه كثيبٌ، وعلقوا تلك الستائر الثقيلة المنجدة بحيث تحجب نصف ضوء أشعة الشمس، كما كانت الكراسي من الطراز القديم، التي تم شراؤها بسعر يتجاوز ما يُعرض الآن للسلع الحديثة تجاوزاً هائلاً، بلا هدف.

كانت وجبة الإفطار على الطاولة مُكلفَةً وبسيطة على حدٍ سواء، فعلى ما يبدو، كان القصد هو إنفاق المال دون الحصول على انطباع من العظمة أو الثراء. كانت غلاية الماء من الفضة الثقيلة والصلبة، وكذلك إبريق الشاي، ووعاء القهوة، وكوز القشدة، ووعاء السكر. الأكواب قديمةً منقوشٌ عليها تينٌ بنقش باهت تساوي حوالي جنيهاً للقطعة الواحدة، ولكنها كانت أكواباً بشعة جداً في نظر السُدج.

كانت الشوكات الفضية ثقيلة جداً، لدرجة أن الإمساك بها يؤذي اليد، وكان وزن سلة الخبز هائلاً على الجميع ما عدا ذوي البنية القوية. مشروب الشاي كان الأفضل والقهوة هي الأشد سواداً، فيما كانت القشدة من أكثر الأصناف كثافةً. كان ثمة خبز محمص جاف، وخبز محمص بالزبدة، خبز المافن الإسفنجي، فطائر صغيرة غير محلاة، خبز بارد وحرار، خبز أبيض وأسمر، خبز منزلي وخبز الفرنين، خبز مصنوع من القمح وآخر من الشوفان. وإذا كان هناك خبز آخر سوى هذه الأنواع، فإنه سيوجد على تلك المائدة. هناك بيض على مناديل مائدة، وقطع من اللحم المقدد المقرمشة تحت أغطية فضية، وبضع سمكات في وعاء صغير، والكلاوي المتبلّة المقلية على طبق ماء ساخن؛ وُضِعَت بالصدفة على مقربة من صحن عظيم الشأن، رئيس الشمامسة. إلى جانب ذلك، وعلى منديل ناصع البياض موزع على صواني السفر [34](#)، كان هناك فخذ كبير لخنزير مدخن ولحم خاصرة بقرة كبير. كان الأخير قد ملأ مائدة العشاء في الليلة السابقة. كانت هذه هي أصناف الأطعمة المعتادة في أسقفية بلومستيد. ومع ذلك لم أجد مسكن كاهن الأبرشية منزلاً مبهجاً. **إنَّ حَقِيقَةَ فِكْرَةِ بَأْنِ الْإِنْسَانِ لَا يَحْيَا بِالْخَبْزِ وَحْدَهُ**، بدت وكأنها فكرة مندثرة إلى حد ما. بقدر ما كانت للمضيف هيئة تنم عن السخاء، وللمضيفه وجهٌ حسنٌ وطلق الملامح، وبقدر ما كان الأطفال أذكاء وموهوبين، والمؤن والنبيد من أجود الأنواع، مع كل هذه المغريات، ألفت بيت القسيس - بصفة عامة - مملاً إلى حد ما.

بعد الإفطار، ينسحب رئيس الشمامسة بالطبع، ماضياً في مساعيه الدينية. في حين، وعلى ما افترض، تبدأ السيدة غرانتلي بتفحص مطبخها، على الرغم من أن لديها مدبرة منزل من الدرجة الأولى، تتقاضى ستون جنيهاً في السنة. ثم تلتحق بدروس فلوريندا وغريزيل، مع أنها تملك مدرسة خاصة ممتازة تدفع لها ثلاثين جنيهاً في السنة. وعلى أية حال اختفت سيدة البيت: ولم أستطع قط، أن أكون رفيقاً للأولاد.

على الرغم من أن تشارلز جيمس دائماً ما يبدو كما لو كان هناك ما يجول في خاطره، لم يبد قط أن بجعبته الكثير ليقوله؛ وكان ما يقوله، يتراجع عنه دائماً في اللحظة التالية. قال لي ذات مرة إنه يعتبر الكريكيت، بشكل عام، لعبة مناسبة للأولاد، شريطة أن يلعبوها دون جري.

ولعبة الخمسات ³⁵ كذلك، لعبة لائقة، بحيث أن أولئك الذين ينخرطون في لعبها لا يهيئوا أنفسهم للعب أبداً.

أما هنري، فقد تشاجر معي ذات مرة لأخذه دور أخته غريزل في مسابقة بينهما لأفضل طريقة لاستخدام وعاء السقي لزهور الحديقة؛ ومنذ ذلك اليوم إلى هذا، لم يتحدث إلي، مع أنه يتحدث عني كثيراً. ومن دون ريب، طاب لي أسلوب الحديث اللطيف لصابي، وأخذت أنصت إليه قرابة نصف ساعة، ولكن حتى المرء يسأم من العسل، واكتشفت أنه يفضل المستمعين الأكثر إعجاباً به، ممن قابلهم في حديقة المطبخ وفي المناطق الخلفية من الحرم. بالإضافة إلى ذلك، أعتقد أنني أمسكت صاببي ذات مرة وهو يكذب. لذلك، وجدت أن مسكن كاهن الأبرشية بشكل عام، يبعث على الضجر. مع أنه لا بد من الاعتراف بأن كل شيء هناك على أفضل ما يكون.

بعد الإفطار - في الصباح الذي كتبنا فيه هذا الفصل - انسحب رئيس الشمامسة إلى مكتبه كالعادة، مُدحماً إلى أنه سيكون مشغولاً جداً، لكن السبب وراء ذلك هو لمقابلة السيد تشادويك إن جاء لزيارته. ولدى دخوله هذه الغرفة المقدسة، فتح بعناية، حقيبة الأوراق التي اعتاد أن يؤلف عليها مواعظه المفضلة، ونشر عليها ورقة، مكتوب ومعدل عليها بصورة نهائية، وأخرى مكتوب عليها جزئياً. ثم وضع محبرته، ونظر إلى قلمه، وطوى ورقة النشاف خاصته. بعد ذلك، نهض مجدداً من مقعده، وقف مولياً ظهره إلى موضع المدفئة، وأخذ يتثاءب بكل ارتياح، وهو يمتط ذراعيه الضخمتين إلى حد كبير، نافخاً صدره الضخم. ثم مشى عبر الغرفة وأغلق الباب. وبعد أن تهيأ، ألقى بنفسه في كرسيه المريح، وأخرج من درج سري أسفل طاولته، مجلداً لفرانسوا رابيليه ³⁶، وبدأ يتسلى بالشقاوة الظريفة لبانورغ - إحدى الشخصيات الخيالية الفكاهية في رواية بانتاغروول لرابيليه - ومرّ صباح رئيس الشمامسة في ذلك اليوم على هذه الشاكلة.

وهكذا ظل رائق الذهن في مكتبه قرابة ساعتين، حتى سمع طرقة على الباب، وعرف أن السيد تشادويك قد وصل. أعاد مجلد رابيليه إلى الدرج السري، وبدأ الكرسي المريح كما لو أنه يعمد على تحريكه. وما إن نهض رئيس الشمامسة ورفع ترباس الباب سريعاً، حتى رآه رئيس الخدم الذي يعمل كالمعتاد، في تلك الكنيسة، حيث كان عماداً من أعمدتها المهمة. كان السيد تشادويك قد وصل للتو من لندن، ولذلك معروف بأنه حامل الأخبار المهمة.

«حصلنا على استشارة السير أبراهام هابهازرد وأخيراً...»
قال السيد تشادويك وهو يجلس.

«حسناً حسناً؟!» هتف السيد رئيس الشمامسة بصبرٍ نافذ
«أوه! إن الورقة التي تضم استشارته طويلة للغاية! ويستحيل اختصارها في عبارة واحدة!
ولكن، بإمكانك قراءتها»

سلم السيد تشادويك نسخة لرئيس الشمامسة. والله وحده العالم بعدد الأوراق التي تحتوي
على الاستشارة التي تسنى للمحامي العام³⁷ ملؤها على وجه الأوراق وجانبيها، بشأن القضية
كما قدمها تشادويك أصلاً.

«حصيلة رأيه هي...» علق السيد تشادويك، «هناك ما يدعو للارتياح في قضيتهم. ومن
صالحنا ألا نُقدم على أي خطوة. إنهم يمضون في دعواهم ضد السيد هاردينغ وضدي. السير
أبراهام يقول، أنه وفقاً لصيغة الوصية والاتفاقات اللاحقة التي تمت الموافقة عليها قانونياً،
فأنا والسيد هاردينغ لسنا سوى موظفين نتقاضى أجرًا، وكان ينبغي أن يكون المدعى عليهم
إما مجلس بلدية بارچستر أو لرُبما، جماعة من الرهبان أو، والدك!»

«واااا!. إذن، السيد بولد يقتفي الأثر الخطأ! أليس كذلك؟»

«هذا ما يقوله السير أبراهام؛ لكن أي أثر من شأنه أن يبدو غير صحيح تقريباً. يعتقد السير
أبراهام أنهم لو حجزوا مجلس البلدية أو رهبان الكاتدرائية، لكننا أربكناهم. والأسقف، كما
يعتقد، سيكون تسديدة ناجعة، ولكن مع هذا بإمكاننا التدرع بأن الأسقف ليس سوى نزيل،
وأنه لم يجعل من نفسه طرفاً موافقاً على أداء واجبات أخرى قط»
«واضحٌ جداً»

«ليس تماماً، أنت تدري بأنّ في نص الوصية جاء: «قداسة الأسقف، يطيب لنا معرفة أن
العدل يأخذ مجراه». إذن، قد تكون المسألة متعلقة في أنّ والدك، عند قبوله إدارة ورعاية هذه
المهمة، لم يوافق أيضاً على المهام الأخرى الموكلة إليه. غير أنّ ذلك موضع شك. وحتى لو
أصبنا كبد الحقيقة، وأنهم ليسوا ببعيدين عن حقيقة الأمر حتى الآن، فإن المقصد منها في
صالحنا. وعلى حد قول السير أبراهام، في أنك تملك الصلاحية على جعلهم يدفعون خمسة

عشر ألف جنيه قبل أن يتمكنوا من تسليط الضوء على القضية. ومن أين يأتون بهذا المبلغ من المال؟!»

فرك رئيس الشمامسة يديه والبهجة تغمره. لأنه لم يشك قط في عدالة قضيته، ولكنه بدأ يتوجس شيئاً ما، لقد بدأ يخشى من إحراز خصومه لانتصار غير منصف. وكان من دواعي سروره أن يسمع بأن قضيتهم محفوفة بالعواقب والمآزق الحرجة، كأسباب حطام سفينة خفية وعصية على من لا يفقه بالبحر شيئاً، ولكنها أسباب واضحة لأنظار بحارة القانون الثاقبة.

كم كانت زوجته مخطئة عندما تمت أن يتزوج بولد من إيلانور! بولد! رباه، إن كان يتعين عليه أن يظل مغفلاً للاستمرار في مساعيه، فإنه سيصير شحاذاً قبل أن يعرف مع من كان يلعب بنيران القانون!

«ممتاز يا تشادويك، ممتاز. أخبرتك أن السير أبراهام هو رجلنا المنشود»

ووضع على الطاولة نسخ أوراق السير أبراهام، وأخذ يربت عليها بحب.

«لا تسمح لأحد برؤية هذه النسخ يا رئيس الشمامسة»

«من؟! أنا؟! أبدأ!»

«سيبدأ الناس بالثرثرة يا رئيس الشمامسة، وأنت تدري»

«بالطبع بالطبع»

«لأنهم إن رأوها، فإن ذلك سيعلمهم كيف يخوضون معاركهم دون مساعدة أحد»

«صحيح»

«ما من بشرٍ هنا في بارچستر، مسموحٌ له بالاطلاع عليهم يا رئيس الشمامسة، ما عدانا

نحن الاثنين»

«لا، لا، ما من أحد...» أجاب رئيس الشمامسة مسروراً بمدى الثقة بينهما، «ما من أحد

آخر»

«لدى السيدة غرانتلي اهتمامٌ خاصٌ بهذه القضية وأنا أعلم ذلك» قال السيد تشادويك

هل طرف رئيس الشمامسة بعينه أم لا؟ إنني أميل إلى الاعتقاد بأنه لم يطرف - ليس

تماماً - ولكنه من غير هذه الإيماءة غير المناسبة، التي فعلها للسيد تشادويك، بطرف عينه،

ملمحاً إلى أنه مهما بلغ اهتمام السيدة غرانتلي بهذه القضية، فهذا لا يعني السماح لها

بالاطلاع على تلك الوثائق. وفي الوقت نفسه، فتح جانباً من الدُرج الصغير - المذكور أعلاه - وترك الورقة فوق مجلد رابيليه، ثم كشف للسيد تشادويك نوع المفتاح الذي يحرس مثل هذه الكنوز المخفية.

عندئذ، أعرب الوكيل الحذر عن ارتياحه. آه! رجل مغرور! صحيحٌ أن بإمكانه أن يخبئ والأسرار الأخرى في مكان مقفّل بأقفال تصل لقوة أقفال برامه أو أقفال جاب [38](#)، لكن أين يمكنه أن يُخفي المفتاح الذي يفك هذه الألغاز الآلية؟ من المحتمل بالنسبة لنا أن زوجته على علمٍ بمحتويات كل دُرج في ذلك المنزل، ولها الحق في معرفة محتويات كل دُرج كما نعتقد.

«لكن، علينا بالطبع، أن نخبر والدك والسيد هاردينغ عن استشارة السيّر أبراهام بما يُرضيهم ويُطمئنهم بأن الأمور تسير على خير ما يرام» أضاف السيد تشادويك «أوه، بلا شك، نعم طبعاً»

«حريٌّ بك إبلاغهم بأن السيّر أبراهام يرى بأنه ما من قضية مرفوعة ضد السيد هاردينغ. وأنه حتى لو رُفعت دعوى قضائية في الوقت الراهن، فعليهم أن يتجاهلوها، وأن يرفضوا استئناف الدعوى إن أرادوا المضي قدماً. ويجدر بك إخبار السيد هاردينغ بأنه حسب قول السيّر أبراهام، هو موظف ليس إلا، وبالتالي فهو غير مسؤول. وإن كنت ترغب، سأقابل السيد هاردينغ بنفسى»

«عليّ رؤيته غداً، وأبي كذلك، وسوف أشرح لهما كل شيء بالتحديد. إنك لن تذهب قبل موعد الغداء يا سيد تشادويك. حسناً إن أردت الذهاب، امض، لأنني أعرف أن وقتك ثمين» وصافح وكيل الأسقف، ثم ودعه وخرج.

التجأ رئيس الشمامسة إلى درجه مرةً أخرى، ولمرتين، قرأ بتمعن، جوهر القاعدة المعتمدة من قبل السيّر أبراهام هابهازرد - العقول المستنيرة أمام العقول المتحيرة بالقانون - وكان جلياً بالنسبة للسيّر أبراهام بأن عدالة مطالبات المسنين وعدالة تبريرات السيد هاردينغ هما فكرتان لن تريا النور أبداً.

كان الانتصار القانوني الذي حققه السيّر أبراهام على الخصم هو الخدمة التي كان - كما خيّل إليه - سيتقاضى ثمنها؛ وأنه، بناءً على قناعاته الفكرية، قد عمل جاهداً من أجل

تحقيقها، وبأملٍ مُتَوَقَّعٍ في النجاح.

يا للرجبة الشديدة التي سيطرت على السيد هاردينغ، حتى يتأكد من صلاحية السلطة التي يمارسها، في أنه لم يظلم رجلاً قط، وأنه كان مستحقاً للأجور التي يتلقاها بعدل وإنصاف حقيقيين، لعله ينام ليلاً دون تأنيب الضمير. فهو لم يكن سارقاً، ولم ينهب حق المساكين. وأنه هو والعالم بأسره لا بد أن يقتنعوا علانية بأنه ليس الرجل الذي وصفته صحيفة المشتري اليومية! كان السيّر أبراهام جاهلاً تماماً برغبات السيد هاردينغ هذه؛ وعليه، يستحيل اعتبار تلبية هذه الرغبات وطمأننة السيد هاردينغ، جزءاً من عمله، إذ لم يكن هذا هو النظام الذي يخوض فيه معاركه، ويحقق الانتصارات. كان هدفه النصر المبين، وكان مُوفِّقاً في أغلب الأحيان. لقد قهر أعداءه من خلال معرفة نقاط ضعفهم بدلاً من استخدام قوته، وقد تبين أنه يكاد يكون من المستحيل تقريباً تسوية قضية لم يجد فيها السيّر أبراهام - بصفته الخصم - نقاط ضعف!

سُرَّ رئيس الشمامسة بتقارب الحثيات. ولإنصافه، لم يكن ذلك نصراً أناانياً يتمناه، فهو على الصعيد الشخصي، لن يخسر شيئاً أمام هذه الهزائم، أو على الأقل ما قد يخسره، لن يحدو به إلى اليقظة. لم يكن همه تحقيق العدالة، ولا حتى مراعاة مشاعر والد زوجته في الأساس. كان يخوض جزءاً من حرب لا نهاية لها، ضد عدو لم يهزمه أحد قط. إنها حرب الكنيسة ضد خصومها!.

كان يدري أن السيد هاردينغ عاجزٌ عن دفع نفقات ردود أفعاله هذه، بدءاً من المواثيق المسهبة للسيّر أبراهام، القضايا التي تقتضي الترافع عنها، الخطابات التي ستلقى، إلى مختلف المحاكم التي ستستغرق فيها القضية وقتاً طويلاً كما توقع. وكان يعلم أنه ووالده يجب أن يتحملا على الأقل الجزء الأكبر من هذه التكلفة الباهظة، غير أنه، ولإنصاف رئيس الشمامسة، لم ينأ بنفسه عن هذا. كان رجلاً مولعاً بالحصول على المال، يطمعُ بموارد هائلة، لكنه سخيٌّ للغاية في إنفاقها، وكان التنبؤ بنجاح هذا الإجراء نصراً يُحسب له، مع أنه قد يكلفه ثمناً غالياً.

في تلميح تهكمي آخر لترولوب يحمل كل ابن لغرانтли اسم أسقف معاصر في زمن ترولوب: كان تشارلز جيمس بلومفيلد (1786 - 1857)، أسقف لندن، سياسياً مُتَحَفِّظاً وحكيماً إلى حد ما، كان هنري فيلبوتس (1778 - 1869)، أسقف إكستر، معارضا عنيدا ولا يطاق للإصلاح، وكان صموئيل ويلبرفورس (1805 - 1873)، أسقف أوكسفورد المؤدب، من أتباع الكنيسة العليا المحافظين الآخرين.

مارتن لوثر (10 نوفمبر 1483 – 18 فبراير 1546) راهب ألماني، وقسيس، وأستاذ للاهوت، ومُطلق عصر الإصلاح في أوروبا، بعد اعتراضه على صكوك الغفران

الرهينة الكبّوشية هي رهينة كاثوليكية نشأت عام 1525 بوصفها حركة إصلاحية ضمن نطاق الرهينة الفرنسيكانية، حيث استقلت عنها نهائياً عام 1916 وأسسها ماتيو باسي

طاولة جانبية بها رفوف، توضع عليها أغطية وأدوات المائدة

لعبة إنكليزية تشبه كرة اليد

1 فرانسوا رابليه كاتب فرنسي ساخر، وطبيب، وراهب فرنسيسكاني وأحد إنساني النهضة. صادر رؤساؤه الفرنسيكان كتبه كونها ساخرة مثيرة للمشاكل. اعتبر الفيكتوريون أعمال رابليه غير لائقة.

منصب مستشار قانوني أقدم في إنكلترا وويلز

جوزيف برامه (1748 – 1814) وتشارلز چاب (1772 – 1846) صانعا أقفال مشهوران

الفصل التاسع: الاجتماع

في صباح اليوم التالي، قصد رئيس الشمامسة والده في وقت أبكر من المعتاد، وبعث برسالة إلى راعي حيرام يطلب منه الحضور إلى البيت. وبينما كان الدكتور غرانتلي يتفكر في هذه القضية، متكأً داخل العربة أثناء سفره إلى بارچستر، شعر أنه سيكون من الصعوبة بمكان تبليغ والده ووالد زوجته عن مدى اقتناعه بكلام السّير أبراهام هابزرد. كان يبتغي أن يكون التوفيق والسداد من صالحه، والهزيمة الممزوجة بالخيبة لصالح أعدائه. فيما أراد الأسقف أن يحلّ السلام على هذا الموضوع، وأن تُوصَلَ أُسس السلام قدر الإمكان، ولكن على أيّة حال، حتى ما تبقى من أيام معدودة في حياته، فإن حلول السلام، قد طال أمده. لم يبتغ السيد هاردينغ التوفيق والسلام فحسب، بل أراد أن يبرر موقفه أمام العالم.

كان من السهل التعامل مع الأسقف مقارنة بغيره. وقبل وصول السيد هاردينغ، أقنع الابن المطيع أباه بأن كل شيء يسير على خير ما يرام، ثم وصل راعي حيرام.

كان السيد هاردينغ معتاداً، كلما قضى صبيحةً في قصر الأسقف، على الجلوس قريباً من كوع الأسقف الذي يجلس في كرسي كبير ذي مسندين ملحقاً بطاولة للمقراءة وشمعدانات ودرج، وغير ذلك من المعدات، حيث لا يتزحزح الكرسي من موقعه لا في الصيف ولا في الشتاء. وحينما يتواجد رئيس الشمامسة هناك كذلك، كالمعتاد، فإنه يجلس بمواجهة الشيخين الصديقين ليتسنى لهما خوض المعركة معاً ضده، ويخضعان للهزيمة سويةً، لأن هذا كان مصيرهما الدائم.

جلس راعينا في مكانه المعتاد، بعد أن حياً صهره أثناء دخوله، وبعد ذلك استعلم بمودة عن صحة صديقه. كان ثمة هالة من الوداعة تُحيط بالأسقف تُقابلها ألفة عفوية ساحرة تُحيط بالسيد هاردينغ، تجعله محبوباً للغاية. وكان من الطريف رؤية اثنين من كبار الكهنة اللطفاء، يضغطان على يد بعضهما، بشوشان، ويُظهران شيئاً من علامات المودة.

«وأخيراً وصلتنا استشارة السّير أبراهام» بدأ رئيس الشمامسة الحديث. وبعد أن تنهى لمسامع السيد هاردينغ تفاصيل كثيرة، بدا تواقفاً لمعرفة النتيجة.

«أخبار طيبة إلى حد ما، وأنا مسرورٌ لذلك» أجاب الأسقف وهو يضغط على ذراع رفيقه.

نظر السيد هاردينغ إلى حامل الأخبار المهمة، لتأكيد هذه الأخبار الطيبة، فرد رئيس الشماسة قائلاً:

«نعم، لقد أولى السير أبراهام اهتماماً خاصاً بالقضية؛ في الواقع، كنت أعرف بأنه سيولي اهتماماً فائقاً. أما رأيه هو أنهم لا يملكون حجة يستندون عليها. وبما أن رأيه في موضوع من هذا القبيل لا يتحمل الخطأ، فكل من يعرف شخصية السير أبراهام حق المعرفة، لا يجرؤ على التشكيك به!»

«كيف من هذا القبيل يا رئيس الشماسة؟»

«عجباً! في المقام الأول، أنت لست بمحام أيها الراعي، وأشك في أنك لن تفهم ذلك. جوهر القضية هو: بموجب وصية حيرام، وقع الاختيار على راعيين لتسلم إدارة المأوى. يقول عنهما القانون «موظفان يتقاضيان أجراً». وأنا وأنت، لن نختلف حول المسميات»
«مهما يكن، لن أختلف معك إن كنتُ واحداً من الموظفين. وأتقاضى أجراً زائداً! كما إنك تعرف...»

«أجل أجل...» أجاب رئيس الشماسة متبرماً من الشاعرية في مثل ذلك الوقت، وأردف قائلاً: «حسناً، موظفان يتقاضيان أجراً، فلننقل: واحد يتولى شؤون المسنين، والآخر يُدير الشؤون المالية. أنت وتشادويك هما هذان الموظفان، وسواء كان أحد منكما يتقاضى أجراً مبالغاً فيه أو ضئيلاً للغاية، أعلى أو أقل مما أوصى به المؤسس، فالأمر واضحٌ وضوح الشمس، وهو أن أحداً لا يجرؤ على معاداة أيٍّ منكما لاستلامه راتبٍ مخصص له»
«يبدو الأمر واضحاً جداً...» علق الأسقف الذي نكص فزعاً بشكل واضح، عند سماعه كلمتي «موظفان» و «راتبٌ مخصص»، اللتين على ما يبدو، لم تتسببا بأي ارتباك لرئيس الشماسة.

«واضحٌ جداً، ومُقنع تماماً. وفي الواقع، عند اختيار هؤلاء الموظفين ليعملوا في المأوى، يجب أن يتوقف الأجر الذي يتقاضونه على معدل أجر هذه الخدمات بحسب قيمتهم السوقية خلال الفترة المعنية المشار إليها؛ وأولئك المسؤولون عن المأوى يجب أن يكونوا أصحاب القرار وحدهم على مثل هذا الأمر»

«ومن المسؤول عن المأوى؟» سأل الراعي

«دعهم يكتشفون ذلك، هذه مسألةٌ أخرى! الدعوى مرفوعة ضدك أنتَ وتشادويك، وهذا ما يعصمك بالكامل. أخال ذلك مقنعاً للغاية»

«حسناً...» قال الأسقف وهو يتطلع مستفسراً إلى وجه صديقه الذي مكث صامتاً لوهلة، وعلى ما يبدو، غير مقتنع البتة.

«وحاسمٌ...» استأنف رئيس الشمامسة «إن فرضوا القضية على هيئة المُحلّفين، وهو ما لن يفعلوه، لن يجد أي رجل من الرجال الاثني عشر في إنكلترا وقتاً كافياً ولو خمس دقائق، للدفاع عن نفسه أمام قرار الهيئة»

«ولكن وفقاً لذلك، يمكنني أن أحظى بألف وستمئة جنيه سنوياً مثل الثمان نمثة إن قرر المسؤولون تخصيص ذلك لي، وبما أنني أحد المسؤولين، إن لم أكن المسؤول الرئيسي، فمن الصعوبة بمكان أن نُسَمِّي هذا اتفاقاً عادلاً» قال السيد هاردينغ

«ليس لذلك علاقة بالموضوع. جُلُّ المسألة هي ما إذا كان ذلك الرجل المزعج، والكثير من المحامين الخونة والمنشقين الملعونين، سيحشرون أنوفهم في نظام يعلم الجميع أنه من الأساس نظامٌ عادل ويعود على الكنيسة بالنفع. أرجوكم، لا تجعلونا نتجادل في أمورٍ لا طائل منها، وإلا لن تكون هناك نهاية للقضية ولا للثمن»

لزم السيد هاردينغ الصمتَ مرةً أخرى لفترة من الوقت تخلمها ضغط الأسقف مراراً وتكراراً على ذراعِهِ، والنظر في وجهه ليرى ما إذا كان سيلمح فيه بصيصٌ من طمأنينة واقتناع؛ ولكن هيهات! فراح الراعي المسكين يعزف مراثيَ مُحزنة على آلاتٍ وترية غير مرئية بشتى المواقع. كان يُفكّر ملياً برأي السير أبراهام هذا، يمحصةً -بسأمٍ وجديّةٍ- كي يقتنع، لكن بلا جدوى. وفي نهاية المطاف سأل: «هل اطّلت على نص استشارته شخصياً يا رئيس الشمامسة؟».

أجاب رئيس الشمامسة بأنه لم يرَ نص كلامه - مع أننا نعرف الحقيقة - وأنه قرأ ما أسماه نسخة من الوثيقة، لكنه لم يجرؤ على الاعتراف ما إذا قرأ النص كاملاً أو جزءاً منه؛ ولا يمكنه القول بأن ما رآه هو نص ذلك الرجل رفيع المستوى ذاته! غير أن ما رآه يتضمن القرار الذي قاله تماماً، والذي بيّنه مرةً أخرى على أنه مقنعٌ للغاية بحسب رأيه.

«أودُّ أن أطلع على نص الاستشارة، تلك النسخة منه» قال الراعي

«حسناً، أعتقد أن بإمكانك الاطلاع عليها إن كنت ترى ذلك ضرورياً لكنني لا أرى فائدة من ذلك. ومن المهم بالطبع، ألا يكون مضمون هذا التقرير معروفاً، لذلك فمن غير المستصوب مضاعفة النسخ»

«ولم ينبغي ألا يكون مضمونها معروفاً؟» سأل الراعي

«يا له من سؤال ليسأله رجل!» ردَّ رئيسُ الشمامسة وهو يمدُّ يديه تعبيراً عن دهشته، «يبدو الأمر كما لو أن طفلاً أكثر حنكة منك بشؤون العمل! ألا تُدرك أننا لو قلنا لهم بأنه ما من إجراء يمكن أن يتخذَ ضدك، باستثناء ما يمكن أن يُقيمه أحدهم ضد شخص آخر أو شخصين آخرين، أننا بهذه الطريقة سنضع أسلحةً بأيديهم، ونعلمهم كيفية نحر أعناقنا؟»
ومرةً أخرى، جلس الراعي صامتاً، وصديقه الأسقف، ينظر إليه نظرةً محزونة.

واصل رئيس الشمامسة: «كل ما علينا فعله الآن هو أن نظل هادئين، نصمت، وأن نتركهم ليلعبوا لعبتهم كما يحلو لهم»

«لا يجوز لنا أن نعلن على الملأ، بأننا قد استشرنا المحامي العام، وأنه أبلغنا بأن وصية المؤسس تُنفذُ بطريقةٍ شرعيةٍ وعادلةٍ تماماً» تحدث الراعي.

«فليمنحني الله الصبر! يا له من أمر يبعث على الغرابة! إنك لا تفهم بأن كل ما علينا القيام به هو عدم القيام بأي شيء: لمَ عسانا أن نقول شيئاً عن وصية المؤسس؟ كل شيء تحت السيطرة، ونحن نعلم أنهم ليسوا في وضع يسمح لهم في إقحامنا بالمتاعب. أعتقد بأن ما قلناه كافياً حتى الآن!»

نهض السيد هاردينغ من مكانه، وأخذ يذرع المكتبة جيئةً وذهاباً وهو مستغرقٌ بالتفكير، بينما راح الأسقف يراقبه بمرارةٍ في كل خطوة. أما رئيس الشمامسة، فواصل التعبير عن قناعته بأن القضية باتت في حالةٍ تبعث على القناعة في بال كل شخصٍ ذكي.

«وصحيفة المشتري؟!»، قال الراعي الذي توقف على نحوٍ مباغت.

«أوه! صحيفة المشتري!» كرر رئيس الشمامسة، «ليس بإمكان صحيفة المشتري أن تكون مؤذية. عليك بالصبر، ثمة الكثير من التفاصيل وهذه مهمةٌ لا مفر منها تتطلب منا الصبر. لا يُعقل أن يكون الطريق أمامنا معبداً بالورود في مثل هذا الوضع....» بدا رئيس الشمامسة صادقاً إلى أبعد حد، «بالإضافة إلى أن المسألة تافهة للغاية، ولا تحظى باهتمام عام يستوجب

ذكرها من جديد في صحيفة المشتري، ما لم نُثِرِ الموضوع» ومرةً أخرى، بدا رئيس الشمامسة ذا دراية كبيرة وخبيراً بأمور الدنيا.

واصل الراعي سيره، فكل كلمةٍ من كلمات الصحيفة القاسية واللاذعة التي وردت في المقال الصحفي، كل كلمةٍ منها، غرزت شوكة في أعماق روحه، ما تزال حية في ذاكرته. كان قد قرأها أكثر من مرة، كلمة بكلمة، وما هو أسوأ من ذلك، ليست خفيةً على أحد كما يراها هو بنفسه.

هل سيظل الناس ينظرون إليه على أنه **القس الظالم المستبد** كما وُصِفَ هناك في تلك الصحيفة؟ هل ينبغي أن يشيروا إليه على أنه **آكلٌ لأموال المساكين**؟، وأن يكون ممنوعاً من دحض هذه الاتهام وتبرئة اسمه بشتى الطرق؟ ليعود أمام العالم ذلك الشخص طيب السريرة، طاهر الذيل مثلما بقي حتى اليوم؟

هل كان عليه أن يصبر على كل هذا؟، وأن يتلقى كالمعتاد، راتبه الذي بات يمقته؟، وأن يُعرَفَ بأنه أحد القساوسة الجشعين ممن جلبوا العار على كنيستهم بطمعهم؟ ولماذا؟ لِمَ عساه أن يتحمّل كل هذا؟ لماذا ينبغي أن يهلك من شعوره باستحالة عيشه تحت وطأة هذا الانتقاد والعار؟

وفيما كان يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، قرر في وسط معاناته، وبعد أن أخذته الحمية، أنه يستطيع أن يتخلى عن منصبه، وأن يغادر بيته المريح والمأوى عن طيب خاطر لو سُمِحَ له. وأن يعيش في ظل شظف الفقر بسعادة وسُعةٍ لا تشوبها شائبة، على كل ما تبقى من دخله المحدود.

كان نوعاً ما، رجلاً يخجل من التحدث عن نفسه، حتى أمام من يعرفونه حق المعرفة ومن أحبهم كثيراً؛ ولكن في النهاية انفجر معلناً بفصاحةٍ فظة إلى حدٍ ما، بأنه لا يستطيع، وليس بمقدوره تحمّل هذا العذاب بعد الآن. وفي النهاية قال:

«إذا أمكن إقامة الدليل، بأنني أمتلك حقاً نصفاً وشرعياً في تلك الأموال، والله يعلم أنني كنت أعتبرها كذلك على الدوام، وإن هذا المُرْتَبُ من حقي بالفعل، فأنا لست أقل حرصاً من غيري على الاحتفاظ به، فعندي ابنةٌ أفكر بمستقبلها ومصحتها. إنني أكبر من أن أفقد لوسائل الراحة التي اعتدتُ عليها دون شيءٍ من اللامبالاة. وأنا - شأنني شأن الآخرين - حريص على أن أثبت للعالم أنني كنتُ على حق وأن أحتفظ بالمنصب الذي تسلمته ولكن،

لستُ قادراً على فعل ذلك بمثل هذا الثمن. لا أطيق ذلك، أتريد مني أن أصبر؟...»، قال بنبرة يشوبها التماس والدموع تكاد أن تطفر من عينيه، موجهاً حديثه إلى الأسقف الذي ترك كرسيه وقد أصبح الآن منحنيًا على ذراع الراعي وهو يقف على الجانب الآخر من الطاولة، مواجهًا لرئيس الشمامسة.

«هل يمكنك أن تطلب مني الجلوس هناك خليّ البال، راضياً وغير آبه، في حين أن مثل هذه الأشياء تُقال عني جهاراً في العالم؟»

تفهّم الأسقف شعوره وشاركه إياه، لكنه لا يستطيع أن يسديه نصيحة، ليس بيده إلا أن يقول:

«كلا، أن يطلب منك أحدهم بأن تقف مكتوف الأيدي فهذا العذاب بعينه. عليك أن تفعل ما يُمليه عليك قلبك وتراه صحيحاً، يجب أن تفعل ما تراه مناسباً لك. ثيوفيلوس، لا تطلب منه شيئاً، أرجوك لا تطلب من الراعي فعل أي شيءٍ يجرحه»

لكن رئيس الشمامسة، على الرغم من عدم قدرته على التعاطف، تجرأ على إسداء نصيحة، ورأى أن الوقت قد حان ليفعل ذلك بطريقة آمرة إلى حد ما.

«لِمَ يا سيدي؟!» تكلم رئيس الشمامسة موجهاً السؤال لوالده. وعندما يدعو والده بـ «سيدي»، يتجمد الدم في عروق الأسقف العجوز الطيب، لأنه يدرك أن المصائب مقبلة. «لماذا يا سيدي؟ ثمة طريقتان لإسداء النصيحة: هناك نصيحة قد تكون نافعةً لساعتنا هذه، ونصيحة قد تكون نافعةً لأيام مقبلة. واليوم لا أقوى على إسداء نصيحة من النوع الأول إذا كانت متعارضة مع النوع الثاني!»

«كلا كلا، لا أفترض ذلك!» أجاب الأسقف ثم جلس وهو يخفي وجهه بين يديه. وجلس السيد هاردينغ وهو يسند ظهره إلى الجانب الأبعد من الجدار باحثاً عن نسمة هواء جديدة بمثل ذلك الموقف المأساوي. أما رئيس الشمامسة، فقد قال ما قاله واقفاً، مولياً ظهره للمدفئة الخاملة.

«لا يُفترض حدوث ذلك، ولكن هذه الشكوك المثارة بلا داع، ستُسفر عن هذا القدر الكبير من العذابات. كان علينا جميعاً أن نتوقع ذلك. ومهما كان، لم تسر الأمور على نحوٍ أسوأ مما توقعنا. وسيكون من الحماسة والإثم كذلك، أن نتخلى عن القضية وأن نضع أنفسنا في صفوف الفاسدين، فقط لأن التساؤلات تُعذّبنا! ليس علينا أن نداري مشاعرنا فحسب؛

فمصلحة الكنيسة تقع على كاهلنا إلى حد كبير، هل علينا أن نرى واحداً تلو الآخر ممن يتقلدون فيها مناصب رفيعة يتخلون عنها كلما هوجمت؟، أليس من الواضح أن مثل هذه الهجمات سوف تتكرر حتى لا يبقى شيء لنا؟ وإذا هُجرت كنيسة إنكلترا فإنها ستنهار تماماً؟ إن كان هذا ينطبق على العديد من رجال الدين، فإنه ينطبق على كل فرد منا. إن كنت تقف متهماً كما أنت الآن، وتنوي ترك وظيفة راعي المأوى، وتتخلى عن مسؤوليات منصبك - الذي هو حقك - لهدف لا جدوى منه فقط لتثبت نزاهتك، فإن الفشل سيكون مآلك، وسوف توجه ضربة موجعة لإخوانك من رجال الدين، وتشجع كل المنشقين المحبين للخصام في إنكلترا على توجيه تهم مماثلة بخصوص مصادر الإيرادات الدينية، وستبدل قسارى جهدك لتثبط عزيمة كل من يستमित للدفاع عنك والوقوف بجانبك. لا يمكنني تخيل شيء أكثر حماقة أو أكثر إثماً من ذلك. ليس الأمر في أنك تعتقد بعدم وجود العدالة حين وجهوا الاتهامات لك، ولا في أنك تشكك في مدى حقك الشخصي من منصبك هذا. لأنك موثق بنزاهتك، ورغم ذلك، تستسلم لهم بسبب خوفك!»

«الخوف!» قال الأسقف بنبرة معترضة. في حين تسمّر السيد هاردينغ محدقاً في صهره. «حسناً؛ أليس ما يفعله خوفاً؟ ألا يفعل ذلك لأنه يخشى أن يتحمل سوء ما وصفوه به زوراً وبهتاناً؟ ألا يكون ذلك جبناً منه؟ والآن فلنحسب مدى السوء الذي تتوجس خيفة منه. نشرت صحيفة المشتري مقالاً سيقروه الكثيرون بلا شك، ولكن من هؤلاء القراء الذين فهموا القضية، كم شخصاً سيصدق صحيفة المشتري؟ يعرف الجميع هدف الصحيفة من ذلك: لقد أثارَت القضية المرفوعة ضد لورد غيلدفورد وضد كبير كهنة روتشستر، والقضية المرفوعة ضد نصف الأساقفة³⁹. ألا يعلم الناس أنها ستثير أي قضية من هذا القبيل، سواء أكانت عن حق أم باطل، صواب أم خطأ، بعدل أم بغيره، ألا يمكنها - من خلال القيام بذلك - تعزيز وجهات نظرها الشخصية؟ ألا يعرف العالم بأسره هذا عن صحيفة المشتري؟ من يصدق حقاً، أنك ستظن سوءاً بنفسك بسبب ما نشرته صحيفة المشتري؟ ولماذا تراعي أهمية لمن لا يعرفونك؟ لن أقول شيئاً عن وسائل الرفاهية خاصتك، لكنني أعرف أنه لا تستطيع تبرير تنازلك عن مصدر الرزق الوحيد الذي تتمتع به إيلانور، في لحظة من نوبة غضب عارمة وهذا ما تبدو عليه الآن. وإذا ما تركت منصبك، واستسلمت للمهلك، ماذا ستجني من ذلك؟ إذا جرّدت نفسك من أي حق مستقبلي في راتبك، فهذا يعني أنك لا تملك

حقاً سابقاً في ذلك؛ وحقيقة تخليك عن منصبك من شأنها أن تخلق طلباً لسداد ما تلقيته وأنفقته في السنوات الماضية!»

أخذ الراعي المسكين يتأوه وهو جالس في مكانه، وينظر إلى المتحدث متحجر القلب الذي يعذبه بهذا الحديث، وردد الأسقف الصوت بوهن من وراء يديه - حيث يخفي وجهه - غير أن رئيس الشماسة لم يأبه بعلامات الضعف هذه، وأكمل نصحه:

«ولكن لنفترض أن المنصب سيترك شاغراً، وأن مشاكلك المتعلقة به قد انتهت، هل سيرضيك ذلك؟ هل طموحاتك الوحيدة مقتصرة على نفسك وعائلتك في هذه القضية؟! أعرِفُ أنك لستَ من هذا النوع، وأنت قلق البال كأبي واحد منا الكنيسة التي ننتمي إليها! يا لهذا الجحود، يا له من ضربة موجعة للكنيسة! إنك مدينٌ للكنيسة التي أنت قسيسٌ وعضوٌ فيها. يجب أن تصبر على هذا البلاء مهما كان شديداً! أنت مدينٌ لأبي الذي رفع من شأنك لدعم حقوقه، مدينٌ لمن سبقوك لتحقيق شرعية منصبهم، ومدينٌ لأولئك الذين سيخلفونك، بأن تحفظ لهم المنصب تسلمته من الآخرين مُصاناً. إنك مدينٌ لنا جميعاً بولاء راسخ لا يفهم معناه إلا راهب أصيل، هكذا ندعم بعضنا، كي ندعم قضيتنا العظيمة دون الشعور بالخجل أو العار»

وهكذا، أنهى رئيس الشماسة موعظته، ووقف مقتنعاً بنفسه، يراقب تأثير حكمته المنطوقة.

شعر الراعي أنه مختنق إلى حدٍ ما. كان سيهب العالم بأكمله مقابل الخروج إلى الهواء اللطيق دون أن يتحدث، ودون أن يلاحظ أولئك الذين كانوا معه في الغرفة، لكن هذا كان مستحيلاً. فلم يكن بإمكانه أن يغادر دون أن يقول شيئاً. وشعر بأن حديث رئيس الشماسة قد أفحمه. كان ثمة حقيقة ثقيلة، مُفحمةٌ وقاسية فيما قاله؛ والكثير من الحس السليم المشترك، ولكن البغيض، لدرجة أنه لم يكن يعرف كيفية الموافقة أو الاختلاف معها. فإذا كان لا بد من المعاناة، شعر أن بمقدوره أن يتحمل ذلك دون تدمير وخوف، شريطة أن يشعر بارتياح ذاتي تجاه عدالة قضيته. ما لم يستطع تحمله هو أن يُتَّهم من قِبَل الآخرين، ولا يُبرئ نفسه بنفسه. وإذا كان يشك، كما بدأ يشك، بأحقية منصبه في المأوى، كان يعلم أن ثقته بنفسه لن تُسترد لكون السيد بولد كان مغلوطاً فيما يتعلق ببعض الأشكال القانونية؛ كما أنه لا

يرتضي الهروب، لأنه، ومن خلال بعض الروايات القانونية، فإن الشخص الذي يحصل على أكبر فائدة من المأوى، قد لا يُعتبر إلا أحد موظفيه.

أسكتهُ خطاب رئيس الشمامسة، أذهله، بل قصم ظهره، إلا أنه لم يقدر على إقناعه. لم يكن الوضع مع الأسقف أفضل حالاً. لم يُميز بوضوح كيف تجري الأمور، لكنه رأى ما يكفي ليعرف أن عليه الاستعداد للمعركة؛ معركة من شأنها أن تُدمر أبسط وسائل الراحة المتبقية بحوزته، وأن تقوده لقبره، بكل حزن.

كان الراعي ما يزال جالساً ينظر إلى رئيس الشمامسة، حتى ثبت أفكاره بالكامل على وسيلة للهروب من منصبه الحالي. ف شعر وكأنه طائرٌ مفتونٌ بالتحديق إلى ثعبان!

«آملُ بأن توافقني الرأي...» جاء صوت رئيس الشمامسة مخترقاً الصمت المطبق الرهيب، «أرجو أن توافقني الرأي يا سيدي».

أوه! يا للتنهيدة التي تنهدها الأسقف. فكرر الطاغية الذي لا يرحم سؤاله مرة أخرى: «سيدي، أرجو أن تتفق معي».

«بلى، أظنُ ذلك...» تأوه العجوز المسكين.

«وأنت أيها الراعي؟»

عندها، تحرك السيد هاردينغ لاتخاذ إجراء. يجب أن يتحدث ويتحرك لذا نهض وأخذ منعطفاً واحداً قبل أن يرد:

«لا تجبروني على الإجابة في الوقت الحالي، لن أقدم على فعل أي شيء باستخفاف في هذه المسألة، ومهما قررتُ فعله، سوف أبلغك أنت والأسقف بدايةً»

وهكذا غادر دون كلمة أخرى، هارباً بسرعة عبر أروقة القصر، نزولاً عبر السلالم الشاهقة. لم يتنفس بحرية حتى وجد نفسه وحيداً تحت أشجار الدردار الضخمة المحيطة بالحرم الهادئ. وهناك سار طويلاً وهوناً، مفكراً في قضيته وسط ذلك الجو المضطرب، وحاول عبثاً، أن يدحض حجة رئيس الشمامسة. ثم عاد إلى المنزل، عاقد العزم على تحمُّل كل شيء: الخزي، القلق، العار، انعدام الثقة في النفس، وحرقة القلب. وأن يفعل ما يريده هؤلاء، الذين ما فتى يخالهم أنسب الناس وأقدرهم على تقديم المشورة له بكل ما يحملون من صدق.

في عام 1853، لاحقت صحيفة التايمز أيضاً أسقف سالزبوري، مدعية أنه اختلس إيرادات الأبرشية

الفصل العاشر: المحنة

أمسى السيد هاردينغ أشد حزناً مما كان عليه عندما عاد إلى منزله. كان مغتماً في ذلك الصباح الذي لا يُنسى عندما اضطر أن يكشف لصهره عن حساب الناشر الذي أخرج للنور كتابه العزيز «الترانيم المقدسة»، حينها اكتشف بعد أن سدد مبالغ صدوره حين كان بوسعه ذلك دون مساعدة أحد، إنه مدينٌ بأكثر من ثلاثمئة جُنيه.

ولكن حزنه آنذاك كان شيئاً لا يُذكر أمام عذابه الآن. ففي تلك الأيام، ارتكب خطأً، وكان يعرف ذلك، وكان بإمكانه أن يقرر بالألّا يُخطئ بهذه الطريقة مرةً أخرى؛ لكنه الآن لا يستطيع اتخاذ قرار ولا تشجيع نفسه بأيّ وعود بالصبر.

كان مضطراً إلى الاعتقاد بأن قدره وضع في طريقه منصباً غير مناسب، وهو على وشك أن يتمسك بهذا المنصب رغماً عن قناعاته وعن ظنون العالم.

قرأ بحزن يكاد أن يرقى إلى حد الخوف، الانتقادات اللاذعة التي كانت تظهر في الصحف من حينٍ لآخر ضد إيرل غيلدفورد بصفته رأس كنيسة سانت كروس، والإهانات التي كانت تنهال على كبار شخصيات الأبرشية الثرية وأصحاب الوظائف السهلة المتعددة من القساوسة. وعند الحكم عليهم، حكم برأفة، لأن النزعة التامة لمهنته أملت عليه بأن يعتقد بأنهم رجالٌ ظلّموا أكثر مما ظلّموا، وأنّ العداوة التي تلاحقهم، تنمّ عن حقد وظلم. لكنه مع ذلك، فهو يعتبر محنتهم أكثر مرارةً.

انتصب شعر رأسه عن آخره وتجمد الدم في عروقه وهو يقرأ ما كُتب. وراح يتساءل كيف يمكن لهؤلاء أن يعيشوا تحت وطأة هذا العار؟ كيف يمكن أن يواجهوا إخوانهم في البشرية وأسماءهم تتناقلها ألسن الناس علناً وبهذا الشكل الجارح؟! واليوم، دائرة القدر على وشك أن تدور حوله، هو ذلك الرجل الخجول المنطوي على ذاته، الذي كان يرقّه عن نفسه بالغياب المخبوء في أمكنته المخصصة له، هو الذي كان يستلذ بالدفء المتواضع في ركن بيته الصغير. أما اليوم، ها هو يُقحم - عذوةً - أمام الأ نظار الغاضبة وتحت مقصلة الحشود الضارية. هكذا دخل بيته، بقلب إنسانٍ مخزى ومُحتقَر، دون أملٍ في التغلب على الشقاء الذي أخذ منه مأخذاً.

راح يمشي في أرجاء صالة الاستقبال حيث تجلس ابنته، لكنه لم يستطع التحدث معها، فتركها، وذهب إلى المكتبة. لم يكن سريعاً بما فيه الكفاية لتفادي نظرة إيانور أو لمنعها من رؤيته متضايقاً؛ فتبعته بعد برهة من الوقت. ورأته جالساً فوق كرسيه المعتاد. ما من كتابٍ مفتوح أمامه، ما من قلم في يده، ولا أية ملاحظات مغلوفة لنوتات موسيقية محوطة مفرودة أمامه كالاعتاد، ولا حتى أيّاً من حسابات المأوى التي كان في غاية الدقة والنظام في إحصائها. لم يكن يفعل شيئاً، ولا يفكر في شيء، ولا ينظر إلى شيء؛ لقد كان يتعذب فحسب.

«دعيني يا حبيبتي إيانور...» اتركيني لبعض الوقت يا عزيزتي، فأنا مُشغول»
فهمت إيانور الأمر جيداً، إلا أنها تركته، وانسلت بصمت عائدةً إلى صالة الاستقبال. حينها، وعلى هذا النحو، جلس هنيهة، ثم نهض ليمشي مرةً أخرى، فاضياً وبمفرده. كان بإمكانه أن يستجمع أفكاره وهو يمشي أكثر منه وهو جالس حتى بدأ يتسلل إلى حديقته عندما التقى بونس على العتبة.

«حسناً يا بونس...» قال بنبرة كانت لاذعة بالنسبة له. «ما الأمر؟ أحتاجني في شيء؟»
«جئتُ فقط للسؤال عن صحتك أيها الموقر...» أجاب نزيل المأوى وهو يمسك بقبعته.
ثم أضاف بعد حالةٍ من الصمت: «وللاستفسار عن الأخبار القادمة من لندن»
جفل الراعي ووضع يده على جبهته يخامرهُ شعورٌ بالارتباك.

«كان المحامي فيني موجوداً هذا الصباح، وكما أعتقد، لم يبدُ مسروراً تماماً مثل المرة السابقة. وأنه بطريقةٍ ما، فهم من مصدرٍ خارجي أن رئيس الشمامسة قد تلقى أخباراً سارةً من لندن، وأن هاندي ومودي كلاهما مغتاز أيّما غيظ. وأنا يحدوني الأمل في...» تكلم الرجل في محاولةٍ منه لاتخاذ نبرةٍ مبتهجة، وواصل قائلاً: «إن الأوضاع آخذة في التحسن، وإن هذه التفاصيل بدأت ستجلي، وسيكون هناك عما قريب، نهاية لكل هذه الأشياء التي تضايقك أيها الموقر»

«لعله كذلك يا بونس، أتمنى»

«لكن ماذا عن الأخبار أيها الموقر؟» استعلم الرجل العجوز بصوتٍ يكاد أن يكون همساً.

أخذ السيد هاردينغ يتمشى ويهزُّ رأسه بصبرٍ يكاد ينفد. لم يكن بونس المسكين يدري كيف أنه كان يُعذب راعيه.

قال بنبرةٍ مفعمة بالمودة حتى أن الراعي في عز معاناته، لم يكن ليقاومه: «إن كان ثمة شيء أفعله لإدخال السرور على قلبك، سأكون سعيداً جداً لمعرفته وفعله»
توقف السيد هاردينغ، وضمَّ يدي الرجل العجوز في يديه.
«ليس ثمة ما تفعله يا صديقي العجوز العزيز، ما من أخبارٍ تُدخلُ السرور على قلبي، ولتكن مشيئة الرب» وطفرت من عينيه دموعتان صغيرتان حارتان سالتا عبر أخايد وجنتيه.
«إذن، فلتكن مشيئة الرب» قال الآخر بكل خشوع، «غير أنهم أخبروني بأن هناك أخباراً سارة من لندن، وجئت لأتمنى لك السعادة أيها الموقر، لكن قدر الله وما شاء فعل».
مشى الراعي مرةً أخرى، والنزول ينظر إليه بحزن دون تلقي أي تشجيع لاتباعه، فعاد إلى مسكنه مغتماً.

ظلَّ الراعي على هذا الحال في الحديقة قُرابة الساعتين، تارةً يمشي، وتارةً يقف دون حراك على الأرض المُعشبة. ثم، عندما تتعب ساقاه، يجلس دون وعيٍ منه على مقاعد الحديقة ومن ثم يعود للمشي من جديد.

أما إيلانور المتوارية خلف ستائر النافذة المنسوجة من قماش الموسلين، راحت تراقبه من خلال الأشجار كلما يصبح على مرأى البصر حتى يختفي مرةً أخرى أثناء أدوار مشيه؛ وهكذا مر الوقت حتى الخامسة، حين تسلل الراعي عائداً إلى المنزل للاستعداد لتناول العشاء.

لم يكن العشاء سوى وجبةً مشحونةً بأجواء الحزن. رأت خادمة صالة الاستقبال المحتشمة، وهي تناول الصحون وتغير الأطباق، أن ما من شيء يسير على ما يرام البتة، وكانت أكثر رزانة من أي وقت مضى، إذ ما من أحدٍ تمكن من الأكل، لا الأب ولا الابنة. وسرعان ما رفعوا الطعام المقيت، ووضعوا زجاجة نبيذ البورت على الطاولة.

«هل تود أن أدعو بونس للمجيء يا أبتى؟» قالت إيلانور، معتقدةً أن صحبة الرجل العجوز قد تخفف من حزن أبيها.

«لا يا عزيزتي شكراً لك، ليس اليوم. أُن تخرجي يا إيلانور في هذا المساء العذب؟ لا تبقي من أجلي يا عزيزتي»

«إنك تبدو حزيناً جداً يا أبي»

«حزين...» ردد السيد هاردينغ متبرماً، «حسناً، على الناس جميعهم أن يحظوا بنصيبهم من الحزن في هذا العالم. وحالي من حالهم، لستُ معنى من الحزن. لكن قبليني يا عزيزتي، وامضي إلى نزهتكِ عندما تعودين سترين بأني أكثر أنساً».

نأى بإليانور عن أحزانه مرةً أخرى. لم تكن رغبتهَا في أن تراه سعيداً، بل أن يسمحَ لها بمشاطرتهِ أحزانه؛ لا لإرغامهِ على أن يكون أكثر أنساً، بل لإقناعه بأن يكون حسن الظن بنفسه.

ارتدت قلنسوتها كما تحب، وخرجتْ قاصدة ماري بولد، إذ بات هذا المقصد، مكانها اليومي الذي تتردد عليه، لأن جون بولد كان في لندن وسط المحامين ومصلحي الكنائس، يخوض عميقاً في قضايا أخرى غير قضية راعي بارچستر؛ يزود أحد أعضاء البرلمان بالمعلومات ويتناول الطعام مع عضو آخر؛ وينضم إلى جمعيات لإلغاء الموارد الكهنوتية، يُثني على الملتقى الوطني العظيم للعائلة المالكة، ويعطي قراراً مفاده أن ما من أحدٍ من رجال الدين في كنائس إنكلترا، يجب أن يحصل على مرتبٍ يتجاوز ألف جنيه في السنة، ولا أقل من مئتين وخمسين، حتى هو، إن عُدَّ واحداً منهم.

كان خطابه في هذه المسألة مقتضباً، إذ كان على خمسة عشر شخصاً أن يلقوا خطاباً، وتم استئجار المكان لمدة ساعتين فقط. وعند الانتهاء، كان على جماعة الكويكرز والسيد كوبدن أن يستغلوا المكان لمناشدة الحضور لمناصرة إمبراطور روسيا⁴⁰. غير أنه كان حاد الخطاب ومؤثراً على الأقل، كما أخبره رفيقه بذلك، الذي عاش أغلب وقته عنده حالياً، ويعتمد عليه إلى حد كبير، يُدعى توم تاورز، نابغة ذو شخصية قيادية، ومن المفترض أن يكون لديه وظيفة ذات مردود مالي مرتفع مع طاقم صحيفة المشتري.

لذا فقد ذهبت إليانور - كما اعتادت - إلى ماري بولد، وأنصت ماري إليها بكل لطف، فيما أخذت الابنة تسهب بالحديث عن والدها. ولربما الألف من ذلك، وجدت ماري في إليانور مستمعةً طيبة وهي تتحدث عن شقيقها. في الوقت نفسه، جلس الراعي وحيداً، متكئاً على ذراع كرسيه. وكان قد سكب له كأساً من النبيذ، لكنه سكب النبيذ من باب الروتين فحسب، لأنه ترك الكأس دون أن يمسهَا. وهناك، جلس يحرق في النافذة المشرعة وهو

يفكر، إن صحَّ القول بأنه كان يفكر، في نعيم حياته السابقة، تبادرت إلى ذهنه كل أشكال المباحج الماضية التي كان يستمتع بها آنذاك دون أن يفكر بها:

أيامه الهادئة، عدم وجوده في كل أنواع الأعمال الشاقة، منزله اللطيف الظليل، أولئك المسنون الاثنا عشر المجاورون له ممن كانت مساعدهتهم حتى الآن، سبباً لرعايته الطيبة. نجابة ذريته، صداقة الأسقف العجوز العزيز على قلبه، الفخامة المهيبة لتلك الممرات المقبية التي كان يطيبُ له سماع صدى صوته الرنَّان من خلالها. ثم مرَّ في خاطره صديقه الصدوق ذاك، رفيقه المُختار الذي لم يهجره يوماً، ذلك الرفيق البليغ الذي لطالما يعزف أعذب ألحان الموسيقى متى ما طُلب منه، ذلك التشيلو خاصته. أووووه، كم كان سعيداً! لكن الآن، انتهى كل شيء، أيامه الهادئة ووظيفته السهلة كانتا الجريمة التي جلبت عليه محنته. لم يعد منزله الظليل هانئاً، ولربما لم يعد ملكه. جيرانه العجائز ممن كان حريصاً على خيرهم ومصالحهم، باتوا أعداءه اللدودين. أما ابنته، فكانت ضائعة مثله وحتى الأسقف، تسبب منصبه بتعاسته.

لم يعد قادراً على رفع صوته بثقة بين رفاقه كما كان في السابق، لأنه شعر بأنه شخصٌ مُحترق. حتى أنه تهيَّبَ لمس قوس التشيلو، لأنه كان يعرف كيف سيكون أذنه موجعاً، وكيف سيُطلق أصواتٍ نحيبٍ، مثيرة للشفقة!

كان ما يزال جالساً على الكرسي نفسه والوضعية نفسها. بالكاد حرَّك طرفاً من أطرافه طوال ساعتين، حين عادت إليانور لتناول الشاي، ونجحت في إدخاله معها إلى صالة الاستقبال. كانت أمسية الشاي قابضة للصدر كوجبة العشاء، مع أن الراعي، الذي لم يأكل طوال اليوم حتى تلك اللحظة، التهم طبقاً ممتلئاً بالخبز والزبدة، غير مدركٍ لما يفعل. فقررت إليانور أن تُرغمه على التحدث إليها، لكنها بالكاد تعرف كيف تفتتح الحديث. عليها أن تنتظر حتى تختفي غلاية الماء، وحتى يتوقف الخادم عن الدخول والخروج. وأخيراً، وبعد أن انتهى كل شيء وأُغلق باب الغرفة لفترةٍ من الوقت؛ نهضت إليانور متوجهةً إلى والدها، وضعت ذراعها حول عنقه، وقالت:

«أبي؟ أَلن تُخبرني ما الأمر؟»

«أي أمرٍ يا عزيزتي؟»

«هذا الحزن المستجد الذي يقض مضجعك، أعلم أنك بائسٌ يا أبي»

«حزنٌ مستجد! إنه ليس حزنًا مستجدًا يا عزيزتي، كلنا نملك همومًا في بعض الأحيان»
وحاول أن يبتسم، لكنه فشل فشلاً ذريعاً، «لا ينبغي أن أكون رقيقاً مُملاً! تعالي، سنعزف شيئاً
من الموسيقى»

«لا يا أبي، ليس الليلة، لن يؤدي هذا إلا لإجهادك أكثر»
وجلست على ركبته كما كانت تفعل أحياناً في أكثر حالاتهم مرحاً وسعادة، ذراعها تُطوق
عنقه وأضافت:

«لن أتركك حتى تتحدث معي يا أبي، لو تعلم فقط كم سيُجدي ذلك نفعاً لو أفصحت عما
يعتمل في داخلك»

قَبَل الأب ابنته، وشدّها إلى قلبه، لكنه لم ينبس بكلمة. كان يشقّ عليه التحدث عن أحزانه.
وكان رجلاً خجولاً حتى مع بناته.

«قُلْ لي ما الخطب يا أبي؟ أعلم أن الأمر يتعلق بالمأوى وبما يجري في لندن وما صرحت
به تلك الصحيفة الظالمة. ولكن إن كان هناك مدعاة للحزن، فلنحزن سوياً. إننا نتشاطر كل
شيءٍ سوياً يا أبي العزيز، هيا تحدث معي»

لم يستطع السيد هاردينغ التحدث، لأن دموعاً حارة بدأت تنهمر على خديه كأقطار شهر
مايو، لكنه ضمّ طفلته إلى صدره، وشدّ على يدها كما يفعل العاشق. فقبلت إليانور جبهة
والدها ووجهه المبلل بالدموع، ثم وضعت رأسها على صدره، وأخذت تُطَيّب خاطره، كما
يمكن للمرأة وحدها، أن تُطَيّب خاطر.

«يا ابنتي...» نطق السيد هاردينغ ما إن سمحت له دموعه بذلك: «لم عساي أن أرضى بأن
يجد الحزن سبيلاً إليك أيضاً بلا داع؟ قد يصل بنا الأمر إلى وجوب مغادرتنا لهذا المكان،
فلم تتجمع السُحب فوق أيام شبابك؟»

«هذا كل ما في الأمر يا أبي؟ إن كان كذلك، فلنتركه، ولنعيش بقلوب خالية من الهم، عامرة
بالسعادة في مكان آخر. إن كان هذا كل ما في الأمر يا أبي فلنذهب. مادام قلبانا يفيضان
سروراً، يمكننا أن نحيا بهناء، وإن كان بالخبز وحده!»

وأشرق وجه إليانور بالحماسة وهي تُخبر والدها كيف أن بإمكانه التخلص من كل هذه
الهموم؛ حتى لاح بصيصٌ من البهجة على جبينه حين تجلت فكرة الهروب مرة أخرى من

همومه. ومن جديد، تخيل للحظة، أن بإمكانه رفض المُرتب الذي يحسده عليه العالم، وأن بوسعهِ تفنيد كذب من تجرأ بكتابة مثل هذه الترهات عنه في صحيفة المشتري، وأن بمقدوره أن يترك السّير أبراهام، ورئيس الشمامسة، وبولد، والبقية وترك القضية فيما بينهم، وأن ينفذ يديه تماماً من أي مخاوف تُثير قلقه.

يا للهناءِ التي تنتظرهما في الأفق بعيشه مع إيلانور في كوخ صغير دون أن يبقى شيءٌ من أبهة حياتهما السابقة سوى الموسيقى! نعم، سيمضيان قُدماً حاملين معهما كتبهما ونوتاتهما الموسيقية وآلاتهما، ينفضان غباراً رجليهما عند الرحيل، ويغادران هذا المكان الناكر للجميل. لم يتنفس قس فقير الصعداء، كما تنفس راعي حيرام التواق للتخلص من منصب كنسيٍّ يدرُّ بمثل هذا القدر من المال.

«اترك كل شيء يا أبي»، قفزت من على ركبتيه ووقفت على قدميها أمامه، ونظرت بكل شجاعة في وجهه: «اتركهم يا أبي»

أوووه، كان من المحزن رؤية كيف تلاشى بصيص البهجة الخاطف ذاك، كيف تبددت نظرة الأمل من ذلك الوجه المهموم عندما عادت ذكرى رئيس الشمامسة إلى ذهن راعينا المسكين، وفكر بأنه لا يستطيع أن يترك منصبه المكروه. كان أشبه برجل مصفد بالحديد، مغلول بصخرة صلبة. لم يكن موظفاً حراً بكل المقاييس؛ ولم يكن يملك خياراً آخر.

«اترك كل شيء!»، يا لها من جملة سهلة للخروج من مشاكله كلها!

«لا تتردد يا أبي» وتابعت قائلة، معتقدةً أن تردده ناجم عن عدم رغبته في التخلي عن منزل مريح وواسع: «هل ستبقى هنا من أجلي؟ هل تحسبني لن أعيش سعيدة بدون عربة يجرّها مهر وصالة استقبال باهرة الجمال؟ أبي، إني لا أستطيع أن أبقى هنا وأعيش بهناء طالما هناك من يثير الشكوك حول نزاهتك. بيداً أني أستطيع أن أحيأ سعيدة جداً في كوخ صغير جداً لو رأيتك تدخل وتخرج بقلب تغمره السعادة. أوه! أبي، إن وجهك ينبئ بالكثير مع أنك غير راغبٍ بالتحدث معي، أعرف كيف تسير الأمور معك في كل مرة أنظر فيها إليك».

شدّها إلى صدره بكل ما يملك من قوة، وأخذ يُقبّلها والدموع تنهمر من عينيه الذابلتين كأنهما المطر، ويدعو لها ويمنحها شتى الألقاب الرقيقة الحلوة التي جاد بها لسانه. كيف قرّع ذاته الحزينة وهو يملك مثل هذا الكنز في بيته، مثل هذه الجوهرة على صدره، زهرة

فوَاحة في مروج قلبه الرائعة. عندئذٍ انفكت عقدة لسانه، وأسهب في الحديث عن كل ما يشغله ويريده، وأخبرها بكل ما عجز عن فعله، بكل تفاصيل الظروف غير الرحيمة. وكرر حجج رئيس الشمامسة هذه، دون أن يقتنع بصحتها، وشرح عجزه عن الإفلات منها، وكيف أخبروه بأنه ملزمٌ بالبقاء في منصبه وأن يرعى مصالحه، وأن يشعر بالامتنان للأسقف، وتقديرًا لرغبات رفاقه والشعور بالواجب. الواجب المُكره على الاعتراف به رغم عدم قدرته على فهمه.

وأخبرها كيف اتهمه رئيس الشمامسة بالجبن مع أنه كان رجلًا يصعب عليه توجيه مثل هذه التهمة أمام العالم، وقال لها بصراحة ومن كل قلبه بأن هذا الاتهام كان موجعًا بالنسبة له. كما اعتقد بأنه من غير اللائق أن يتخلى عن منصبه لمجرد الإفلات من عذاباته الحالية، وأنه لذلك عليه بالصبر قدر المستطاع على الشقاء المُقدَّر له. هل وجدت إليانور هذه التفاصيل مملة؟ أوه، كلا. وإنما دفعته إلى الحديث بالتفصيل عن كل شعور يعتريه، حتى كشف لها عن أعمق مكنونات قلبه. فتحدثا معًا عن رئيس الشمامسة، كما يتحدث طفلان عن معلم مدرسي حازم لا يحظى بشعبية، لكنه ما يزال موضعًا للاحترام. وتحدثا عن الأسقف بوصفه والدًا طيبًا، لكنه بلا حول ولا قوة طالما المعلم المستبد موجودًا.

وبعد أن خاضا نقاشًا في كل التفاصيل، وأخبر الأب ابنته بكل شيء، لم يسع إليانور أن تكتف ما في قلبها أكثر من كتمان والدها، إذ حالما ذكرا اسم جون بولد، اعترفت لأي مدى تعلمت أن تُحبه. فقالت: «أحبيته ذات مرة...».

لكنها لم تكن لتحبه الآن، ولن تتمكن من ذلك. كلا! حتى لو أخذت على نفسها عهدًا بالزواج منه، ستُنقض العهد ثانيةً. ولو أقسمت على أن تُغرَمَ به كزوجةٍ له، سوف تحنث يمينها. ثم أنها لم تشعر بوطأة الهجران عندما كشف بأنه عدوٌّ لوالدها.

غير أن الراعي أوضح لابنته أن بولد لم يكن عدوه، وبارك حبها له وأنبها تأنيبًا ممزوجًا بالحنان وهو يُقبلها، لعزمها على هجره نهائيًا. ثم أخبرها أن هناك أيامًا سعيدة مقبلةً عليهم ما إن تنقضي محنتهم. فأخبرته أن قلبها الصغير لا ينبغي أن يتمزق إربًا إربًا من أجل إرضاء كاهنٍ أو أسقف، أو كبير الكهنة أو رئيس الشمامسة! لا، اللهم إلا إن وجهت أكسفورد نداءً

دينيًا، واتفقوا على ضرورة التضحية.⁴¹

طَيَّبَ كلا منهما خاطر الآخر. فإن لم توفر هذه الثقة المتبادلة «المواساة» في مثل هذه
«المحنة»، فمتى إذن؟! ثم افترقا بآخر تعابير الحُب الرقيقة، وذهب كلُّ منهما لغرفته وشيء
من الحبور يملأ قلوبهما.

قاد ريتشارد كوبدن (1804 - 1865)، التاجر الحر، وشريكه، الكويكري جون برايت (1811 - 1889)، في عام
1854 المعارضة الراديكالية لحرب القرم مع روسيا.
كتابة مختزلة يقصد بها ترولوب الكنيسة العليا.

الفصل الحادي عشر: إيفيغينيا، أم القوة!

عندما وضعت إليانور رأسها على وسادتها في تلك الليلة، بدأت تفكر بخطة يمكنها بواسطتها تخليص والدها من عذاباتِه. وفي عز حماسها، قررت بأن تكون التضحية بالنفس وسيلة تعتمدُها في خطتها. ألم يكن أغاممنون الطيبَ جديراً بتضحية ابنته إيفيغينيا؟⁴². قررت أن ترجو جون بولد - بنفسها - أن يكف عن المضي في إجراءات الدعوى. سوف تشرح له العذابات التي يتكبدُها والدها، الإذلال البربري الذي يتعرض له في منصبه، سوف تخبره كيف سيهلك والدها إذا جرَّروه على هذا النحو أمام الناس وعرضوه لمثل هذا الخزي الذي لا يستحقه. سوف تستحلفه بصدقتها القديمة، بكرمه ورجولته ورحمته. وإذا اقتضى الأمر، فإنها ستركع له! لكن قبل أن تقوم بهذه الخطوة، عليها أن تنفي من عقلها فكرة الحب. ينبغي ألا يكون هناك مساومة في هذه القضية.

بمقدورها أن تتوسل إليه برحمته وإحسانه. لكن كعذراء طاهرة لم تقع فريسة الغوايات حتى اليوم، ليس بوسعها أن تتوسل باسم حبه، ولا يمكنها في ظل هذه الظروف أن تسمح له بذلك، وهي تستفزه لفعل ذلك، إذ إنه سيُفصح عن هُيامه بها وهذا أمرٌ متوقع! كان هناك ما يكفي بينهما للتأكد من مثل هذه الحقيقة. ولكن كان من المؤكد بنفس القدر أن عليها رفضه. لا يجب أن يفهم طلبها على أنه: «اجعل أبي حُرّاً وأنا المكافأة!» لن تصير ذبيحةً في مثل هذا الموقف، فهي هنا ليست كابنة يفتاح الجلعاذي التي ضحّت بنفسها لتُنقذ والدها⁴³. كما لا تريد أن تُبين لوالدها العزيز الحنون، مقدار ما تحملته من أجله. لن تفعل.

عليها أن تُلزمَ نفسها بقرارٍ واحد. وبهذا العزم، شعرت أن بإمكانها أن تتقدم بطلبها الكبير إلى بولد، بقدرٍ كبير من الثقة بالنفس كما لو أنها تطلب ذلك من جده.

أعترف الآن بأنني أتوجس خيفةً على بطلي. ليس فيما يتعلق بنتيجة مهمتها - ليس على الأقل فيما يتعلق بذلك - وإنما بخصوص النجاح التام لخطتها الشجاعة، والنتيجة النهائية لهذا التوقع! إذ لا يمكن لأحد على دراية بالطبيعة البشرية وبقراءة الروايات أن يشك في نتيجة خطتها، ولكن فيما يتعلق بمقدار التعاطف الذي قد تتلقاه من بنات جنسها. فالفتيات دون العشرين والسيدات العجائز فوق الستين سوف تُنصنَح حقها! لأنه في قلب الأنثى، تنبثق نُبوع

هادئة من الحب العذب بعد سنواتٍ طوال، وتتدفقُ مرةً أخرى مع المياه، نقيّةً كما في الأيام الخوالي، فتُحيي الدروب التي تقودنا صوب مثوانا الأخير. لكنني أخشى أن أغلبية أولئك اللواتي بين هاتين الحقتين العمريّة لن يؤيدنَ قرار إيلانور. وأخشى من أقاويل نساءٍ عازبات يبلغن خمسةً وثلاثين عامًا بأنه يستحيل تنفيذ خطةٍ بهذا السخف! أن تجثو الشابات على رُكبهنَّ أمام عُشاقهنَّ، فإن حصولهنَّ على قبلة أمر أكيد، لهذا لن يضعنَّ أنفسهن في موقف مماثل لا يتوقعن عواقبه، وأن إيلانور ستذهب إلى بولد لأن الظروف تمنع بولد من القدوم إليها ليس إلا. وأنها بالتأكيد مجنونةٌ وحمقاء إلى حد ما، أو أنها محتالة بعض الشيء. غير أنها على الأرجح، تفكر في نفسها أكثر مما تفكر في والدها.

سيداتي العزيزات، أنتن محقات في تقديركن للظروف، لكن أسأتنَّ فهم شخصية الأنسة هاردينغ كثيرًا، فالآنسة هاردينغ كانت أصغر منكن بكثير، وبالتالي ليس بمقدورها أن تدرك - مثلكن ربما - المواقف المحرجة التي قد تتعرض لها بسبب هذه المواجهة. لربما تحظى بقبلة، وهذا احتمال واردٌ جدًّا، ولكنني أعطيكن وعدًّا وتأكيدًا قاطعًا، بأنها لم تخطر على بالها قط محنةٌ كهذه عندما قررت ما قررتُهُ وألمحتُ إليه! عندئذٍ نامت.

ومع انبلاج النهار، استيقظت مفعمةً بالنشاط ولاقت والدها بأرق الأعضان وأعذب الابتسامات. لم يكن وقت إفطارهم كثيرًا كما كان العشاء في الليلة الماضية. ثم تذرعت لوالدها ببعض الأعذار لمغادرته سريعًا وانطلقت للشروع بخطتها.

كانت تدري بأن جون بولد في لندن، وبالتالي فإن ما خططت له بالذات يستحيل تنفيذه اليوم. لكنها تعرف أيضًا أنه سيعود للبلدة قريبًا، لربما في اليوم التالي، وكان لا بد أن تكون هناك خطة صغيرة للقاءه عليها تنسيقها مع أخته ماري. عندما وصلت إلى المنزل، توجهت - كالمعتاد - إلى غرفة الجلوس الصباحية، وفوجئت عندما رأت عصا ومعطفًا سميكًا وطروذًا متنوعة ملقاة في أنحاء الغرفة. إذن لا بد أن بولد قد عاد!

«لقد عاد جون على نحوٍ مفاجئ» قالت ماري وهي تدخل الغرفة «كان في طريق العودة طوال الليل»

«إذن سأتي مرةً أخرى في وقت لاحق» أجابت إيلانور وهي على وشك أن تنسحب من الغرفة في خضم ارتباكها المبالغت.

فقلت ماري: «إنه على وشك الخروج، وسيظل خارج البيت على مدى الساعتين المقبلتين. إنه مع فيني المزعج. أتى فقط لرؤيته وهو عائد بقطار نقل البريد هذه الليلة»
عائد بقطار نقل البريد هذه الليلة... أخذت إليانور تفكر مع نفسها وهي تسعى جاهدةً لاستجماع شجاعتها.

سيغيبُ مجددًا هذه الليلة! إذن عليها أن تنتهز الفرصة الآن وإلا قد يفوت الأوان! وبعد أن نهضت لتذهب، جلست مرةً ثانية. وتمنت لو أن المحنة كان يمكن تأجيل يومها. كانت قد قررت قرارًا نهائيًا بأن تُنجز مهمتها، ولكنها لم تقرر فعل ذلك في هذا اليوم بالذات! وهكذا داهمها شعور بالقلق والضياح والضيق!
«ماري، يجب أن أقابل أخاك قبل عودته!»

«أوه! نعم، بالطبع. أعرف أنه سيسعد لرؤيتك» أجابت ماري، وحاولت التعامل مع الموقف كأمر طبيعي، لكنها لم تكن أقل ذهولًا، لأن ماري وإليانور تحدثتا بصورة يومية عن جون بولد وتصرفاته، وهيامه. كانت ماري تصر على مناداة إليانور بأختها، وتوبخها على عدم مناداة بولد باسمه الأول! وأن إليانور ستعترف بحبها بعض الشيء، لكنها كأبي آنسة محتشمة ستعرض على مثل هذه السلوكيات الحميمة حتى فيما يتعلق باسم عشيقها. وهكذا تحدثتا ساعةً بعد ساعة. وماري بولد، التي كانت أكبر سنًا بكثير، تتطلع باعتدادٍ مؤاتٍ إلى اليوم الذي لن تخجل فيه إليانور من مناداتها بأختها. إلا أنها كانت على يقين تام من أن إليانور ستتجنب أباها أكثر من البحث عنه في الوقت الراهن.

«ماري، لا بد أن أرى أخاك الآن، اليوم. وأن أرجوه بإسداء معروف كبير»
تكلت بنبرة رسمية غير معتادة على الإطلاق بالنسبة لها. ثم تابعت وكشفت لصديقتها خططها كلها، خططها المدروسة بكل عناية لإنقاذ والدها من الحزن الذي إن استمر - حسب قولها - سيقوده إلى قبره.

«لكن يا ماري، يجب أن تتوقفي الآن عن المزاح عني وعن السيد بولد. يجب ألا تقولي المزيد عنا. لستُ خجلةً من طلب هذا الصنيع من أخيك. وبعد أن أطلب منه ذلك، فلن يكون هناك أي شيء آخر بيننا»

قالت إليانور ما قالته بنبرة كلها وقار ومهابة، خليقةً بابنة يفتاح أو إيبيغينيا كذلك.

كان من الواضح تماماً أن ماري بولد لم تفهم الخلاف، إذ بدا طبيعياً بالنسبة لماري بأن على إليانور هاردينغ أن ترجو مشاعر بولد السامية باسم والدها.

وبدا من الطبيعي جداً أن يرقّ فؤاده لها، وأن يهزمه جمالها ودموعها النابعة من برّ الوالدين. وبالنسبة لها، كان من الطبيعي كذلك، أنه بعد أن يلين لها، ينبغي على جون أن يضع ذراعه حول خصر عشيقته، ويقول لها:

«الآن وبعد تسوية الأمور، فلنكن زوجاً وزوجة، ولتنته قصتنا بسعادة!»

لمَ قد لا تكافأ طباعه الطيبة في حين أن هذه المكافأة لن تؤذي أحداً؟! لم تستطع ماري، التي تتحدث بكلام منطقي أكثر منه عاطفي، أن تتفهم ذلك؛ وقد قالت الكثير.

غير أن إليانور كانت حازمة وتحدثت بمنطقٍ جزلٍ للغاية لدعم وجهة نظرها في هذه القضية. وقالت إنها لا تستطيع أن تتنازل عن طلب مثل هذا الصنيع بأي شروط أخرى غير تلك المقترحة. لربما تظن ماري أن إليانور ذات شخصية منمقة الأسلوب إلا أنها تحظى بأفكارها الخاصة، وأنها لا تجرؤ على المغامرة باحترام الذات والتسليم للتضحية.

«لكنني على يقين من حُبكِ له، أليس كذلك؟» قالت ماري بنبرة راجية، «ومتيقنة كذلك من أنه يحبك أكثر من أي شيء في العالم»

كانت إليانور ستُجيب بشيءٍ آخر لولا الدموع التي تجمعت في عينيها، فلم تستطع؛ لذا تظاهرت بأنها تتمخط، وسارت إلى النافذة وهي تستنجد بشجاعتها، ولما وجدت نفسها رابطة الجأش بعض الشيء، قالت باقتضاب:

«هذا هراء يا ماري»

فلحقت ماري بصديقتها إلى النافذة، وأجابت عليها وهي تحيط خصر رفيقتها بذراعيها:

«لكنك تُحبينه. وتحبينه من كل قلبك، أعلم ذلك. وأتحداك أن تنكري!»

«أنا...» ابتدأت إليانور، وهي تستدير بسرعة لتنفيذ التهمة، إلا إن الكذبة علقت في حنجرتها، فلم تتحدث قط. لم تجرؤ على إنكار حبها للسيد بولد، فأجهشت في البكاء، ودفنت وجهها في حجر رفيقتها وراحت تنسج هناك. وأكدت بأن ذلك لن يصنع فارقاً أو يُغير من قرارها، سواء أكان بالحب أم بدونه. ثم أثبت ماري ووصفتها بأنها فتاة قاسية للغاية، وجعلتها تُقسم على الكتمان بألف يمين، وانتهت بالقول بأن الفتاة التي تجرؤ على الإفشاء

بحب حياة صديقتها، حتى لو لأخيها، ستكون خوّانة، مثل جندي في ثكنة عسكرية يفتح بوابات المدينة أمام العدو!

وبينما كانت تُناقشان الأمر، عاد بولد فاضطرت إليانور إلى فعل شيء ما سريعاً، إذ كان عليها إما أن تُنجز خطتها أو أن تنسى الأمر. وبعد أن تسللت إلى غرفة نوم صديقتها في الوقت الذي أغلق السيد بولد باب القاعة، ومسحت آثار الدموع من عينيها، قررت في سريرتها، أن تمضي في عزمها.

«أخبريه أنني هنا، فليأت. وانتبهي، مهما فعلت لا تتركينا بمفردنا»

وهكذا أخبرت ماري شقيقها بملامح متجهمة إلى حد ما، بأن الأنسة هاردينغ في الغرفة المجاورة، وكانت قادمة للتحدث معه.

كانت إليانور تفكر في والدها أكثر من نفسها بالتأكيد. بدأت تسوي شعرها أمام المرأة، وأزالت آثار الحزن من على وجهها. مع ذلك قد أكون كاذباً إن قلتُ بأنها لم تكن حريصة على الظهور أمام حبيبها بمظهر حسن. وإلا فلماذا كانت تجاهد لتصفيف عقيصة الشعر العنيدة تلك التي من شأنها أن تتمرد على يدها، وفرد وشاحها المموج بشغفٍ بالغ؟ ولماذا رطبت عينيها لتبيد الاحمرار وعضت شفيتها الجميلتين لإعادة اللون إليهما؟ كانت بالطبع، تواقّة لأن تظهر بأفضل حال، لأنها بعد كل شيء، لم تكن سوى ملاك بشريّ فان، ولكن لو كانت ملاكاً خالداً، لو عادت تهفو إلى غرفة الجلوس على جناحي ملاك، لما كان لها قلب أكثر إخلاصاً، أو رغبة أكثر صدقاً لإنقاذ والدها مهما كلف الأمر.

لم يرها جون بولد منذ اليوم الذي تركته فيه غاضباً في حرم الكاتدرائية. ومنذ ذلك الحين، ووقته مكتظ في تعزيز القضية ضد والدها، ولم تذهب جهوده سدى. كان كثيراً ما يفكر فيها، ويقلب في عقله مئات الخطط ليثبت لها كم كان حبه لها خالياً من المصالح!

كان يتمنى أن يكتب إليها خطاباً يتوسلها فيه بالألّا تجعل من مسألة أداء الواجب حجةً لتغيير نظرتها عنه وجرحه. وكان يرغب بالكتابة إلى السيد هاردينغ، يشرح جميع وجهات نظره، ويشكو إليه ابنته بكل صراحة، مؤكداً أن الظروف السيئة بينهما لا ينبغي أن تكون عائقاً أمام صداقتهما القديمة، أو العلاقة الوثيقة التي تجمع بينهم.

كان سيبحثو بنفسه على ركبتيه أمام عشيقته. سينتظر ويتزوج الابنة حالما يفقد الأب بيته ومصدر رزقه؛ سيتخلى عن الدعوى القضائية ويذهب إلى أستراليا معها طبعاً، تاركاً صحيفة

المشتري والسيد فيني لاستكمال القضية فيما بينهم. وما إن يستيقظ في الصباح محمومًا ونافذ الصبر أحيانًا، يقدحُ زناد فكره وينسى كل رغباته. فهذه الأفكار لم تكن سوى نتيجة انضمامه لوجبة عشاء ثقيلة، استمتع بها مع توم تاورز.

كم بدتُ إليانور جميلة عندما دخلت الغرفة بخطيَّ وثيدة!

لم تذهب هباءً كل تلك الرغبات الصغيرة التي تمنّاها!

مع أن أختها - زوجة رئيس الشمامسة - تكلمت باستخفاف عن سحر إليانور، فقد كانت جميلة جدًا عندما تُرى كما يجب. لم تكن ملامح وجهها من تلك الملامح الباردة الشبيهة بجمال تمثال نصفيٍّ من الرخام. بل ملامح دقيقة، منحوتة، مثالية في كل تقطيع من تقاطيع وجهها، مطابقة لقواعد الجمال المتناسق، فاتنة للغريب كما للصديق، لا تتغير إلا في حالة المرض، أو عندما يؤثر تقدُّم العمر. لم تكن إليانور بارعة الجمال، ليست ذات بياض لؤلؤي، ولا ذات بشرة متألقة بلون القرنفل. لم تكن ملامحها ملوكية من النوع الذي يشد الانتباه، ويقتضي ذهولاً آنياً ثم يشعر المرء بخيبة أملٍ من جفوةٍ سحره. قد تمرُّ بإليانور هاردينغ في الشارع دون أن تُعيرها انتباهًا، لكنك بالكاد تستطيع قضاء أمسية معها ولا تُغرَم بها!

لم تبدُ إليانور يوماً أكثر جمالاً لحبيبها مما هي عليه في تلك اللحظة. كان وجهها ينبض بالحياة لكن تعابيره جادة، عيناها الداكنتان البراقتان تلتمعان بحيوية مؤثرة. كانت يدها ترتعش وهي تُصافحه، وبالكاد تمكنت من نطق اسمه. تمنى بولد من كل قلبه أن خطته الأسترالية كانت على وشك التحقق، وأنه سيرحل مع إليانور، ولن يسمع المزيد عن القضية.

بدأ بالحديث، وسأل عن صحتها، وقال شيئاً عن كون لندن مكاناً لعيناً للغاية، وأكثر عن كون بارچستر مكاناً يُبهج النفس. وقال بأن الطقس حارٌّ جداً، ثم استعلم بعد عن السيد هاردينغ.

«أبي ليس بخير» قالت إليانور.

شعر جون بولد بحزنٍ شديد، كان متأسفًا للغاية. و كان يأمل ألا يكون الأمر خطيراً. وارتسمت على وجهه تعابير وقورة مبهمة كالتي ترتسم على وجوه الناس عادةً في مثل هذه المواقف.

«أودُّ أن أتحدث إليكم عن والدي خصيصاً يا سيد بولد؛ في الواقع، أنا اليوم هنا بهدف الحديث عنه. إنَّ أبي مغتم، مغتمٌ للغاية بسبب قضية مأوى حيرام هذه! ستشفق عليه يا سيد

بولد لو علمت مدى الشقاء الذي سببته هذه القضية له!«
«أوه... آنسة هاردينغ!»

«ستشفق على حاله حقاً... أي شخص سيشفق عليه لكن كصديق قديم مثلك، ستأسفُ عليه كثيراً. إنه ليس الشخص القديم ذاته. لقد تبدد نشاطه تماماً، طباعه الحُلوة، نبرة صوته المبهج العذب. بالكاد ستعرفه لو رأيته يا سيد بولد. لقد تغير كثيراً، وإن استمر هذا الأمر، فسيموت»

وهنا التجأت إليانور إلى منديلها، وهكذا حازت على انتباه المصغين إليها، عندها استجمعت شجاعتها، وتابعت حكايتها: «سينفطر قلبه ويموت! سيد بولد، أنا على يقين بأنك لم تكن أنت من كتب تلك الفظائع في الصحيفة...»

راح جون بولد يؤكد بكل ما أوتي من صدق بأنه لم يكن من كتب تلك الفظائع، غير أن ضميره أخذ يقرعه بسبب تحالفه الوثيق مع توم تاورز.

«إنني على ثقة بأنك لم تفعل، وأبي لم يفكر بذلك ولو للحظة. إنك لن تكون بهذه القسوة. لكن مقال الصحيفة كاد أن يقضي عليه. لا يحتمل أبي فكرة أن الناس يلوكون بسيرته وأن على الجميع أن يسمعوا ما يُقال عنه. لقد وصفوه بالجشع والمخادع. ويقولون أنه يسرق الرجال المسنين، ويتلقى أموالاً من المأوى من أجل لا شيء»

«لم أقل شيئاً كهذا من قبل يا آنسة هاردينغ، إنني...»

«كلا...» تابعت إليانور مقاطعةً إياه، لأن فصاحة كلامها في تلك اللحظة، كانت في ذروتها، «إنني متأكدة من أنك لم تقل شيئاً كهذا لكن هناك من فعلوا ذلك. وإن استمر الأمر على هذا الحال، إن كُتبت مثل هذه الأشياء مرةً أخرى، فإنها ستحفر قبر أبي. أوه يا سيد بولد، ليتك ترى حالته فقط! إن والدي لا يأبه بالمال كثيراً...»

اعترف الأخ وأخته كلاهما بذلك، وأوضحا وفقاً لمعرفتهما الشخصية به، بأنه ما من رجلٍ يمقت العيش على أموال غير مشروعة أكثر من الراعي.

«إنه لطف منك أن تقولي ذلك يا ماري، وأنت كذلك يا سيد بولد. ليس بمقدوري تحمُّل أن يحكم الناس على أبي بهذا الظلم. هل تعرف أنه سترك المأوى فعلاً؟، إلا أنه لا يستطيع. يقول رئيس الشمامسة إن تخليه عن رتبته سيكون جُبناً منه وسوف يسيء إلى الكنيسة. ومهما

حدث، لن يفعل أبي شيئاً يُسيء إلى الكنيسة. إنّه يتمنى أن يترك المكان من يوم غد وعن طيب خاطر، ويهجر منزله، ورزقه وكل شيء إذا رئيس الشمامسة...» كانت إليانور ستقول «إذا سمح رئيس الشمامسة له بذلك»، لكنها أمسكت لسانها قبل أن تُعرّض كرامة والدها للذل. وأضافت قائلة: «أتمنى من كل قلبي أن يتمكن من ذلك»

«لا أحد يعرف السيد هاردينغ معرفةً شخصيةً ويفتري عليه ولو قليلاً» أوضح السيد بولد. «إنه هو من عليه أن يتحمل المعاملة السيئة، إنه هو من يتعذب، ولأجل ماذا؟ ما الذنب الذي اقترفه؟ كيف استحق هذا الإجحاف؟ هو الذي لم يفكر قطّ بنوايا دنيئة في حياته، هو الذي لم يقل كلمة جارحة بحق أحد يوماً!» وهنا انهارت إليانور، وقاطع كلامها شدة نשיجها. أخبرها بولد، للمرة الخامسة أو السادسة، أنه لا هو ولا أيّاً من أصدقائه يُحمّل السيد هاردينغ أيّ مسؤولية شخصية.

«إذن لمَ يجب أن يتعرض للظلم؟» هتفت إليانور عبر دموعها، ناسيةً - في خضم اندفاعها - أن نيتها كانت أن تتواضع أمام جون بولد كالمتوسلين، «لماذا يتعين عليه أن ينفرد بالازدراء وتلطّيح السمعة؟ لماذا يجب أن يعيش تحت رحمة العذاب؟ أوه! سيد بولد...» واستدارت نحوه كما لو أن مشهد الجثو على وشك أن يبدأ وتابعت: «أوه يا سيد بولد لماذا بدأت بكل هذا؟ أنت العزيز علينا جميعاً!»

لقول الحقيقة، إن المعاملة السيئة التي لحقت بالسيد هاردينغ كانت بسبب المصلحين بلا شك، وموقفه المحرج الحالي لا يُحسد عليه. لم يكن يملك لنفسه شيئاً سوى أن يتذرع بكلام تافه يتعلق بالواجب العام الذي لا يستحق بأي حال من الأحوال تكراره، وتكرار الثناء على شخصية السيد هاردينغ كذلك. كان موقفه قاسياً بالتأكيد، فلو زاره أيّ رجل بالنيابة عن السيد هاردينغ لكان بالطبع قد رفض الدخول معه في نقاش بهذا الموضوع؛ ولكن أنّى له أن يرفض ذلك لفتاة جميلة، لابنة الرجل الذي جرحه؟، معشوقته؟

في هذه الأثناء، استجمعت إليانور نفسها، واستعادت رباطة جأشها من جديد.

«سيد بولد، لقد جئتُ إلى هنا كي أتوسل إليك بأن تسحب هذه الدعوى...» فنهض السيد بولد من كرسيه وقد بلغ الأسى به مبلغاً.

«كي أتوسل إليك أن تتخلى عنها، وأن ترأفَ بوالدي. أن ترأفَ بحياته أو سبب وجوده، لأن أحدهما أو الآخر سيدفع الثمن إذا استمرت القضية. إنني مدركة لمقدار ما أطلبه منك،

ولمدي ضالة حقي في طلب أي شيء، لكنني أظنك ستسمعي بما أن الأمر يخص والدي يا سيد بولد. لذلك إنني أرجوك، أرجوك، افعل هذا من أجلنا. لا تترك شخصاً أحبك كثيراً، ضحيةً للحيرة»

لم تجثُ إليانور أمامه حقيقةً، لكنها تبعته بعد أن نهض من كرسيه، ولمست يديها الرقيقتين ذراعه. آه! كم ستكون تلك اللمسة ذات قيمةٍ عزيزةٍ جداً لو أنها جاءت في وقتٍ آخر! لكنه الآن كان شديد الاضطراب، معقود اللسان وواهن العزيمة. ماذا عساه أن يقول لتلك المتوسلة الحلوة؛ كيف سيشرح لها أن القضية ربما، باتت خارج سيطرته. كيف يُخبرها أنه لن يستطع قمع العاصفة التي أثارها؟

«لن تجرؤ على ردِّ طلبها يا جون، من دون شك» قالت الأخت

«سأمنحها روعي إن لزم الأمر»

«أوه يا سيد بولد...» أجابت إليانور، «لا تتكلم بهذه الطريقة. إنني لا أطلب شيئاً لنفسي وما أطلبه من أجل والدي، لن تضيرك الموافقة عليه بشيء»

«سأمنحها روعي...» أجاب السيد جون بولد الذي ما يزال يخاطب أخته. «كلُّ ما أملكه طوع أمرها، منزلي وقلبي وكل شيء، إن قبلت ذلك. كل الآمال في قلبي تحوم حولها. ابتساماتها أذفاً من أشعة الشمس بالنسبة لي. حين أراها حزينة كما هي الآن، يئن كل عضوٍ في جسدي. ما من أحدٍ يُحبها مثلي.»

فهتفت إليانور بصوت عالٍ: «لا، لا، لا، لن يكون هناك حديث عن الحب بيننا. هل ستحمي أبي من الضرر الذي ألحقته به؟»

«أوووه يا إليانور... سأقوم بأي شيء، أعطني فرصة لأعبرك عن مدى حبي»

«كلا. كلا. كلا، هذا تصرف غير رجولي منك يا سيد بولد. هل... هلاً تترك أبي وشأنه

ليموت بسلام في منزله الهادئ؟» ثم تشبثت بذراعه ويده، وتبعته عبر الغرفة باتجاه الباب.

«لن أتركك حتى تعдени. سأعلق بك في الشارع، سأجثو أمامك على مرأى من الناس كلهم،

ستعдени، عليك أن تعдени، عليك...» وتمسكت به بإصرار بالغ، وأكدت عزمها بانفعال

جنوني.

«تحدثُ إليها يا جون، أجبها» قالت ماري، مُتَحِيرَةً من السَّوْرَةِ الفجائية في سلوك إيلانور.
«ليس من شيمك القسوة معها ورفض طلب لها!»

«عدني، عدني بذلك. قُلْ إن والدي في أمان. كلمة واحدة ستفي بالغرض. أعرف مدى صدقك. قُلْ كلمة واحدة وسأدعك تذهب...»

كانت ما تزال متشبثة به، تنظر إلى وجهه بفارغ الصبر. شعرها غير مرتب وعيناها محمرتان. ففي تلك اللحظة، لم تفكر بنفسها، فلم تكثر بمظهرها. ومع ذلك ظن أنه لم يرها بنصف هذا الجمال من قبل. كان مأخوذاً بقوة جمالها، وبالكاد صدق بأنها هي المرأة التي تجرأ وأحبها.

«عدني. لن أغادر حتى تعدني»

«أعدك...» أجابها أخيراً «سأبذل قصارى جهدي»

«فليباركك الرب القدير إلى أبد الآبدين» قالت إيلانور؛ وهوت على ركبتها، دفنت وجهها في حضن ماري، وراحت تبكي وتبكي كما لو أنها طفل. لقد ساندتها قواها خلال مهمتها هذه، غير أن قواها خارت في تلك اللحظة.

وبعد لحظات، هدأت إلى حد ما، فنهضت لتغادر، وكانت لتذهب، لولا أن بولد شعر بضرورة أن يشرح لها إلى أي مدى كان في وسعه إنهاء الإجراءات التي اتخذت ضد السيد هاردينغ. وكانت ستغادر مسرعةً لو أنه تحدث في موضوع آخر! لكن بما أن الحديث منصبٌ على قضية والدها، لا بد أن تسمعه. في تلك اللحظة، بدأت عواقب خطتها تلوح في الأفق. صحيح أنها لعبت دوراً قوياً وتشبثت به كما يفعل المتوسلون، إلا أنه كان من السهل عليها أن تضرب حبه المعروف عرض الحائط، وأن تنأى بكلماته الحانية عنها. ولكن الآن -الآن بعد أن رضخ إليها، وأخذ يتحدث معها بهدوء ولطف لما فيه خير والدها، كان من الصعوبة بمكان بالنسبة لها أن تحول دون تلك المواقف. ثم أن ماري بولد ساعدتها؛ لكنها الآن تقف إلى جانب أخيها. لم تقل ماري الكثير، لكن كل كلمة قالتها كانت تُثير أعصاب إيلانور مباشرة وللغاية. أول شيء فعلته هو إفساح المجال لأخيها على الأريكة فيما بينها وبين إيلانور بما أن الأريكة كانت كبيرة وكافية لثلاثتهم. لم تجرؤ إيلانور على إظهار استيائها من ذلك، كما لم تستطع أن تُثير الشبهات باتخاذ مجلسٍ آخر، لكنها شعرت بأنه سلوك فظٌ للغاية.

ومن ثم أخذت ماري تتحدث كما لو أن ثلاثتهم قد ارتبطوا بعلاقة شبه خاصة، كما لو أنهم يعيشون آمنيات المستقبل معاً، ويرسمون خططاً مشتركة، ويعيشون معاً. وإلياً نور، ليس بوسعها مقاومة ذلك، لم تجرؤ على قول كلمة أخرى كأن تقول: «السيد بولد وأنا غرباء يا ماري، وسنبقى كذلك دائماً!»

وأوضح لها أنه على الرغم من أن الدعوى ضد المأوى انطلقت شرارتها منه حصراً، إلا أن كثيرين آخرين مهتمون بالقضية اليوم، وكان بعضهم أكثر نفوذاً منه. بيد أن المحامين كانوا يلتمسون منه تعليمات بشأن إجراءاتهم، والأهم من ذلك، بشأن تسديد فواتيرهم. ووعدها بأنه سيخطرهم على الفور بأنه ينوي التنازل عن القضية. وقال -حسبما يعتقد- إنه يستبعد أن تُتخذ أي خطوات فعالة بعد أن يتنازل عن القضية، مع احتمالية أن يطال المأوى بعض التلميحات العابرة في صحيفة المشتري اليومية.

مع ذلك، وعدها بأن يستغل نفوذه قدر الإمكان لمنع أي تلميح شخصي آخر إلى السيد هاردينغ. ومن ثم اقترح اقتراحاً، وهو أن يقصد الدكتور غرانتلي بنفسه بعد ظهر ذلك اليوم وإبلاغه بنواياه - المتغيرة - في هذا الصدد، ومن هذا المنطلق، أجّل عودته المباشرة إلى لندن.

كان الموقف برّمته يبعث على البهجة، وكانت إليانور تستمتع بشيء من النصر في الشعور بأنها قد حققت الهدف الذي سعت من أجله في هذا اللقاء، ولكن ما يزال من المقرر لعب دور إيفيغينيا. لقد سمعت الآلهة صلواتها، واستجابت دعواتها، أولم ينالوا أضحيتهم الموعودة؟ لم تكن إليانور من الفتيات اللواتي تخدعنهم عن قصد. لذلك، وقفت بحثاً عن قلنسوتها بمجرد أن تمكنت من ذلك بكل احتشام.

«هل ستغادرين بهذه السرعة؟» سأل بولد، الذي كان سيدفع مئة جنيه قبل نصف ساعة كي يعود إلى لندن، فيما إليانور باقية في بارجستر.

«أووهِ نعم... إنني ممتنة لك كثيراً. سوف يشعر أبي بهذا اللطف الغامر» لم تُقدّر إليانور مشاعر والدها حق تقدير. «ينبغي أن أخبره بالطبع، سأقول له أنك ستزور رئيس الشمامسة»

«لكن، هلاً أقول شيئاً عن نفسي؟»

«سأجلبُ لكِ قلنسوتك يا إليانور» قالت ماري، في محاولة لمغادرة الغرفة.

«ماري يا ماري...» قالت وهي تنهض ممسكةً بثيابها «لا تذهبي، سأجلب قلنسوتي بنفسى»

غير أن ماري - الخائنة - وقفت سريعاً أمام الباب، ولم تسمح بمثل هذا الانسحاب. يا لإيفيغينا المسكينة! ومن ثم، بوابل من الحب المشحون بالعاطفة، فتح جون بولد قلبه وأطلق العنان لمشا عره. وكما يفعل بعض الرجال، يحلف بقول بعض الحقائق والكثير من الأكاذيب. فيما راحت إيانور تكرر مع كل فورةٍ من فورات مشاعره «لا، لا، لا» التي كان لها تأثير كبير منذ دقائق خلت؛ لكن تأثيرها تلاشى الآن! وجردها من سورّات غضبها، فكل «لاءاتها» قوبلتُ بأيمانهِ الغليظة! وفي النهاية تغلب عليها، وسحب البساط من تحت قدميها، ومن الجهات الأربع كذلك! ألحَّ عليها للاعتراف فيما إذا كان والدها سيعترض، وفيما إذا كانت هي - شخصياً - تكرههُ! تكرههُ! كان الله في عونها! يا للفتاة المسكينة! كادت الكلمة أن تجعلها ترمي نفسها بين ذراعيه! أيّ شكلٍ من أشكال الاعترافات الأخرى التي يمكنها التنصل منها بصوتٍ عالٍ؟ وسواء كان يستحيل أن تبادله إيانور الحب، فإنها لم تجرؤ على تأكيد ذلك.

لذا أخيراً، انهارت دفاعاتها كلها، وانجرفتْ أبرز الحواجز واستسلمت، أو بالأحرى، خرجتْ حاملةً شرف الحرب، مغلوبةً كما يبدو وبصورة جلية، ولكنها ما زالت غير مضطّرةٍ إلى ضرورة الاعتراف بذلك! وهكذا لم يتضرح مذبح ميناء مدينة «أوليس» المحدثّة، بدماء التضحية!

بينما كان الجيش اليوناني يستعد للإبحار إلى طروادة خلال حرب طروادة، تسبب أغاممنون في غضب الإلهة أرتميس، لأنه قتل غزاً مقدساً. لذلك قررت إيقاف كل الرياح، ولم تكن السفن قادرة على الإبحار. أدرك العراف كالكاس المشكلة، وأخبر أغاممنون أنه لإرضاء الآلهة أرتميس، كان على أغاممنون التضحية بابنته إيفيغينا لها.

انظري سفر القضاة، الأصحاح الحادي عشر

الفصل الثاني عشر:

زيارة السيد بولد إلى أسقفية بلومستيد

سواء كانت التوقعات الصفراء التي أثارتها بعض السيدات في بداية الفصل السابق قد تحققت بحذافيرها أو لا، فإنني لستُ بصدد التوضيح. ولكن مما لا شك فيه، أن إليانور شعرت بأنها مشدوهة عندما عادت الى البيت تحمل في جعبتها تلك الأخبار إلى والدها. لقد انتصرت وحقت هدفها، كما أنها لم تكن حزينة، مع ذلك، لم تشعر بأنها منتصرة. كل شيء سيجري بسلاسة الآن. لم تكن إليانور مولعةً بأفكار ليديا الرومانسية عن الحب⁴⁴. لم تعترض، بأي حال من الأحوال، على عشيقها لأنه دخل إليها من الباب مثل جاك آبسوت، بدلاً من الهروب معها من النافذة مثل إنسون بيفرلي؛ ومع ذلك شعرت بأنها مخدوعة. حتى أنها بالكاد استطاعت التفكير بما ري بولد بمحبة أخوية وأخذت تحدث نفسها مراراً وتكراراً:

«ظننتُ أن بإمكانني الوثوق بماري. كيف تجرأت على إبقائي في الغرفة عندما هممتُ بالمغادرة!» وأياً كان الأمر، أدركت إليانور أن اللعبة قد انقلبت عليها، وأنه لم يعد لديها شيء آخر لتفعله سوى أن تضيف إلى مجموعة الأخبار التي أعدتها لوالدها، أن جون بولد بات محبوبها الغالي فعلاً.

على أي حال، سوف نتركها وشأنها، ونذهب مع جون بولد إلى أسقفية بلومستيد. على أساس أن مجرد وصول إليانور إلى منزلها، لن تجد الأمور سلسلة كما توقعت بلهفة؛ إذ وصل بريدان، أحدهما إلى والدها والآخر إلى رئيس الشمامسة، وكلاهما يعارض كثيرا أسلوبها الهادئ في مواجهة عقباتهم بأسرها. كان أحد البريدين كأنه من صحيفة المشتري اليومية، والبريد الآخر كان استشارة ثانية وصلت من السير أبراهام هابهازرد.

امتطى جون بولد حصانه وانطلق إلى أسقفية بلومستيد. لم ينطلق بهمةٍ أو بدافع التواق إلى ذلك كما ينطلق الرجال وقت يكونوا معتدين بأنفسهم وفخورين بما فعلوه؛ وإنما بخطى وثيدة متزنة، توحى بالتفكير والتوجس من اللقاء المقبل إلى حدٍ ما. كان بين الحين والآخر يعود بذكريته إلى موقفه مع إليانور الذي انتهى منه تواء، ويشد عضده بذكرى صمتها علامة الرضا،

فيتهلل سروراً مثل عاشقٍ ابتسم له الحظ. ولكن حتى هذا الشعور لم يخلُ من سحابة من الندم. ألن يظهر بمظهر المتخاذل الطفولي وهو يتنازل عن قرارات ساعاتٍ طوال من التفكير كرمي لدموع فتاةٍ جميلة؟ كيف سيقابل محاميه؟ كيف له أن يتراجع عن قضية كان له دوره البارز فيها؟! ماذا، أوه ماذا! هل كان سيحكي لتوم تاورز؟ وفيما كان يفكر ملياً في هذه التفاصيل المزعجة، وصل إلى النزل المؤدي إلى مسكن رئيس الشمامسة، ولأول مرة في حياته وجد نفسه داخل الحرم المقدس. كان أطفال الدكتور مجموعين كلهم على منحدر المرج قريباً من الطريق في حين كان بولد ينطلق متوجهاً إلى باب البيت. كانوا كما يبدو مجتمعين هناك يُجرون مناقشات حامية حول قضايا ذات أهمية بالغة كما يبدو في أسقفية بلومستيد، إذ علت ثم أصوات الأولاد قبل إغلاق بوابة المسكن.

هربت كلا من فلوريندا وغريزيل عند أول ظهور للفارس، مرعوبتين من رؤية عدو العائلة المعروف، وركضتا مذعورتين إلى أحضان أمهما. فليس من طباعهما - وهما الغصن الغض - أن يضمرا حيفاً أو يتدرعان مثل المحاربين ضد أعداء الكنيسة. لكن الصبيان تسمروا في أماكنهم مثل الأبطال، وأخذوا يتساءلون عما يفعله هذا الدخيل بكل وقاحة.

«هل جئت لرؤية شخص هنا يا سيدي؟» قال هنري بنظرةٍ تقدر جرأة ونبرةٍ عدائية كأنه يقول فيها بصوت واضح، بأن ما من أحدٍ هناك يرغب في رؤية هذا الغريب على هذا النحو؛ وفيما كان يتكلم، أخذ يُلوح بمرشّة الحديد عالية، حاملاً إياه من الفوهة، مستعداً لت هشيم رأس أي أحد.

«هنري...» نادى تشارلز جيمس بهدوء، وبشيءٍ من الاحترام، «لم يكن السيد بولد ليأتي إلى هنا طبعاً دون نيةٍ في رؤية شخص ما، وإذا كان لدى السيد بولد سببٌ مناسبٌ لنيتهِ برؤية شخص ما هنا، فبالطبع لديه الحق في المجيء»
إلا أن صموئيل تقدم بلطف إلى رأس الجواد عارضاً خدماته.

«أوه يا سيد بولد، إنني على ثقة من أن أبي سيسعد برؤيتك، أظنك جئت تبغي رؤية أبي، هل أربط جوادك من أجلك؟ يا له من جوادٍ رائع!» ثم أدار رأسه وغمز بعينه لإخوته على نحوٍ غريب. «سمع أبي أخباراً رائعة تخص ماوى العجزة اليوم، ونحن متأكدون بأنك ستسُر لسماع ذلك لأنك صديق للجد هاردينغ، ولأنك تحب الخالة نيلي»

«كيف حالكم يا صبية؟» قال بولد وهو يترجل من على حصانه، «أرغب برؤية والدكم إن كان موجوداً»

«صبية!...» قال هنري وهو يستدير متوجهاً لإخوته بصوت عالٍ بما فيه الكفاية لسمعه بولد.

«صبية! حقاً! إذا كنا صبية، ماذا يسمي نفسه؟»

ترفع تشارلز جيمس عن قول أي شيءٍ آخر، رفع قبعته بدقةٍ بالغة وترك الزائر في رعاية أخيه الأصغر. بقي صموئيل حتى جاء الخادم، وهو يُحادث الجواد ويربت على ظهره. وما إن دلف بولد من خلال الباب الأمامي واختفى، حتى علّق مفتاحاً أسفل ذيل الحيوان كي يجعله يرفس قدر الإمكان.

وسرعان ما وجد المصلح نفسه وجهاً لوجه مع رئيس الشمامسة في نفس الغرفة، في ذلك الحرم المقدس في مسكن القسيس، الذي تعرفنا عليه من قبل. عند دخوله سمع قطعة واضحة لقفل معين، ولكن ذلك لم يدهشه؛ لا شك أن القس المحترم كان يُخبي عذاته الأخيرة التي درسها دراسةً مستفيضة من نظرات الكافرين. فرئيس الشمامسة كان مشهوراً بمواعظه مع أنه قلما يُلقي واحدة. اعتقد بولد، أن ما من مكان لائقٍ بعينٍ من أعيان الكنيسة أكثر من هذا المكان؛ إذ كانت الجدران كلها مثقلة بمكتبات تضم كتباً في علم اللاهوت. مخطوطاً بأحرف صغيرة من الذهب فوق كل خزانة كتبٍ منفصلة أسماء أولئك المقدسين العظام ممن امتدت أعمالهم حتى آخر المكتبة، بدءاً من الآباء الأوائل بالترتيب الزمني الواجب. وكذلك الأعمال الثمينة لخدام الكنيسة الأخيار وحتى آخر كتيبٍ نُشر اعتراضاً على سيامة الدكتور هامبدن ⁴⁵.

وفي أعلى خزانة الكتب المشار إليها، يمكن رؤية تماثيل نصفية لأعظم العظماء أمثال: كريستوم، القديس أوغسطين، توماس بيكيت، الكاردينال وولسي، رئيس الأساقفة لود، والدكتور فيلبوتس.

كان هناك أجهزة من كل صنف ولون، من شأنها أن تجعل من أمر الدراسة شيئاً ممتعاً وتبعث السكينة في كل ذهن مرهق. ثمة كراسٍ مصنوعة لراحة كل جزء من أجزاء الجسد، مكاتبٌ للقراءة وأخرى للكتابة مناسبة لأي وضعية؛ المصابيح والشموع مصممة ميكانيكياً

لإلقاء الضوء على أي بقعة قد يرغب الطالب بها؛ صحفٌ متنوعة للترفيه عن لحظات الفراغ القليلة التي قد تُسرق من أعمال النهار. ثم النافذة التي تطل على منظر مُشجر يمتد على طول مسار أخضر شاسع من بيت القسيس إلى الكنيسة. وفي نهايته شوهد البرج القديم ذو اللون البني الفاتح بكل قممه متعددة الألوان وأسواره.

ثمة عدد محدود من الكنائس الرعوية في إنكلترا في حالة أفضل أو تستحق الترميم أكثر من أسقفية بلومستيد؛ ومع ذلك فهي مبنية بأسلوب خاطئ، فهيكلك الكنيسة منخفض، بل منخفضٌ للغاية، بحيث يمكن رؤية السقف شبه المسطح المبني من الرصاص من مقبرة الكنيسة، لولا السور المنقوش المحيط بالمقبرة. له شكلٌ صليبيّ، مع أن أجنحة الكنيسة المُصالبة غير نظامية، إذ أن واحدة أكبر من الأخرى، والبرج مرتفع جداً بالنسبة للكنيسة. غير أنّ لون البناية مثاليّ، هو ذلك الرمادي الممزوج بالأصفر الغني الذي لا يراه المرء في أي مكان باستثناء جنوب وغرب إنكلترا، ويُعد سمة مميزة من سمات معظم منازلنا العتيقة المبنية على الطراز التيودوريّ. المبنى الحجري جميلٌ أيضاً، قضبان النوافذ بزخارفها التشجيرية ذات الأسلوب القوطي الذي يعكس براعة الحرفة وإتقانها، على قدرٍ من الأناقة يفوق الخيال. ومع أنّ النظر إلى مثل هذا الهيكل يوحي للمرء بحكم القاعدة بأن القساوسة القدامى الذين بنوه، قد أخطأوا في بنائه، لكن لا يسع المرء إلا أن يتمنى بقاء شكله كما هو عليه الآن!

عندما أدخل بولد إلى المكتبة، وجد مالكها واقفاً مولياً ظهره إلى النار الخامدة ومستعداً لاستقباله. لم يستطع بولد إلا أن يلاحظ بأن ذلك الجبين المستوي كان مزهواً بالنصر، وأن تلك الشفتين الممتلئتين كانتا تعكسان بشكلٍ بارزٍ أكثر من المعتاد، مظهر الفوز الممزوج بالغرسة.

«حسناً يا سيد بولد، حسناً. بماذا أخدمك؟ أنّي بغاية السعادة، وعلى استعداد لفعل ما تطلبه، أوكد لك ذلك»

«أرجو أن تعذرني على زيارتي هذه يا دكتور غرانتلي»

أجاب رئيس الشمامسة: «نعم نعم، ما من داعٍ لاعتذارك يا سيد بولد؛ فقط أود أن أعرف سبب زيارتك!»

كان الدكتور غرانتلي واقفاً، لم يطلب من بولد الجلوس، وبالتالي كان عليه أن يحكي ما عنده وقوفاً وهو يتكئ إلى الطاولة وقبعته في يده. لكنه استطاع أن يحكي... وبما أن رئيس

الشماسة لم يقاطع حديثه ولو لمرة واحدة، أو حتى يردّ بكلمة واحدة، فإن بولد لم يستغرق وقتاً طويلاً كي يُنهي حديثه.

«أنا أتفهمك يا سيد بولد، أراك تواقاً إلى التوقف عن هذا الهجوم على السيد هاردينغ!»

«أوه، يا دكتور غرانتلي، ليس هناك من هجوم، أوكد لك ذلك...»

«حسناً، حسناً، لن نتشاجر بشأن الكلمات؛ أنا أود أن أسميه هجوماً، أما الباقي الناس سوف يدعونه محاولة لانتزاع كل شلن من الرزق الذي يعيش منه هذا الرجل؛ لكنه ليس هجوماً إن لم يرقُ لك ذلك. تريدُ التنازل عن هذه الدعوى؟ لعبة النرد اللثيمة التي بدأت بلعبها؟!»

«أعترم وضع حدٍ للإجراءات القانونية التي اتخذتها»

أجابه رئيس الشماسة قائلاً: «أتفهمُ ذلك، لقد طفح كيلك من القضية بالفعل. طيب، لا يمكنني القول بأنني متفاجئ، فالاستمرار في دعوى خاسرة حيث لا يملك المرء شيئاً ليكسبه، بل أن كل خطوة فيها مكلفة، شيءٌ فظيع!»

احمر وجه بولد من الغضب وقال: «لقد أسأت فهم دوافعي، لكن على أية حال، لن يشكل ذلك فارقاً كبيراً، لم آت لأزعجك بدوافعي، بل لأخبرك بالحقيقة. طاب صباحك دكتور غرانتلي»

«لحظة واحدة... لحظة واحدة، لا أدرك بالضبط الرغبة التي دفعتك للقيام بأي زيارة شخصية لي بشأن هذا الموضوع؛ لكنني أجرؤ على القول بأنني كنتُ مخطئاً، أجرؤ على القول أن قرارك هو الأصوب؛ ولكن بما أنك منحتني شرف زيارتك وأرغمتني، على قدرٍ من النقاش بشأن موضوع لربما كان من الأفضل أن نتركه لمحاميننا، ستعذرني إن طلبتُ منكم الاستماع إلى ردي على كلامك»

«لستُ مستعجلاً يا دكتور غرانتلي»

«لكنني مستعجل يا سيد بولد، فوقتي ليس للتسلية، وعليه، دعنا ندخل في صلب الموضوع مباشرةً من فضلك، تريد أن تتنازل عن هذه القضية؟» وصمت مؤقتاً بانتظار الرد.

«بلى سيد غرانتلي»

«بعد أن جعلت رجلاً كان من أعز أصدقاء والدك، عُرضةً لكل ذلك الهوان والإهانة التي ألحقتها الصحافة به، وبعد أن أعلنت متباهياً إلى حد ما، أن واجبك كرجل يرى نفسه مثلاً في الأخلاق السامية هو أن تحمي أولئك المسنين الحمقى الفقراء ممن أضللتهم هناك في المأوى بكلامك الفارغ، اكتشفت الآن أن ثمن اللعبة غالياً جداً وهكذا اتخذت قرارك بالاكتفاء منها؟ قرارٌ سديد يا سيد بولد، لكن من المؤسف أنه كان يجب أن تقرر ذلك منذ زمن طويل! هل يدهشك الأمر لو أخبرتك بأننا قد لا نختار الاستسلام الآن؟ وأنه لعلنا نرى ضرورة لعقابك بسبب الأضرار التي سببتها لنا؟ هل أنت مدرك يا سيدي، أننا تكبدنا نفقات هائلة لمواجهة هذه القضية الباغية التي هي من صنع يديك؟»

احتقنت الدماء في عروق بولد من شدة الغضب، وكاد أن يسحق قبعته بين يديه إلا أنه لم ينبس ببنت شفة.

«لقد أرتأينا أنه من الضروري أن نستعين بأفضل استشارة يمكن أن نتحصل عليها بالمال. هل أنت على علم يا سيدي بالتكلفة المحتملة للحصول على خدمات المحامي العام؟»
«أبدًا دكتور غرانتلي...»

«ولن أحسبك تعرف يا سيدي، فعندما وضعت هذه القضية - باستهتار - بين يدي صديقك السيد فيني، الذي قد لا تتجاوز أجوره ستة شلنات وثمانية بنسات أو ثلاثة عشر شلن وأربعة بنسات كأقصى حد، كنت غير مبالٍ بالتكلفة والمعاناة التي قد تترتب على مثل هذه الإجراءات بالنسبة للآخرين، لكن هل أنت مدرك يا سيدي، أن هذه التكاليف الباهظة عليك تسديدها الآن من جييبك الخاص؟»

«لا جرم بأن أي طلبات من هذا القبيل قد يضطر محامي السيد هاردينغ بتقديمها إلى محامي الخاص»

«محامي السيد هاردينغ ومحامي الخاص! هل أتيت إلى هنا لكي تُحيلني إلى المحامين بكل بساطة؟ أعتقد أن شرف زيارتك قد ضاع هباءً، والآن، سيدي، اسمع رأيي: لن نسمح لك بسحب هذه القضية من المحاكم!»

«بإمكانك فعل ما يحلو لك يا دكتور غرانتلي، عمت صباحًا»

«اسمعني يا سيدي، بين يدي هنا آخر مشورةٍ أبدتها السير أبراهام هابهازر د في هذه القضية. أراهن على القول إنك سمعت بأمرها سلفاً، وأن لزيارتك هذه علاقة بالمشورة»

«لا أعرف شيئاً عن السير أبراهام هابهازرد ولا عن مشورته»

«ليكن ذلك، ها هو يؤكد صراحةً أنه ليس لديك حجج تستند عليها بأيّ جانب من جوانب القضية؛ وأن السيد هاردينغ آمن في مأواه كما أنا هنا في مسكن القسيس، وأنه لم تحدث محاولةً فاشلةً لتدمير إنسان كما حاولتكَ لتدمير السيد هاردينغ. هذا...» وألقى بالورقة على الطاولة، «أملك هذه المشورة من المحامي الأول على الإطلاق في البلاد بأسرها؛ وفي ظل هذه الظروف تتوقع مني أن أنحني لك انحناءة احترام لعرضك السخيّ بإطلاق سراح السيد هاردينغ من شراك شباكك! كلا ياسيدي، فشبكة ليست قوية بما يكفي للإمساك به وقد انهارت وأنت تعرف ذلك جيداً قبل أن أخبرك... والآن يا سيدي أتمنى لك صباحاً جميلاً، لأنني مشغول!»

أخذ بولد يتمييز غضباً، لأنه سمح لرئيس الشمامسة أن يتحدث طويلاً ويدور حول الموضوع، لقد اختلطت عليه الكلمات المناسبة فلم يقاطع حديثه، ولكنه الآن بعد أن تعرض لتحذٍ وإهانة شديدين، لم يستطع مغادرة الغرفة دون رد. فاستطرد قائلاً: «دكتور غرانتلي...» فأجابه رئيس الشمامسة: «لم يعد لدي ما أقوله أو أسمع، يسعدني أن أجعلهم يجهزون جوادك» ومن ثم قرع الجرس.

«لقد جئتُ لزيارتك بأصدق وأطيب المشاعر يا دكتور غرانتلي...»

«أوووه بالطبع، ما من أحدٍ يشك في ذلك»

«بأطيب المشاعر، بعد أن تشبعتُ بالغضب منك بسبب معاملتك»

«إنك كذلك لا محالة، لم أؤثر أن أرى حياة والد زوجتي محطمة، يا للغضب العارم الذي يسيطر على مشاعرك!»

«سيحين الوقت الذي تفهم فيه سبب زيارتي لك اليوم يا دكتور غرانتلي!»

«لا شك من ذلك، لا شك. هل جواد السيد بولد جاهز؟ حسناً. افتحوا الباب الأمامي،

طاب نهارك سيد بولد!»

وهكذا، دخل الدكتور غرانتلي صالة الاستقبال خاصته وهو يمشي متشامخاً، ثم أغلق الباب خلفه تاركاً السيد بولد بموقفٍ يستحيل معه أن ينبس بحرفٍ آخر. وعندما امتطى جواده، خامره شعورٌ بأنه كلب طُرد من المطبخ. فاستقبله صابي الصغير مجدداً.

«وداعاً سيد بولد، آمل أن نحظى بشرف رؤيتك مجدداً قبل أن يمضي وقت طويل، أنا متأكد أن أبي سيكون مسروراً لرؤيتك»

في الحقيقة، كانت تلك اللحظات أشدها مرارةً في حياة جون بولد. ما من شيء بوسعه أن يُطِيبَ خاطره ولا حتى تذكُّره لحبه المتوجَّح بالنجاح! كلا، فعندما خطرت إليانور على باله، أدرك بأن حُبها هو ما جعله يعيش هذا الموقف ويتعرض للإهانة، وأن يكون عاجزاً عن الرد! كان ينبغي أن يتخلى عن الكثير من أجل الظفر بحُب فتاة، ومن ثم يُساء فهم دوافعه، وارتكب خطأً فادحاً عندما قرر القيام بمثل هذه الزيارة لرئيس الشمامسة! فعصَّ على الجزء العلوي من سوطه حتى اخترق قرن الحيوان الذي صنَّع منه، وفي عز غضبه أخذ يضرب بالسوط الحيوان المسكين، بعد ذلك، غمره شعور

بغضبٍ متعاضم من نفسه على انفعاله الذي لا طائل منه. لقد هُزِمَ هزيمةً نكراء وشلَّتْ قدراته تماماً! وماذا عساه أن يفعل؟! لم يكن بوسعه مواصلة إجراءاته بعد أن وعد إليانور بالتنازل عن القضية؛ كما لن ينفعه الانتقام بهذه الطريقة أبداً، إذ كانت هذه الخطوة بالذات، التي سعى الدكتور غرانتلي من خلالها إلى تحريضه على الانتقام!

ألقي اللجام للخادم الذي جاء لأخذ حصانه، وانطلق إلى الطابق العلوي إلى غرفة جلوسه، حيث كانت أخته ماري جالسة.

«إن كان هناك شيطان، شيطانٌ حقيقيٌّ هنا على وجه الأرض، فهو الدكتور غرانتلي». قال، ولم يطلعها على المزيد. غير أنه أمسك قبعته من جديد، هرع خارجاً، وغادر إلى لندن دون أن يُخبر أحداً.

ليديا شخصية خيالية في مسرحية كوميدية تحمل عنوان «المتنافسون» من تأليف ريتشارد برينسلي شيريدان نشرت عام 1775، وليديا هذه معروفة بكونها قارئة نهمة ومتأثرة بالروايات الرومانسية، لذلك فهي تريد الحب بأكثر العبارات رومانسية وبمشاهد عاطفية مثل تلك الموجودة في رواياتها. فهي تُفضل رومانسية الهروب مع إنسون بيفرلي على الزواج من كابتن جاك أبلوت ثم تكتشف فيما بعد أن إنسون بيفرلي هو نفسه جاك أبلوت

تم ترشيح رين ديكسون هامبدن (1793 - 1868)، أستاذاً للكروني الملكي في اللاهوت في جامعة أكسفورد، وعالم لاهوت ليبرالي، وأسقفاً لأبرشية هيريفورد من قبل اللورد جون راسل في عام 1847، وهو عمل أغضب جماعة الكنيسة العليا

الفصل الثالث عشر: قرار الراعي

لم يكن اللقاء بين إيلانور ووالدها عاصفًا كما حدث في لقاءات الفصل السابق، لكنه لم يكن مثمرًا كذلك. عند عودتها من منزل بولد، ألفت والدها في حالة غريبة. لم يكن حزينًا وصامتًا كما كان في ذلك اليوم الذي لا يُنسى، حين وبخه صهره توبيخًا قاسيًا وذكره بكل ما يدين به لمنصبه؛ كما أنه لم يكن في مزاجه الهادئ المألوف. وعندما دخلت إيلانور المأوى، رآته يمشي ذهابًا وإيابًا على العشب، وسرعان ما لاحظت بأنه كان في غاية الانفعال.

فقال والدها حالما وقع نظره عليها: «إني ذاهبٌ إلى لندن يا عزيزتي»

«لندن يا أبتاه؟!»

«أجل يا عزيزتي لندن، سأسوي هذه المسألة بطريقة ما، ثمة أمور لا طاقة لي على احتمالها

يا إيلانور»

«أووهِ! ما الخطب يا أبتى؟!» قالت وهي تقوِّده من ذراعِهِ إلى البيت، «أحملُ لك أخبارًا

رائعة، والآن إنك تجعلني أخشى فوات الأوان!»

عندئذٍ وقبل أن يتمكن من إخبارها بمدعاة هذا القرار المفاجئ، أو الإشارة إلى الصحيفة القاضية الملقاة على الطاولة، أخبرته أن القضية انتهت، وأن بولد كلفها بطمأنة والدها بأنه سيتنازل عنها، وأنه ما من سببٍ آخر يدعو للعذاب، فالمسألة برمتها قد يُنظر إليها كما لو أنها لم تُطرح قط، دون أن تخبره بمدى عزمها الثابتة القاطعة، كما أنها لم تذكر الثمن الذي كان عليها أن تدفعه لأجل ذلك.

لم يُبدِ الراعي سرورًا لسماعه أخبار كهذه على وجه الخصوص، مع أن إيلانور لم تفعل ذلك حتى تتلقى عبارات المديح والامتنان، ولم يكن في نيتها بأي حال، المغالاة في الحديث عن مساعيها الطيبة، إلا أن الطريقة التي تلقى بها السيد هاردينغ أخبار ابنته، جرحته.

«يمكن للسيد بولد أن يتصرف بما يراه مناسبًا يا حبيبتي، وإن كان السيد بولد مخطئًا،

بالطبع سيضع حدًا لما يفعله، لكن هذا لن يُغيّر من موقعي»

«أووهِ يا أبي!» صاحت متبرمةً، «حسبتك ستفرح للغاية، وأن كل شيء سيكون على ما يرام

الآن»

«لقد وظف السيد بولد أناساً أكفاء للعمل، أكفاء لدرجة أنني أشك أنهم الآن خارج نطاق توجيهاته. اقرئي هذا يا عزيزتي»

وفردَ عددًا من صحيفة المشتري، مشيرًا إلى المقال الخاص الذي كان بصدد قراءته إذ جاء بعد ثلاثة مقالات رئيسة يتم نشرها بشكلٍ يوميٍّ لدعم البلاد عمومًا. وجّه المقال انتقادات شديدة اللهجة، لمختلف رجال الدين الجانحين وللعائلات التي تتلقى عشرات الآلاف سنويًا دون أن يُنجزوا عملاً وللرجال الذين - كما ذكر المقال - يتقلبون في الشراء والنعيم الذي لم يكسبوه بعرق جبينهم ولم يرثوه، وإنما سلبوه من رجال الدين الأشد فقرًا في حقيقة الأمر. ودُكِرَ بالاسم، أسماء بعض أبناء الأُسَاقِفة وأحفاد المطارنة، رجال ربيعو المستوى، ممن تجاوز عارهم الحدود بفداحة سرقاتهم في نظر الكثيرين؛ وبعد أن انتهوا من هؤلاء الوحوش، وصلوا إلى السيد هاردينغ.

«لقد ألمحنا قبل بضعة أسابيع إلى حالة مماثلة من الحيف، لكن ذات أهمية ثانوية.

أصبح راعي مأوى في بارچستر يمتلك دخل الجزء الأكبر من المؤسسة الخيرية بأكملها. لا يمكننا ادعاء معرفة سبب وجود راعٍ في مأوى للعجزة، ولا يسعنا التوضيح ما هي حاجة المسنين الماسة لقسٍّ مستقلٍّ مع أن كلَّ عجوزٍ منهم له مسكن خاص به في كاتدرائية بارچستر.

وأياً كان الأمر، فليطلق السيد على نفسه لقب «راعي» أو «مرشد جوقة المرتلين» أو ما يشاء من الألقاب. ليكن صارمًا على رعاياه في تنفيذ الواجبات الدينية تنفيذًا دقيقًا وألا يُهمل أبداً قداديس الكاتدرائية، مع كل ذلك، يبدو الأمر واضحًا وضوح الشمس أنه لا يحق له الحصول على أي جزء من إيرادات المأوى، باستثناء ما خصصه المؤسس له؛ ومن الواضح بنفس القدر أن المؤسس لم يقصد أن يتم الاستحواذ على ثلاث أخماس مؤسساته الخيرية. مما لا جرم فيه، أن هذه القضية تعد قضيةً تافهة مقارنةً بآلاف القضايا التي تعاملت معها الصحيفة، لأنه في النهاية لا تتجاوز أجور الراعي سوى ثمانمئة جنيهه بئس في السنة، وثمانمئة جنيهه سنويًا ليست ترفيعًا جيدًا في حد ذاته، فلعل الراعي شخصية ذو قيمة بالنسبة للكنيسة - على حد علمنا - ولكن، إن كان الأمر كذلك، فلتدفع الكنيسة له من الأموال التي لها حق التصرف بها حقًا.

لقد ألمحنا إلى قضية مأوى بارچستر في الوقت الراهن، لأن أخباراً وردتنا بأن هناك دعوى قضائية مرفوعة من شأنها إثارة غضب رجال الدين الإنكليز.

إذ أُتخذ إجراء ضد السيد هاردينغ «راعي المأوى»، نيابة عن النزلاء، من قِبَل رجل نبيل تبنى القضية وحده لأسباب تتعلق بالمصلحة العامة. يُقال بأن السيد هاردينغ لا يأخذ سوى ما يتلقاه مقابل عمله كموظف في المأوى، وأنه - هو نفسه - غير مسؤول عن مبلغ الراتب الذي مُنحَ له لقاء عمله. لا جرمَ أن الدعوى القضائية ستكون خطوة منصفة فيما لو ارتاب أحد بالأجور اليومية للبنائين العاملين في البناء أو أجر الخادمة التي تقوم بتنظيفه. غير أننا لا نحسد شعور رجل دين من كنيسة إنكلترا، يسمح بأن يتم تلقيه بمثل هذه المرافعات. إذا تم تقديم هذه الدعوى فإننا نأمل بأن السيد هاردينغ سيضطر كشاهد لتوضيح طبيعة عمله؛ مقدار العمل الذي يقوم به؛ الدخل الذي يتلقاه، والمصدر الذي حصل منه على وظيفته. ولا نعتقد أنه سوف يحظى بتعاطف شعبي كبير للتعويض عن المضايقات الناجمة عن النظر في هذه القضية»

احمرَّ وجهُ إيانور من الغضب وهي تقرأ المقال، وعندما أنهته، خشيتُ أن تنظر إلى والدها.
«حسناً عزيزتي، ما رأيك في ذلك؟!... هل يستحق الأمر أن يكون المرء راعي مأوى بهذا الثمن؟»

«أوه أبي، أبي العزيز»

«لن يتسنى للسيد بولد أن يحيط علماً بكل ما كُتِبَ هنا يا عزيزتي، وليس بمقدوره أن يجزم القول بأن هذا المقال لن يقرأه كل رجل دين في أوكسفورد، أو بالأحرى، كل من في هذه البلاد»

وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، فيما تبعتهُ عينا إيانور بيأس وصمت.
وتابع قائلاً: «سأخبرك شيئاً يا عزيزتي...» متحدثاً الآن بكل هدوء، وبأسلوب متكلف، على خلاف طباعه: «لا يستطيع السيد بولد أن يعترض على حقيقة كل كلمة في ذلك المقال الذي قرأته للتو... ولا أنا» أخذت إيانور تحمق في وجهه، كما لو أنها بالكاد تفهم الكلمات التي كان يتفوه بها.

«ولا أستطيع أنا يا إيانور: وهذا أسوأ ما في الأمر، أو سيكون الأسوأ إذا لم نجد طريقة لإصلاح ذلك. لقد فكرتُ كثيراً في كل هذا منذ حديثنا المليء بالماضية» وجاء وجلس

بجانبتها، ووضع ذراعه حول خصرها كما فعل حينها... «لقد فكرت كثيراً فيما قاله رئيس الشمامسة، وما تقوله هذه الصحيفة؛ وأعتقد أنه ليس من حقي الوجود هنا»
«ليس من حقك أن تكون راعي المأوى يا أبتى؟!»

«ليس من حقي أن أكون راعي المأوى بمرتب يبلغ ثمانمئة جنيه سنوياً، ليس من حقي أن أكون راعي مأوى يسكن في مثل هذا المنزل. ولا يحق لي أن أنفق برفاهية أموالاً مخصصةً للمؤسسة الخيرية. بإمكان السيد بولد أن يفعل ما يحلو له بشأن الإجراءات لكن آمل ألا يتنازل عن القضية لأجل خاطري»

يا لإليانور المسكينة! كان وقع ذلك صعباً عليها، فمن أجل هذه اللحظة عقدت عزمًا كبيراً، لأجل والدها وضعت جانباً سلوكياتها الهادئة، وتبنت دور بطلة قصة تراجيدية تلوي شذقيها تفاصحاً! بإمكان المرء أن يُسدي معروفًا دون أن ينتظر كلمة «شكراً»، مع إن ذلك قد يجرح شعوره. هكذا كان الحال مع إليانور. قد لا يكثر الآخرون بأعمال المرء الحسنة ومع ذلك، قد يشعر المرء بالاستياء لعدم تقديرها. قد يُعطي الإنسان صدقةً بيساره خفيةً بحيث لا تدري بها يمينه، ومع ذلك قد تأسف اليد اليسرى على الشعور بأنه ما من أحد أثابها خيراً مباشرةً. لم يكن في نية إليانور تحميل والدها عبء الامتنان، ومع ذلك كانت تتحرق شوقاً إلى نصيبها من البهجة من معرفة أنها انتشلت من أحزانه. والآن، تبددت هذه الآمال تماماً، ذهب هباءً كل ما فعلته؛ كانت قد حطت من قدر ذاتها لجون بولد عبثاً. وهكذا، بلغ الجرح حدًا يفوق قدرتها على مداواته! وراحت تفكر أيضاً كيف ستقول لوالدها كل ما قاله لها حبيبها عن نفسها رويداً رويداً، وكيف عجزت أن توضع حدًا لاعتراقاته! وأنها توقعت قبلة رقيقةً من والدها وعناقاً أبويًا وهو يبارك لها هذا الحب. واحسرتاه! ليس لها أن تقول شيئاً في تلك اللحظة.

وبالحديث عن السيد بولد، لقد نجاه والدها جانباً كما لو أنه شخص لا يمكن أن تكون أفكاره ولا أقواله ولا أفعاله ذات أهمية تُذكر! أيها القراء المحترمون، هل شعرت يوماً بأنكم مُحترقون؟ هل سبق لكم، وأنتم تمعنون التفكير بشأن ذواتكم، أن وجدتم أنفسكم تتقزمون فجأةً إلى أشخاص تافهين لا وجود لكم؟ هكذا كان شعور إليانور في تلك اللحظة.

أضاف الراعي قائلاً: «لا يجوز لهم أن يتقدموا بهذا الإقرار نيابةً عني مهما كانت حقيقة القضية، هذا إجراء غير صحيح على أية حال. الرجل الذي كتب ذلك المقال، محقٌ بقوله إن

ذلك الإجراء سيكون مثيراً لغضب ذوي النفوس الصادقة. سأسافر إلى لندن يا عزيزتي، وأقابل هؤلاء المحامين بنفسى، وإن لم أجد حلاً، سأترك المأوى»

«ورئيس الشمامسة يا أباي؟!»

«ليس باليد حيلة يا ابنتي، ثمة أمور تفوق طاقة المرء على الاحتمال، وأذا لم يعد بوسعي...» ووضع يده على الصحيفة.

«ولكن، هل سيسافر رئيس الشمامسة معك؟»

في الحقيقة، كان السيد هاردينغ قد أزمع أمره على أن يستبق رئيس الشمامسة. إذ كان يدري بأنه لا يستطيع اتخاذ أي خطوات دون إبلاغ صهره المستبد. لكنه قرر إرسال خطاب إلى أسقفية بلومستيد يضم تفاصيل هذا القرار، شريطة ألا يغادر حامل الخطاب بارچستر حتى يبدأ السيد هاردينغ رحلته إلى لندن؛ بحيث يسبق الدكتور غرانتلي إلى لندن قبل يوم واحد، لأنه لم يخامر شك بأن صهره سيلحق به. ولعله في ذلك اليوم - إذا حالفه الحظ - يُنهي كل شيء: أن يوضح للسير أبراهام أنه - وبصفته الراعي - لا علاقة له بالتبريرات التي ستُقدم قريباً؛ ومن ثم يرسل استقالته الرسمية إلى صديقه الأسقف، وبذلك يجعل القضية بأكملها معروفة للملأ، حتى الدكتور غرانتلي لن يكون قادراً على الوقوف بوجهه. إذ كان يعرف حق المعرفة مدى تأثير الدكتور، ومدى عجزه ليتوقع إمكانية اتخاذ كل تلك القرارات إذا وصل كلاهما إلى لندن معاً! والحقيقة أنه لن يتمكن أبداً من الوصول إلى لندن إذا علم الطبيب برحلته المقررة في الوقت المناسب لمنعها.

«لا، لا أعتقد ذلك»

«هذا أفضل يا أباي» أكدت إيانور موضحةً أنها متفهمة لحيلة والدها.

«في الحقيقة يا حبيبتي، إن مدعاة ذلك هو رغبتى بفعل كل شيء قبل أن يتسنى لرئيس الشمامسة التدخل. ثمة قدر كبير من الحقيقة في كل ما يقوله، إنه يتحدث بطريقة مُقنعة إلى حد كبير، وأنا أعجز دائماً من الرد عليه، بيد أن هناك قول مأثور يانيلي: كل امرئ يعرف أين تكمن علته⁴⁶! سيقول إنني أسعى وراء الشجاعة الأخلاقية،

وقوة الشخصية، والقدرة على التحمل، وهذا صحيح كله؛ ولكنني واثق أنه لا ينبغي لي البقاء

هنا إن لم يكن أمامي سوى الجدل في أمورٍ تافهة، لذا، يا نيلي، علينا مغادرة هذا المكان الجميل»

أشرق وجه إيلانور، إذ أكدت لوالدها كم أنها توافقه الرأي. فعاد الفرح والارتياح إلى والدها بعض الشيء وأضاف قائلاً:

«نعم يا حبيبتي، ما نفعنا في هذا المكان وكل هذا المال، إذا كانت الألسن تتناقل سيرتنا بالسوء؟»

«إني سعيدة يا أبي»

«يا طفلي العزيزة! لقد أنبني ضميري كثيراً في البداية يا نيلي وأنا أفكر بأنه يجب أن تخسري صالتك الجميلة والمهور الخاصة بك وحديقتك، إذ أن خسارة الحديقة هي الأسوأ على الإطلاق، ولكن هناك حديقة في كرابتري، حديقة جميلة جداً»

كان «كرابتري بارفا» اسماً لمسكن صغير كان السيد هاردينغ يملكه عندما كان كاهناً مرتلاً مبتدئاً، وهذا المسكن لم يزل ملكه. كان يساوي حوالي ثمانين جنيهاً سنوياً لا غير، ملحقاً بمنزل صغير وأرضٌ كنسيّة زراعية، والتي سلمها السيد هاردينغ حينها إلى كاهنه المعاون. بهذا، فكر السيد هاردينغ بالذهاب إلى أرض كرابتري هذه. وهذه الأبرشية يجب ألا تُخلط مع الأحياء الأخرى، مثل كرابتري كانونيكوروم كما تُسمّى.

أرض كرابتري كانونيكوروم، مكان ساحر، تضم مئتي أبرشيّة فقط، ويمتد فيها أربعمئة فدان من الأرض الزراعية. أما ضريبة الأعشار الكبيرة والصغيرة، والتي تساوي أربعمئة جنيهاً إضافية في السنة، فيذهب كلاهما إلى راعي الأبرشية. إن أبرشية كرابتري كانونيكوروم هي هبة كبيرة الكهنة ورهبان الكاتدرائية. وأصبحت ملكاً للقس المحترم الدكتور فيزي ستانهوب في الوقت الحالي، الذي يملك أيضاً مقاعد ممنوحة عند مذبح كنيسة غوسغورج في كاتدرائية بارچستر، ويملك المسكن الموحد للقساوسة من آيديرداون وستوغينغوم - أو ستوك بينكيوم - كما ينبغي كتابتها. وهذا الدكتور فيزي ستانهوب هو نفسه مالك فيلاً مضيافة على بحيرة كومو، مشهورة لنخبة من الرحالين الإنكليز، والذي يملك مجموعةً فريدة من الفراشات اللّمباردية على حدّ زعمه.

قال الراعي متأملاً: «نعم، هناك حديقة جميلة جداً في كرابتري؛ لكنني سأكون أسفاً لإزعاج سميث المسكين» كان سميث هو راهبٌ مساعد في أبرشية كرابتري، وهو رجل

مهذب يعيل زوجةً وستة من أبنائهم على الرزق المتحصّل من وظيفته.
أكدت إليانور لوالدها أنه بقدر ما كانت تشعر بالقلق، يمكنها مغادرة منزلها ومهورها دون
أن تشعر بأدنى قدرٍ من الأسف. كانت قريرة العين لأن والدها سيرحل. سيرحل إلى حيث
الخلاص من كل هذه الفوضى الرهيبة.

«لكننا سنأخذ الموسيقى معنا يا عزيزتي.»

بدءا الترتيب لمستقبل هانئ، والتخطيط لكيفية الانتهاء من كل ذلك دون تدخل رئيس
الشماسة. وفي النهاية، تعاهدا على إبقاء الأمر سرا. ثم شكر ابنته على ما كل ما فعلته. أما
إليانور، فقد وجدت الفرصة لإفشاء سرها وهي تضع رأسها على كتف والدها. فمنح الأب
بركته لابنته، وأكد لها بأن الرجل الذي تحبه، رجلٌ صادق، صالحٌ، وطيب القلب، والأهم ذو
تفكير قويم، إنه رجلٌ يريد زوجةً صالحةً ليس إلا، امرأةً ترشدهُ إلى جادة الصواب كي يصل
البر آمناً. وانتهى بالقول:

«رجلٌ، أو من معه إيماناً راسخاً بأنه يمكنني أن أأتمنه على كنزي بكل طمأنينة يا ابنتي

الغالية»

«ولكن، ماذا سيقول الدكتور غرانتلي؟»

«حسناً يا عزيزتي، ما باليد حيلة، وحينها سنكون في كرايتري.»

هرعت إليانور للطابق العلوي لتحضير ثياب والدها من أجل رحلته إلى لندن، فيما عاد
الراعي إلى حديقته ليودّع كل شجرة وشجيرة ومكانٍ منعزل ظليل يعرفهم جيداً، الوداع
الأخير.

أو بمعنى آخر: ما من أحدٍ غيرك أدري بمعاناتك

الفصل الرابع عشر: جبل أوليمبوس

عاد بولد إلى مسكنه في لندن وهو في حالةٍ مزرية. يريزحُ تحت وطأة الشعور بالإهانة، يلوم نفسه، موازينه مقلوبة من جميع النواحي. وكما كان عليه الحال في مقابله مع رئيس الشمامسة، لم يكن أقل من ذلك في ظل ضرورة الوفاء بوعده تجاه إيلانور؛ فمضى بمهمته المكروهة بقلبٍ مثقل.

تلقى المحامون الذين وظفهم في لندن تعليماته بذهولٍ وحيرةٍ جلية؛ بيد أنهم لم يسعهم إلا أن يطيعوا، وأن يتحدثوا همساً بشيء من الأسف، لأن مثل هذه التكاليف الباهظة لن تقع إلا على عاتق ربّ عملهم، لا سيما أنه ما كان يبتغي شيئاً سوى العمل الدؤوب لكي يهزم بهم الطرف المقابل. غادر بولد المكتب الذي كان يتردد عليه كثيراً في الآونة الأخيرة، نافضاً الغبار من قدميه؛ وقبل أن ينزل الدرج، كان قد أصدر القرار لإعداد مسودة القانون. ثم أخذه تفكيره إلى الصُحف. إذ تناولت القضية أكثر من صحيفة واحدة، وكان مدرّكاً تمام الإدراك بأن أبرز من أثار القضية هي صحيفة المشتري اليومية. كان تجمعهُ بتوم تاورز علاقةً طيبة، وكثيراً ما ناقش معه شؤون المأوى. لا يمكن للسيد بولد أن يجزم القول بأن المقالات الواردة في تلك الصحيفة كُتبت بتحريض منه. حتى أنه لم يكن يدري بأن كاتب تلك المقالات هو صديقه في الحقيقة. لم يذكر توم تاورز قط أن الصحيفة التي يعمل لصالحها سوف تتبنى نشر وجهات نظرها في هذه القضية، أو تنحاز لجانب في هذا النزاع. كان توم تاورز كتموماً لأبعد حد في مثل هذه الأمور، ولا يحبذ أبداً، الثرثرة عن أسرار تلك السلطة المؤثرة التي يعدها شرفاً كبيراً بالنسبة له، أن يُدير قسماً منها بسرية تامة. مهما كان الأمر، أدرك بولد أن تلك التصريحات الفظيعة التي زعزعت الهدوء في بارچستر كانت بسببه، وظن بأن عليه التدخل ومنع تكرارها. وبهذا توجه من مكتب محاميه قاصداً ذلك المختبر حيث يُركب توم تاورز عبارات الوعيد الصاعقة تلك، بكيمياء مذهلة، للقضاء على كل فاسد، ومناصرة كل إنسان صالح في هذا الجزء من الكوكب وعلى النصف الآخر من الكرة الأرضية.

من منا لم يسمع بجبل أوليمبوس؟ ذلك المسكن المرتفع لكل الآلهة⁴⁷، ومقر الآلهة العظيمة بيكو⁴⁸. ذلك السكن الرائع الذي يضم الآلهة والشياطين⁴⁹، والذي يصدر منه،

بهديرٍ لا ينفكّ من النشاط البالغ وتدفق لا ينتهي من الحبر القشّالي، أكثر من خمسين ألف مرسوم كل ليلة، لقيادة أمة ذات كيان؟

إنّ أقمشة الحرير وطلاء الذهب لا يجعلان من العرش عرشاً، ولا يصنع الذهب والأحجار الكريمة الصولجان. وُجِدَ العرش كي يعتليه أكثر الملوك سموًا ومجدًا، وصُنِعَ الصولجان حتى تقبض عليه يدُ الأقوى. وكذلك الحال مع جبل أوليمبوس، فإذا شقَّ طريقه إلى هناك في منتصفِ ظهيرةٍ غائمة، أو في ساعات السكون في المساءات الهادئة، فلن يجدَ معبدًا يحاكي السلطة والجمال يحظى بالتقدير، ولا مقامًا مُقدَّسًا لائقًا بإله العاصفة الرهيب، ما من واجهات تبعث على الفخر ولا سقوطًا معمّدة للإعلاء من هيبة أعتى حُكّام الدنيا. إذ أنّ جبل أوليمبوس بالنسبة للأعين الغرّة، هو بقعة متواضعة إلى حد ما، بل مكانٌ عاديّ وغير متكلف، بل يكاد أن يكون مكانًا وضيعًا. إنه ينتصب وحيدًا إذا جاز التعبير، في مدينةٍ كبيرة، قريبًا من كثافة سكانيةٍ كبيرة، لكنه لا يُشاطرهم الضجيج ولا الجموع. إنه مكان صغير، معزول وموحش، مستأجر - إن صح القول - من قبل أناس قنوعين للغاية، وإيجاره بسيط جدًا.

«هل هذا هو جبل أوليمبوس؟» يتساءل الغريب المرتاب، «أمن هذه الأبنية الوضيعة المظلمة والقدرة تُشرعُ تلك القوانين الصارمة التي يجب على الوزراء إطاعتها، والتي توجه الأساقفة وتسيطر على اللوردات والأراضي العامة والقضاة العارفين في القانون؟، أمن هنا توضع الخطط الإستراتيجية للجنرالات، وترسّم التكتيكات البحرية للأميرالات، وإدارة جماعة الأخوية البرتقالية في مسيراتهم؟»⁵⁰

«نعم يا صديقي، من داخل هذه الجدران، من هنا تصدر الفتوات البابوية الوحيدة المعروفة والمعصومة من الخطأ لتنوير العقول والأجساد البريطانية. هذا البلاط العاديّ بمثابة فاتيكان إنكلترا! من هنا يتولى البابا الحكم، يرشح نفسه وينذر لها للرب، والأغرب من ذلك... الإيمان بها! -- البابا الذي، إذا كنتَ تأبى طاعته، فإني أنصحك بأن تعصيه سرًا قدر الإمكان! فالبابا لم يخشَ يوماً من أيِّ مُصلحٍ لوثرِيٍّ حتى اليوم⁵¹، هو الذي يدير التحقيقات الخاصة به ويعاقب الكفرة كما لم يفعلْ أيُّ محققٍ بارعٍ في إسبانيا من قبل. شخصٌ يمكنه أن يفرض عقوبة الطرد من الكنيسة فرضًا تامًا وقاطعًا ومخيفًا. يجعلُ منك شخصًا منبوذًا اجتماعيًا،

ويجعلك مكروهاً في أعين أصدقائك! إنه يحولك إلى مسخٍ وكل أصابع الاتهام موجهة نحوك!»

يا للهول! هذا هو جبل أوليمبوس!

إنها لحقيقةٌ مذهشةٌ بالنسبة للبشر العاديين أن صحيفةَ المشتري لا تخبِ أبداً، وبما يرافقها من أهميةٍ لا حصر لها، وبما تقدمه من مقالاتٍ قاسية، أفلا نسعى جاهدين لإيجاد أنسب الرجال لتشكيل مجلسنا الوطني العظيم؟ كيف نتخلف عن فعل شيءٍ كهذا؟ ثمة مشاكل في البرلمان دائماً. اقرؤوا صحيفة المشتري ولاحظوا مدى عقم اجتماعاتهم وفراغ مجالسهم وحجم مشاكلهم التافهة! بأيِّ فخر ننظر إلى رؤساء وزرائنا وكبار مسؤولي الدولة، القلة الحاكمة للأمة التي نعتمد على حكمتهم؟، بأيِّ قيادةٍ نستظل في مآزقنا؟! ومن هم بالنسبة لكتابِ صحيفة المشتري؟

لقد شكلوا المجلس الاستشاري سويًا، وناقشوا بأفكار متعطشة مصالح بلادهم؛ وعندما انتهى كل شيء، تُصرِّح صحيفة المشتري بأن كل ما فعلوه لا جدوى منه. لِمَ عسانا أن نتوقع شيئاً من اللورد جون راسل؟!... لِمَ عسانا أن ننظر بعين الاعتبار إلى بالمرستون وغلادستون⁵² بينما يستطيع توم تاورز أن يسد النقص ويقودنا إلى جادة الصواب بلا نزاعات؟ انظروا إلى جنرالنا وما يقترفون من أخطاء؛ انظروا إلى الأدميرالات ومدى كسلهم! لقد تلاشى كل ما يمكن بالمال والنزاهة والعلم إنجازهُ؛ ومع ذلك لاحظوا مدى ضآلة تحضيرات قواتنا، مدى رداءة إ طعامهم ونقلهم وإلباسهم وتسليحهم وإدارتهم! يبذل أفضل رجالنا الصالحين قصارى جهدهم لإدارة سفننا، بمساعدة التجهيزات الخارجية الممكنة ولكن من دون جدوى. كل شيء منحرفٌ عن مساره الصحيح، كل شيء. ووحده توم تاورز يعرف كل شيء عن كل شيء. عجباً يا وزراء البلاد!، لماذا لم تسيروا عن كذب على خطى هذا الرسول - هبة السماء لكم - الذي يعيش بين ظهرانينا؟ ألم يكن من صالحنا أن نتعهد بكل أمورنا لصحيفة المشتري في عز غبائنا؟ أليس من الحكمة أن نتخلى عن الأحاديث العقيمة والتفكير الفارغ والعمل الذي لا طائل منه؟ بعيداً عن الأغلبية في مجلس العموم، والقرارات الصادرة عن الهيئات القضائية التي تصدر بعد تأخير كبير، والقوانين المشكوك فيها، والمحاولات القابلة للخطأ من جانب الجنس البشري! ألا تضع صحيفة المشتري - التي تصدر يومياً بخمسين ألف طبعة مليئة

بالقرارات الصائبة بشأن قضايا البشرية كلها- الأمور في نصابها؟ أليس توم تاورز هنا قادراً ومستعداً لقيادتنا؟

بلى! قادرٌ ومستعدٌ في الحقيقة، على قيادة الشعب بأسره في شتى المجالات، طالما أن الشعبَ مطيعٌ له كما يطيعون حاكماً مُستبدّاً طاعةً عمياء. فقط لا تُفسِحوا المجال للوزراء الجاحدين بالبحث عن زملاء آخرين لتوظيفهم غير أولئك الذين قد يوافق عليهم توم تاورز؛ فملتدعوا الكنيسة والدولة، القانون والطب، التجارة والزراعة، فنون الحرب وفنون السلام، فلتدعوهم جميعاً للسمع والطاعة، وسوف يغدو كل شيءٍ مثالياً. أليس ل توم تاورز عينٌ بصيرة تراقب كل شيءٍ؟ من أعمال التنقيب في أستراليا إلى تلك التي في كاليفورنيا وهو يجوب الكرة الأرضية حيث الأماكن المأهولة للسكن، ألا يعرف ويراقب ويدون أفعال الجميع؟ من أسقفية في نيوزيلندا إلى مدير رحلة بحرية لم يحالفه الحظ في الشمال الغربي، أليس هو الحاكم الوحيد المناسب الذي يتمتع بالقدرة؟ من مجاري تصريف في لندن إلى سكة حديد في الهند... ومن قصور سانت بطرسبرغ في روسيا إلى أكواخ كوناكت في آيرلندا، لا شيء يمكن أن يفلت منه. على البريطانيين أن يقرؤوا صحيفة المشتري ويطيعوا قراراتها وينعموا بالسعادة. ما من أحدٍ سوى الحمقى يشكك في أصالة صحيفة المشتري، وما من أحدٍ يعترض على حقائقها غير المعتهين.

لم يسبق لأيّ ديانة موجودة أن خلت من غير المؤمنين بها، حتى في البلد الأشد رسوخاً فيها؛ ولم تستمر أيّ عقيدة من دون وجود المستهزئين بها. لم تزدهر أي كنيسة حتى تخلو تماماً من المعارضين لها. هناك من يشك في صحيفة المشتري، إنهم أناس يعيشون ويتنفسون ويمضون حياتهم هنا دون أن يمسسهم سوء، مع أنهم أناس وضيعون. رجالٌ، ولدوا من أمهات بريطانيات ورضعوا من الحليب الإنكليزي، غير أنهم لا يتورعون عن القول بأن جبل أوليمبوس له ثمنه، وأن توم تاورز يمكن شراؤه بالذهب!

ذلك هو جبل أوليمبوس، الناطق بجُل معارف هذا البلد العظيم. قد يُقال بأن ما من بقعة في هذا القرن التاسع عشر جدير بالملاحظة والاهتمام. ليس هناك من تفويض لخزانة مالية مزوّدة بالتواقيع في كابينة الحكومة كلها تملك نصف تأثير عددٍ واحدٍ من تلك الصحف الكبيرة، التي تصدر من هذا المكان بأعداد غزيرة دون توقيع بالمرة.

رجل عظيم، شديد البأس ونبيل، فلنقل دوقٌ شهيم، يتقاعد للراحة وهو مرهوب الجانب، يحترمه أبناء البلد كلهم، لا يعرف الخوف؛ ومهما يكن من أمر، إن لم يكن رجلاً صالحاً، فهو استثنائي، استثنائيٌ للغاية بحيث لا يأبه بما قد يقوله الرجال عن رغبته في النزاهة. يستيقظ في الصباح مكسور الشوكة، معلولاً، مغلوباً على أمره؛ وموضِعاً لاحتقار الرجال، ليس ثمة ما يشغل باله غير التقاعد وبأسرع ما يمكن، ولربما يعود ذلك لغموض الألمان، أو سرية الطليان، أو في الواقع، أي بقعةٍ خارج مرمى بصره.

ولكن ما الذي أحدث هذا التغيير الفظيع؟ ما الذي أصابه؟ نُشر مقالٌ في صحيفة المشتري من نحو خمسين سطراً في عمود ضيق قضتْ على كُلِّ نعمة من نعم الهدوء ونفته من العالم إلى الأبد. لا أحد يعرف من كتب تلك الكلمات المريرة. يتداولها رواد الأندية وهم في حيرة من أمرهم، يتهامسون باسم هذا وذاك فيما بينهم؛ بينما توم تاورز يمشي هادئاً على طول شارع بول مول في لندن، معطفه مزررٌ بوجه الرياح الشرقية، كما لو أنه رجلٌ بشريٌّ وليس إلهاً يُلقى صواعق الرعد من فوق جبل أوليمبوس!

لم يتوجه صديقنا بولد لجبل أوليمبوس. كان قد هامَ سابقاً حول تلك البقعة الوحيدة، وهو يفكر بمدى روعة كتابة مقالات لصالح صحيفة المشتري؛ ويتأمل ما إذا كان بإمكانه الوصول لمثل هذا الشرف بمساعدة أحدهم لو أنه بذل ما بوسعه لتطوير قدراته؛ متسائلاً كيف لتوم تاورز أن يتبنى أيّ عرضٍ متواضع لمواهبه؛ آخذاً بالحسبان أن توم تاورز نفسه لا بدَّ وأن كان له بداية يوماً ما، وأنه شكَّ في نجاحه ذات مرة! إذ لا يُعقل أن يكون توم تاورز قد وُلد كاتباً بالفطرة في صحيفة المشتري. وراح بولد يرنو إلى الورشة الصامتة للآلهة وهو يقلب هذه الأفكار في رأسه، نصفه مهموم ونصفه مذهول؛ لكنه لم يحاول قط بكلمة أو إشارة، أن يتأثر بأبسط كلمة يتفوه بها صديقه السديد. وهكذا أزمع أمره على الذهاب إلى هناك؛ وبقلبٍ وجيبٍ، توجه بولد إلى مسكن المعرفة الهادئ، حيث يمكن رؤية توم تاورز في الصباح وهو يتناول من طعام الآلهة الشهي وينهل من رحيقها في شكل خبزٍ محمص وشاي.

ليس بعيداً عن جبل أوليمبوس، ولكن أقرب إلى حد ما، من المناطق المباركة في الغرب، مكان المعبد الأكثر تفضيلاً للآلهة لثيميس زوجة زيوس⁵³، يطل على نهر التيمز المدي الذي يمرُّ بأبراج يوليوس قيصر إلى قصر روستمنستر الذي بناه تشارلز باري المهندس

المعماري العظيم ⁵⁴؛ ورجوعاً مرة أخرى بعطايا جديدة كتقدير من المدينة، من قصور النبلاء إلى أسواق التجار، تنتصب تلك الجدران الهادئة التي من دواعي سرور القانون أن يرفعها بوجوده. يا له من عالم بداخل عالم هذا المعبد! يا لهدوء «ممراته المتشابكة» كما أسماها شخص ما مؤخراً، ومع ذلك كم هي قريبة من ملتقى التجمع البشري الأكثر كثافة! وكم أن حاراتها الكثيرة واسعة للغاية، رغم أنها تبعد خطوة واحدة عن طريق ستراند الرئيسي-غير اللائق- وسط لندن، وشارع فليت الذي يعج بالخطايا! أُزيلت كنيسة القديس دنستان القديمة في شارع فليت، التي تعرض ساعة يضرب فيها عملاقان على عقارب الساعات وأرباع الساعات بمضرب يحملانه. المتاجر القديمة وواجهاتها المملوءة بالماضي الجميل، تُزال الواحدة تلو الأخرى، حتى أن حي تمبل بار، الذي يعد المدخل الاحتفالي الرئيسي لمدينة لندن من وستمنستر، سوف يُزال.

لقد أعلنت صحيفة المشتري عن قدرها المشؤوم. تصلنا شائعات عن مبنى ضخم سيظهر في هذه المناطق المخصصة للقانون، هداماً لمحاكم وستمنستر الملكية، ومعادياً لمقر حافظ الوثائق وسجلات الأحكام القضائية وجماعة نُزل لينكولن ⁵⁵؛ لكن لا شيء حتى الآن يهدد جمال المعبد الصامت: إنه محكمة العصور الوسطى الحاضر في المدينة.

هنا، في هذه البقعة المختارة، تصطف القاعات الشاهقة، تطلُّ بشكلٍ مائل على نهر التيمز الملوّث. أمام النوافذ، يمتد المرج الأخضر لحدائق المعبد بلونه الباهت ولكن المبهج والمريح لأعين سكان لندن. لو اضطرتك الحياة إلى العيش في أكثف مناطق لندن ضباباً، فأنت ستخار العيش في هذه البقعة يقيناً! نعم، أنت يا من أخاطبه الآن، يا صديقي العزيز الأعزب الكهل. إذ ما من مكانٍ ينفع أن يصير محل إقامةٍ، غير هذه البقعة.

هنا، لن يسألك أحد عما إذا كنت في المنزل أو لا؛ تعيش بمفردك أو مع أصدقاء. هنا لن يستعلمك مُسبب ⁵⁶ عن عبادات أيام الأحد الخاصة بك، ولن تدقق المؤجرة الانتقادية، النظر في زجاجتك الفارغة. لا أحد من جيراننا المعلولين سيتذمر من الساعات المتأخرة. إن كنت تحب الكتب، فأبي مكان يليق بالكتب أكثر من هذه البقعة التي تعبق برائحة الورق والطباعة؟ ترغب بالصلاة للإلهة أفروديت؟ الصلوات في غابات قبرص ليست أكثر سكوناً من بساتين المعبد. خفة الظل والنبيد متوفران دائماً، معاً دائماً. حتى أن احتفالات المعبد

تشبه الاحتفالات التي يقيمها اليونانيون ذوي الوجوه الصقيلة . حيث لم ينس قط أكثر المتعبدين حباً لباخوس - إله النبيذ اليوناني - هيبّة الإله الذي يعشقه. أين تكتمل عزلة المرء أكثر في غير هذه البقعة؟ أين عساک أن تكون متأكداً من مباحج الرفقة والحفلات؟

ها هنا عاش توم تاورز، وصقلَ بنجاح لافِت للنظر، عبقرية موهبتِه في الكتابة التي تسود على الصحافة الدورية اليوم. ولكن دعونا لا نعتقد بأنَّ غرفته كانت غير مريحة، كما هي الحال في كثير من الأحيان مع المساكن الكئيبة للحقوقيين الطامحين إلى المجد. ضمت الغرفة أربعة مقاعد، خزانة كتب نصفُ ممتلئة بالكتب، سجادات حائط منسوجة من قماش الجوخ الأخضر الداكن، طاولة مكتب قديمة مغطاة بأوراق مُتربة تُنظفُ مرة واحدة كل ستة أشهر، طاولة صغيرة متهالكة بأربعة أرجل، ملحقة بدُرفات مُفصّلة نافعةٍ للاستهلاك اليومي. مسؤول لإعداد الكرنك والقهوة، جهازٌ لطهي الخبز المُحمّص وقطع لحم الضأن. ومثل هذه الأدوات والكماليات لن تفي حق توم تاورز من الرفاهية. كان يطلق العنان لنفسه من خلال وجوده بأربع غرفٍ خاصة به في الطابق الأول، كل غرفة منها مؤثثة برفاهية تفوق روعة رفاهية قصر دوق ساذرلاند الساحر في لندن. فكل ما أضافه العلم والفن مؤخراً من أجل رفاهية الحياة العصرية، كان حاضراً هناك. كانت الغرفة التي يجلس فيها عادةً محاطة برفوف الكتب المختارة بعناية؛ إذ لم يكن هناك مُجلد لا يحق له أن يحتفظ بمكانه في مثل هذه المجموعة، سواء من حيث قيمته الجوهرية أو روعة مظهره الخارجي. ثمة تشكيلة من السلالم النقالة مركونة في إحدى زوايا الغرفة أظهرت بأن حتى تلك الكتب في الرفوف العليا كانت مُعدّة للقراءة. لم يكن في الغرفة سوى اثنين من الأعمال الفنية. العمل الأول: تمثال نصفي رائع عن السير روبرت بيل للنحات الأمريكي حيرام باور، يعكس المعتقدات السياسية الخاصة بصديقنا توم تاورز. أما العمل الآخر، فهو صورة فريدة كبيرة لشخصية تناصر المرأة، رسمها السير جون إيفرت ميليه، توحى بنفس القدر من الوضوح المذهب الفني الذي يهواه توم تاورز. لم تكن هذه الصورة معلقة كما هي عادة الصور على الحائط؛ إذ لم يكن ثمة شبر فارغ من الحائط لهذا الغرض، وإنما كان ثمة حامل أو طاولة مخصصة لها، وهناك عند قاعدتها، ثمة لوحة مؤطرة والمزججة لسيدة راهبة تقف وهي تُمعن النظر إلى زنبقة كما لم تنظر سيدة من قبل [57](#).

ففنانونا المعاصرون ممن نُصنفهم كأعضاء في مدرسة ما قبل الريفائيلية⁵⁸، قد سرتهم العودة، ليس فقط إلى الأسلوب الثقافي السابق والغريب في الرسم، بل وإلى موضوعات الرسامين الأوائل كذلك. لذلك من المستحيل أن نمنحهم قدرًا أكثر من اللازم من الثناء على مواظبتهم الدؤوبة التي ساووا بها الكمال المتقن الذي تتسم به أعمال المعلمين الذين يستمدون منهم إلهامهم! إذ ليس هناك ما قد يفوق رسم بعض هذه اللوحات المعاصرة. إنها ببساطة، لوحات استثنائية بما تحويه من أخطاء في موضوعاتها. فهم لا يُرضيهم اقتباس التشكيلات الأساسية القديمة، مثل لوحة القديس سيباستيان المغطى جسده بالسهام، أو لوحة لوسيا التي تحمل عينيها في طبق، أو القديس لورانس برفقة شبكة الشواء، أو العذراء التي لديها طفلان. ولا يطيب لهم التعديل على هذه اللوحات مطلقاً. وكقاعدة عامة، لا ينبغي رسم أي لوحة في وضع يتعذرُ معه افتراض الاحتفاظ بأي صورة فيها، فاعتصام القديس سيباستيان بالصبر الطويل، الابتهاج المفرط للقديس يوحنا في البرية، حب العذراء الأمومي، هي مشاعر مرسومة بوضعية ثابتة بحكم الطبيعة؛ إلا أن السيدة ذات الظهر المتصلب والرقبة المحنية، التي تنظر إلى زهرتها وما فتئت تنظر من ساعة إلى ساعة، تعطينا فكرة عن العذاب الذي يرافقه امتنان، وعن شرود الذهن من غير سبب.

ومن خلال غرفة توم تاورز، كان من السهل ملاحظة أنه منغمس بسبب الراحة، لكنه مع ذلك، لم يكن بالشخص الفارغ. كان يتمهل مستمتعاً بآخر كوب من الشاي، محاطاً ببحرٍ من الصحف التي يُبحر في محيط تفاصيلها، عندما دخل خادمه الصبي ذو البزة المقلمة بالأسود والأصفر ومعه بطاقة، وأخبره بطلب جون بولد رؤيته. لم يدر هذا الخادم قط بأن سيده يعود إلى المنزل، رغم معرفته بأنه لا يعود في كثير من الأحيان، لذلك ما من أحد يدخل غرفة توم تاورز يوماً إلا بموافقته. في هذه المرة، وبعد أن برم توم البطاقة مرتين بأصابع يده، أخبر خادمه الصغير بأنه كان ملحوظاً؛ وأن تراس الباب الداخلي كان مرفوعاً.

لقد قلت من قبل أن توم تاورز - الابن البار لصحيفة المشتري - وجون بولد تجمعهما صداقة طيبة. لم يكن ثمة فرق كبير في عمريهما، لأن تاورز كان ما يزال دون الأربعين بكثير. وحين كان بولد منكباً على قضية ماوي لندن، كان تاورز - الذي لم يكن معروفاً وذا شأن بعد - يرافقه بكثرة. في ذلك الوقت كانا يتناقشان كثيراً عن أهداف طموحاتهما وآفاقهما المستقبلية؛ وحينها، كان توم تاورز يكافح جاهداً لإعالة نفسه كمحامٍ غير مختص، من خلال

كتابة تقارير مختزلة لأي صحيفة قد تستأجره. وفي تلك الأيام لم يجرؤ على الحلم بكتابة مقالات افتتاحية لصحيفة المشتري، أو كتابة استبيان عن تصرفات الوزراء في مجلس الوزراء.

ثم تغيرت الأمور منذ ذلك الحين، فالمحامي غير المختص ما يزال غير مختص، غير أنه اليوم، يستخف بالاختصاصات! ولو أنه بات قاب قوسين أو أدنى من حصوله على منصب قاضٍ، ما كان ليتخلى عن حياته المهنية الحالية. صحيح أنه لم يكن يرتدي ثياباً منسوجةً من جلود حيوان القاقم ولا من تلك العلامات التجارية المادية كي يحوز على احترام العالم، لأنه كان مُحَمَّلًا بما يُكَلَّف به من أعباء ذات شأنٍ جوهري! صحيح أن اسمه لم يُكْتَب بأحرف بارزة ولا بالطبشور على الجدران «يحييا توم تاورز أبد الدهر» و «حرية الصحافة وتوم تاورز»، لكن أي عضوٍ من أعضاء البرلمان لا يملك نصف تأثيره؟

صحيح أن الناس في الأقاليم النائبة لم يأتوا على سيرة توم تاورز بشكلٍ يوميٍّ، بيد أنهم قرؤوا صحيفة المشتري، وأقروا بأن قبل ظهور صحيفة المشتري، ما كان للحياة قيمة!

كان يليق بطباع هذا الرجل مثل هذا المجد الخفي ولكن المُميز. إذ كان يطيّب له الجلوس صامتاً في زاوية من زوايا مجموعته والانصات إلى الثرات الصاخبة للسياسيين، والتفكير كيف أنهم جميعاً تحت رحمة قلمه! كيف يمكنه إخراس أقوى صوت بينهم عندما يحين وقت قلمه. كان يروقه رؤية المسؤولين العظام ممن يكتب عنهم يومياً، وأن يغتر بشخصه كونه أعلى شأنًا منهم! ذلك أن كل فردٍ منهم مسؤول أمام بلده، وعلى كل واحد منهم أن يُجيب إذا ما استعلمه الآخرون، وأن يتحمل الإساءة بحسّ فكاهيٍّ، والوقاحة دونما غيظ. لكن أمام من كان توم تاورز مسؤولاً؟ ما من أحدٍ قادرٍ على إهانته أو استجوابه. كان ينتقد علناً وبصورة لاذعة، دون أن يجرؤ أحدهم على الجواب، يتودد إليه الوزراء، مع أنهم يجهلون اسمه غالباً؛ يهابه الأساقفة؛ ويشكك القضاة في الأحكام الصادرة عنهم إلا إذا أكدها هو. لا يحسب الجنرالات - في مجالسهم الحربية - حساباً شديداً لما يمكن أن يُقدّم الأعداء على فعله كما يحسبون حساباً لما قد تُصرّح به صحيفة المشتري.

لم يتباه توم تاورز بعمله في صحيفة المشتري ولم يذكر اسمها حتى لأعز رفاقه، حتى أنه لم يرغب بأن يُقال أنه «على صلة بها»، لكنه لم يقلل من قيمة مزاياه، ولم يحط من قدر شأنه.

لعله يعتبر نفسه أقوى رجل في أوروبا وهكذا مضى قُدماً يوماً بعد يوم، يسعى جاهداً ليبدو
كإنسان، ولكنه كان يعلم في قرارة نفسه، بأنه إله!

تلميح ضمني يُراد منه صحيفة التايمز

إشارة إلى طبيعة العاملين على الطباعة من طاقم صحيفة التايمز

يقصد بالشياطين هنا العاملين على طباعة الصحيفة والسعاة الذين يقومون بتوزيع الأعداد

جماعة الأخوية الأورانية: منظمة بريطانية بروتستانتية محافظة وموالية لأولستر، عارضت تقليدياً القومية الأيرلندية/
الجمهورية الأيرلندية، وشتت حملة ضد استقلال أسكتلندا، وتعتبر المنظمة نفسها مدافعة عن الحريات المدنية والدينية
البروتستانتية، في حين يتهمها النقاد بأنها طائفية ومغرمة بالنصر والعنصرية. وهم كمجتمع بروتستانت صارم، لا يقبل غير
البروتستانت كأعضاء إلا إذا اعتنقوا مبادئ الأورانية والتزموا بها، ولا يقبل البروتستانت المتزوجين من كاثوليك.
المسيرات البرتقالية التي تمر عبر الأحياء الكاثوليكية الأيرلندية مثيرة للمجدل وكثيراً ما أدت إلى العنف مثل نزاع
درومكري.

نسبةً إلى مارتن لوثر (1483 – 1546) المصلح البروتستانتى الألماني الذي انتقد السياسة البابوية والانتهاكات الكنسية

أبرز السياسيين المعاصرين للورد جون راسل

في الميثولوجيا الإغريقية إلهة القانون والعدالة. هنا «مقر إقامتها» هو المعبد، الذي كان ينتمي إلى فرسان الهيكل، ولكن في
هذا الوقت كان مقر إقامة المحامين

قصر وقلعة صاحبة الجلالة الشهير باسم برج لندن وهي قلعة تاريخية على الضفة الشمالية لنهر التيمز في قلب لندن في
إنكلترا. يُنسب بناؤه إلى يوليوس قيصر وهذا خطأ تاريخي شائع. 54 أما قصر وستمنستر أو ما يدعى ب(بيوت البرلمان)
صممه السير تشارلز باري 1795 – 1860

وتدعى أيضاً بالجمعيات المهنية لمرافقي المحامين في إنكلترا وويلز، يوجد منها أربعة في لندن ويجب أن ينتمي المحامون
إلى إحداها. توفر مكاتب ومرافق لتناول الطعام وأماكن إقامة احترافية. كان والد أنتوني ترولوب محامياً في المحاكم
العليا في إنكلترا وكان يملك محل إقامة في إحدى هذه الجمعيات.

مُسبتٌ أو سبتيّ أو المذهب السبتى: من يعتقد بقدسية يوم السبت ويعده يوماً للراحة والامتناع عن العمل. إذ يدعو الاحتفال
بيوم الأحد كيوم للعبادة والراحة هو شكل من أشكال اليوم الأول من السبتية، وهو الرأي الذي تم التبشير به تاريخياً من
قبل الطوائف المنشقة عن الكنيسة الإنكليزية، مثل الأبرشانيين، المشيخية، الميثودية، المورافيين، كويكرز والمعمدانيين.

لوحة رسمها تشارلز ألتون كولنز بعنوان «أفكار الدير» عرضت في الأكاديمية الملكية عام 1851

تبار فني تشكل على يد مجموعة من الرسامين والشعراء البريطانيين عام 1848م، احتجاجاً على المستوى المتدني للفن
الإنكليزي في القرن الثامن عشر. تميزت أعمالهم بالوله والشوق والألوان الزاهية. كان جون إيفرت ميليه من ضمن رؤاد
هذه المدرسة

الفصل الخامس عشر:

توم تاورز، السيد أنتيكانت، والسيد ستيمنت

«أووّه بولد؟ كيفك صحتك؟ هل تناولت الفطور؟»

« بلى قبل ساعات، كيف صحتك أنت؟»

عندما يلتقي رجلان من الإسكيمو ببعضهما، هل يقوم الاثنان، كقاعدة ثابتة، بالسؤال عن صحة كُليّ منهما؟ وهل طرح هذا السؤال الإجمالي متأصل في الطبيعة البشرية بأسرها؟ هل التقى قارئ هذه الحكاية يوماً بصديق أو شخص من معارفه من دون أن يطرح عليه مثل هذا السؤال؟ وهل أصغى الجميع إلى الإجابة؟ في بعض الأحيان، يُبدي السائل اللبق تفكيراً ملياً بالمسألة ليُجيب عليها بنفسه، بقوله أنه لو نظر لحالك، لما كان عليه أن يسأل! وهذا يعني أنك تجسيد مطلق للصحة، ولكن مثل هؤلاء الأشخاص هم ببساطة من يضعون في الحسبان الآثار البسيطة للسؤال.

«أظنك مشغولاً؟»

«لماذا؟، نعم إلى حدٍ ما، أو بالأحرى لا، لدي وقتٌ للراحة ساعة في اليوم، وقد حان الوقت»

«أودُ سؤالك فيما إذا كان بإمكانك أن تُسدي إليّ معروفاً في قضية معينة»

وفي الحال أدرك تاورز من نبرة صوت صديقه، أن القضية المعنية لها علاقة بالصحيفة. فابتسم وأوماً برأسه، لكنه لم يعد صديقه بشيء.

«إنك تعرف بأمر هذه الدعوى القضائية التي انهمكتُ بإجرائاتها...» تحدث بولد.

ألمحَ توم تاورز إلى أنه كان على علم بإجراءات قضية المأوى.

«طيب، لقد قررتُ التنازل عنها»

رفع توم تاورز حاجبيه فحسب، أقحم يديه في جيوب بنطاله وانتظر صديقه ليقول ما عنده.

«نعم، لقد تنازلتُ عنها، لا أحبذ إزعاجك بسرد القصة كاملةً، لكن الحقيقة هو أن ردة فعل

السيد هاردينغ... السيد هاردينغ هو...»

فقاطعته توم تاورز قائلاً: «أوه نعم، سيد المكان، الرجل الذي يأخذ المال كله ولا يفعل شيئاً»

«حسناً، لا أدري. لكن ردة فعله بما يتعلق بالقضية كان ممتازاً جداً، يشوبه شيء من الأنانية لكنه بغاية الصراحة، لدرجة أنني لا أستطيع المضي قدماً في القضية بما يلحق الأذى به»

وما إن نطق بولد بذلك حتى ساورته المخاوف والظنون كما الحال مع إيانور، رغم ذلك أحس بأن ما قاله لم يجانب الصواب.

«أعتقد أنه ينبغي ألا نفعل شيئاً حتى يصير منصب الراعي شاغراً»

«وسيُشغل المنصب مرةً أخرى، سيُشغل كما ينبغي طبعاً قبل أن يسمع أي أحدٍ بالوظيفة الشاغرة إلا أن الاستشكال نفسه سيعود للظهور. إنها قصة قديمة لها علاقة بالحقوق المكتسبة لشاغل المنصب الحالي، ولكن لنفترض أن شاغل الوظيفة ليس له حق، وأن مساكين المدينة هم أصحاب حق مكتسب، وهم يتوقون لمعرفة كيفية الحصول على حقوقهم. أليس هذا هو الحال هنا؟»

لم يستطع بولد أن ينكر ذلك، لكنه أدرك أنها كانت واحدة من تلك القضايا التي تتطلب قدراً كبيراً من التدبير قبل أن يجرؤ على فعل شيءٍ حقيقي. من المؤسف أنه لم يفكر في ذلك قبل أن يُلقي بنفسه إلى التهلكة المتمثلة بمكتب محاماة.

«أخشى أن ذلك سيكلفك كثيراً»

«بضعة مئات، لربما ثلاثمئة... ليس بيدي حيلة. وأنا مستعدٌ للدفع»

«هذه ردة فعلٍ رصينة، إنه لأمرٌ لطيفٌ جداً سماع رجل يتحدث عن أمواله بطريقة غير مبالية تماماً، لكنني آسف لتنازلك عن القضية، فأنا يقرر المرء المضي في قضية من هذا القبيل ثم يتركها في وسط الطريق، شيءٌ مجحف. أقرأت ذلك؟»

ورمى كُتيباً صغيراً على الطاولة، كان قد وصل للتو من فرن المطبعة! لم يره بولد ولم يسمع عنه؛ ولكنه كان على معرفة تامة بمؤلفه: رجلٌ كانت منشوراته، التي تدين كل ما يحصل في هذا العصر، حديث الناس في الآونة الأخيرة. كان الدكتور بسمت أن تيكانت رجلاً أسكتلندياً⁵⁹. قضى جزءاً كبيراً من بواكير أيامه في ألمانيا؛ درس هناك بتأثير كبير، وتعلم أن

ينظرَ بدهاءٍ ألماني في جذور الأمور، وأن يدرس بنفسه قيمتها الجوهرية وتفاهتها. ما من أحد أبدى عزمًا أكثر شجاعة منه، في تلقي الشر على أنه خير، وإبعاد الخير عنه على أنه شر. أنه لأمرٌ مشيرٌ للشفقة بأنه لم يدرك حقيقة أن في هذا العالم، لا يوجد خيرٌ خالص، وما من شر ليس فيه بذرةٌ من خير.

بعد عودته من ألمانيا، أدهش القراء بقوة أفكاره التي طرحها بلغة عذبة. ذكر النقاد بأنه لا يستطيع الكتابة باللغة الإنكليزية. فقال محبوه: ليس مهمًا، يمكننا قراءة ما يكتبه دون أن نتأب. وهكذا أصبح الدكتور أنتيكانت مشهورًا. أفسدته الشهرة في كل منفعةٍ إضافية يتلقاها كما فعلت مع الكثيرين. إذ أنه وبشيءٍ من التردد، حصر انتقاداته على حماقات أو نقائص البشرية؛ عندما استهزأ بقدرات مالكي الضيعات المكروسة لصيد وذبح الحجول، وحين سخر من غلطة سيد ما يعمل في تحصيل الضرائب، والذي حوّل الشاعر إلى مقياس لبراميل البيرة⁶⁰. كان كل شيء يجري على خير ما يرام. يسعدنا أن يخبرنا الآخرون عن عيوبنا، ونتأمل خيرًا بأجيال الألفية القادمة، عندما يغدو الناس كلهم - بعد أن يكونوا قد درسوا أعمال الدكتور أنتيكانت دراسةً كافية - حقيقيون وناضون بالحياة. غير أن الدكتور أساء فهم مؤشرات الأزمنة وعقول البشر، ونصّب نفسه رقيبًا عليهم عمومًا، وشرّع بمهمته الكبرى المتمثلة في شجب كل شيء وكل شخص، بلا آمال طيبة بأيّ ألفية على الإطلاق. لم يكن ذلك شيئًا جيدًا، وبصراحة، لم يفلح صاحبنا المؤلف في أداء مهمته. كانت نظرياته رائعة كلها، وقواعد الأخلاق التي كرسها فينا كانت بالطبع تعزيزًا لعادات الزمن. بوسعنا جميعًا أن نتعلم الكثير من الدكتور والكثير منا قد تعلم فعلاً، في حين اختار هو أن يظل شخصًا مبهمًا، خفيًا، ومُغزًا. ولكن عندما أصبح شخصًا منطقيًا، تلاشى سحره. لقد تلقت انتقاداته للشاعر والحجول ترحيبًا كبيرًا، وجاء فيها:

«أوه، يا أخي المسكين، إنَّ قتل زوج من طيور الحجل بطريقة وحشية، طلقة بندقية لكل طير، وجعل الشعراء مقياسًا لبراميل الجعة، مقابل ستون جنيهًا سنويًا في سوق مدينة دومفريز ليست مؤشرات على عصر عظيم! لربما لأقصر حقبةٍ ممكنة مكتوب عنها حتى الآن. مهما كان النظام الاقتصادي الذي نسعى إلى إرسائه، سواء أكان سياسيًا أم غير سياسي، علينا أن نفهم بأنها من أكثر الأنظمة الاقتصادية الخاسرة، والمثيرة للسخط في آن واحد. فالحجول التي قتلها أسياد الأموال وأرضنا والتي تساوي جنيهًا لكل رأس، أمن المعقول أن يبيعها صائد

غير مشروع بالتجزئة في سوق ليد نهول بشلن واحد وتسعة بنسات لكل خمسين طائراً! وشاعرنا، مؤلفنا، مبدعنا، ومقياس الجعة عندنا، غير متفرغ للتأليف أو الإبداع، غير أنه يملك وقتاً قليلاً للشرب، وما شابه ذلك من هوايات برميل الخمر! أما مكعبات الثلج التي يضعها في كؤوس نبيذه، فإنه يُقَطِّعها بما كينة تقطيع فاخترة فيما نحلق ذقوننا بسكاكين صدئة وغير مريحة! أوه، يا أيها الخبير السياسي الاقتصادي، يا سيد الذخيرة والطلب وموزع الأعمال تحت الضغوط الكبيرة... أوه، يا ذا الصوت الجهوري، قل لي، إن كنتَ على هذا القدر الكبير من المزاي، فما هي ضرورة الشعراء في ممالك المملكة فيكتوريا هذه؟، وما هي الامتيازات الممنوحة لهم؟»

كان كل ما قيل مقبولاً، فقد منحنا شيئاً من الأمل. ولربما يكون حالنا أفضل مع شاعرنا القادم حين يصبح لدينا شاعراً. لكنهم قد لا يتركون طيور الحجل وشأنها، ولعلمهم يتخذون إجراءً حيال الصيادين غير الشرعيين. غير أننا لم نكن راغبين في تلقي دروساً في السياسة من مؤلفٍ غامض؛ وعندما جاء ليخبرنا أن الشخصيات البارزة في وستمنستر كانوا تافهين، بدأنا نفكر بأنه كتب كثيراً. اعتقد الدكتور بأن انتقاده للحقائب الدبلوماسية لم يتضمن الكثير⁶¹؛ ولكن بما أن انتقاده جاء مُقتضياً، فهذه فرصة الدكتور للإفصاح عن وجهات نظره من جديد. بإمكان أبعاد حد من العبقرية، تنظيم الروتين الحكومي، لكي ينفع بطريقة ما، البشر الذين يصارعون لالتقاط أنفاسهم، باستثناء الموتى. قد لا تبدو الحقائب الدبلوماسية ذات البطانة المخملية وأقفال جوب باهظة الثمن مصدر عزاء للشعب في الحالات القصوى! سوف أطلبهم أنا ومعهم الكثير من الناس كذلك، بلسان جاف أن يُحرِّكوا ساكناً، سأطالب اللورد جون راسل؛ أو نيابةً عن أخي بناءً على نصيحتكم، اللورد أبردين⁶² أو نيابةً عن ابن عمي، اللورد ديربي، كوني أنا صاحب اللسان اليابس، غير عابئٍ بمثل هذه الأسماء! كلمتنا واحدة. أووه يا إيرل ديربي! ويا غلادستون وبالمرستون!، أوه يا لورد جون! كل واحد منهم يأتي مسرعاً تعلق وجهه ملامح رائقة مصطحباً معه حقيبة دبلوماسية ستعالج هذه الفوضى! عجباً! هل من وجود الكثير من أمثال هؤلاء، ما من حقيبة دبلوماسية ستعالج هذه الفوضى! عجباً! هل هناك أسماء جديدة لسياسيين آخرين؟ تلاميذ لم يُثقلوا أرواحهم بالتعقيدات الروتينية للحكومة؟ حسناً، دعونا نطالبهم مجدداً: أوه يا بنجامين ديزرائيلي، أيها المعارض الكبير ذو الجبين المغضن! أوه يا نايجل مولسورث، أيها المصلح العظيم الذي بشر بالمدنية

الفاضلة⁶³ غير أن كل فردٍ منهم خرج مسرعاً بلامح الوجه الهادئة نفسها، كل فردٍ منهم -للأسف يا بلدي- كل واحد منهم يحمل معه حقيبة دبلوماسية!

أووهِ يا لهذا الهدوء في شارع داونغ!

«فيا أشقائي، حين يتلاشى الأمل في ميدان المعركة، ولا تبقى فرصةً واحدةً للنصر، سيُخفي الروماني القديم وجهه في رداءه الفضفاض، ويموت ميتةً هادئة. هل بوسعنا -أنا وأنت- أن نحذو حذوه في هذا الزمن؟ إن استطعنا فطوبى لنا، وإن عجزنا يا رفاق، فحريٌّ بنا أن نموت بطريقةٍ يندى لها الجبين. فلولا الأمل في الحياة والنصر، ما بقي لنا شيءٌ في هذا العالم. وأنا عن نفسي، لا أثقُ كثيراً بلامح الوجوه الهادئة والحقائب الدبلوماسية!»

قد يكون هناك حقيقةٌ في ذلك، لربما هناك دوافع عميقة، إلا أن أحداً من الإنكليز لم يرَ ما يكفي من البراهين لحثهم على سحب ثقتهم من الحكومة الحالية، كما أن كُتيب الدكتور أنتيكانت الشهري عن تدهور العالم لم يحظَ بقدرٍ كبير من الاهتمام كأعماله السابقة. لم يقتصر على السياسة في هذه الكُتبيات المنشورة، وإنما تناول جميع القضايا المتعلقة بالصالح العام، فأدرك أن كل شيء يجري على أسوأ ما يكون.

فحسب رأيه، ما من أحد صادق، وليس البشر وحدهم، بل كل شيء؛ ما من رجل يجرؤ على خلع قبعته لسيدة دون أن يكذب، وسوف تكذب المرأة بدورها، وهي تبتسم. التجعدات في قميص الرجل مملوءةٌ بالشر، والكشاكش في فستان المرأة منسوجٌ بالكذب. هل كان هناك أي شيء أكثر حدة من هجومه هذا على أصحاب القبعات القشبية؟، أو لعناته التي سعى بها إلى نفض الغبار عن باروكات الأساقفة؟

كان الكتيب الذي دفعه توم تاورز على الطاولة بعنوان «المؤسسات الخيرية الحديثة»، وقد كُتِبَ بهدف إثبات حجم الأعمال الخيرية التي قام بها أسلافنا، ومدى ضآلتها في العصر الحالي؛ وانتهى بمقارنة بين الأزمنة القديمة والحديثة، ولم ينسب إلا القليل من الفضل للعصر الحديث.

«ألتقِ نظرةً على هذا...» قال تاورز الذي نهض وهو يُقلِّبُ صفحات الكتيب، ويشيرُ إلى مقطع في نهايته تقريباً «أخشى أن صديقك الراعي -الأناي إلى حد ما-، لن يروقه ذلك»

وأخذ بولد يقرأ على النحو التالي:

«يا للسماء! يا له من مشهد! فلنُبصر بأعين مفتوحة على اتساعها، ذلك الرجل الصالح منذ أربعة قرون خلت، رجل الأزمنة المظلمة؛ فلنر كيف يقوم بعمله المقدس، ولنر كذلك، كيف يقوم الرجل التقي في أيامنا هذه بعمله. هل علينا القول أن الرجل الأول هو شخصٌ يحيا في هذا العالم مُعَدَّبًا، يراقب عمله الزمني كما يجب أن يعتني الإنسان الحريص بعمله، ويحصد نجاحاته كأني إنسان مجتهد، لكنه يرعى دائماً كنزه الثمين، حيث لا يتسلل إليه اللصوص ولا الصدا؟! 64»

ألا يحيط ذلك الشيخ قدرًا ساميًا من النبالة وهو يمشي متكأً على عصا من شجرة بلوط، في شوارع بلدته، ويتلقى التحايا الطيبة واعترافاً بقيمته من قِبَل الجميع؟ شيخٌ نبيل، أرقى من سكن في ميدان بلغريف وما يشابها في الجوار... عجوز في غاية النبل، مع أنه لا يعدو عن كونه عاملاً في ندف الصوف في تجارة الجملة.

والعمل في ندف الصوف هذا، كان يدرُّ ربحاً وفيراً في تلك الأيام، حتى أن أصحابنا العجوز قبل أن يموت، أوصى بلغة عامية معينة كانت سائدة آنذاك، وقسم ثروته بالحق: فيما يتعلق بذريته من الأولاد والبنات، فهناك مقومات وفيرة لقوتهم بفضل المصنع المخصص لهم؛ أما الأصدقاء والأقارب، فهناك قدر من المعونة كاعتذار على خساراتهم الفادحة؛ لراحة المسنين التابعين له في سنوات حياتهم الأخيرة. هذا كثير على عجوزٍ وحيد، كي ينجزه في ظلام القرن الخامس عشر! ولكن هذا لم يكن كل شيء فحسب: فعلى الأجيال القادمة من الندافين الفقراء أن يُمجّدوا اسم هذا الغني؛ ويجب تأسيس مأوى وتمويله من ثرواته لإعالة من لم يعد بإمكانهم إعالة أنفسهم كما يجب من خلال العمل بندف الصوف. وهكذا فإن رجلاً مسناً في القرن الخامس عشر أدّى مهامه الشبيهة بمهام الربّ بكل ما أوتي من قدرة وليس بحقارة كما يبدو لي.

أما رجلنا الثاني في هذه الأزمنة، لم يعمل في ندف الصوف، فمثل هؤلاء الرجال ما عادوا رجالاً لافتين للنظر اليوم. سوف نعتبره من خيرة الرجال الصالحين ممن لم تنقصهم الفُرص. كان صديقنا العجوز رجلاً أُمياً، أما صديقنا الحالي، من المفترض أنه تلقى تعليماً في أصناف المعارف كلها. أنه باختصار، قسّ في كنيسة إنكلترا. ما هي طريقته المثالية التي يُسخرها لإيجاز مهامه المقدسة واستخدامها لكامل قدرته؟! يا إلهي! يا لطريقته الغريبة... أوه يا أشقائي! طريقة لن يصدقها بشر على الإطلاق، باستثناء من يشهد بعينه أدق تفاصيلها!

إنه يؤدي عمله بحسب قوة شهيته... بحسب قدرته على الابتلاع! إذ أن مهنته الوحيدة هي ابتلاع الخبز المخصص بكل حُب، للمساكين العاملين في ندف الصوف، والإنشاد دونما اكتراث، بمساعدة أنفه بعض المزامير الطويلة مرةً في الأسبوع - قد تطول وقد تقصر - وبحسب اعتقادنا، كلما كانت أقصر كلما كانت أفضل بالنسبة له. أوه، يا أصدقائي المتحضرين! أيها البريطانيون العظام الذين لن يعيشوا عبيداً بالمرّة، شعبٌ بلغ مراحل لا حدود لها من الحرية ومعرفة الخير من الشر، أخبروني، أي نصبٍ سوف تشيدون لقسٍ على درجة عالية من التعليم في كنيسة إنكلترا؟»

أدرك بولد بأنّ ذلك لن يروق لصديقه يقيناً: فهو لم يفكر بشيء يرغب بحدوثه أقل من هذا. يا له من عالم من العناء والتعب أثارة هجومه الأرعن على المأوى!

«كما ترى، لقد تحدثت الناس كثيراً عن هذه القضية والجميع واقفون في صفك. إني آسف لأنك مضطراً للتنازل عن القضية. هل اطّلت على الطبعة الأولى من رواية مأوى الفقراء؟»

لا، لم يطلع بولد على رواية مأوى الفقراء. لقد شاهد إعلانات لرواية جديدة للسيد بيبولار ستمتت بحمل نفس الاسم، لكنه لم يربطها بمأوى بارچستر، ولم يفكر للمحظة في هذا

الموضوع 65

«إنه هجوم مباشر على النظام بأكمله، وسيقطع شوطاً طويلاً للإطاحة بروتشستر وبارچستر وكلية دولويتش وسانت كروس، وجميع مراتع السرقات هذه. من الواضح جداً أن السيد ستمتت قصد بارچستر، واستلهم القصة بأكملها من هناك. في الواقع، خيّل لي بأنه حصل على معلومات القضية منك، لقد كتبها ببراعة، كما سترى. مؤلفاته في الصدارة على الدوام»

أكد بولد أن السيد ستمتت لم يحصل على شيء منه، وأنّ الأسى يحز في نفسه لمعرفة أن القضية باتت مشهورة بسوء السمعة لهذا الحد.

«لقد بلغت نيران القضية حدّاً لا يمكن معه إخمادها، لا بد أن ينهد الصرح وبما أن ألسن النار طالت كل شيء، فأنا مضطراً للقول بأنه كلما كان ذلك أقرب كلما كان أفضل، حسبتي أراك وأنت تحصد شهرة النجاح من خلال هذه القضية»

كان وقع ذلك على نفس بولد شديد المرارة، لقد فعل ما بوسعه لجعل صديقه الراعي بائساً مدى الحياة، ثم تراجع بكل بساطة، عندما وصل نجاح مشروعهِ حدّاً واضحاً ليُجعل القضية

ذات أهمية حقيقية.

كم بدا عاجزاً في التعامل مع قضيته! كان قد فاقم الضرر أصلاً، ثم كفّ أذاه عندما بات قاب قوسين أو أدنى من النتيجة التي كان يروم إليها. كم سيكون رائعاً لو أنه وظف كل قدراته في تلك القضية بحيث تحظى بدعم صحيفة المشتري، ويتولى الكتابة عنها اثنان من أكثر المؤلفين شهرةً في ذلك الوقت! إذ فتحت الفكرة آفاقاً إلى العالم ذاته الذي كان يرغب في العيش فيه. ماذا سيخسر إن تنازل عن القضية؟ أي صحبةٍ مبهجة؟ أي ثناءٍ علني؟ أي المآدب الأثينية والنكهات الغنية بخفة الظل والبدئية؟ إلا إن هذا الأمل قد فات أوانه الآن، لقد تعهد بالتنازل عن القضية؛ فهل يُعقل أن ينسى تعهده بالتنازل وقد فات أوان التراجع عنه؟ كان في تلك اللحظة، جالساً في غرفة توم تاورز بهدف الاعتراض على أيّ مقالاتٍ أخرى في صحيفة المشتري، وبما أنه يمقت هذه المهمة إلى حدٍ كبير، لا بُد من المضي في عزمه.

«لا يسعني المضي قدماً في القضية لأنني اكتشفتُ بأنني كنتُ مخطئاً»

هزّ توم تاورز كتفيه مستغرباً، كيف لرجلٍ ناجح أن يكون مخطئاً؟ فأجابه: «في هذه الحالة، عليك بالتنازل طبعاً»

«وزرتك هذا الصباح لأطلب منك عدم كتابة المزيد عن هذه القضية»

«تطلب مني!» قال توم تاورز، وعلت وجهه ابتسامةً واضحة، ونظرةً مثالية توحى بشيء من الدهشة، كما لو كان توم تاورز يدرك جيداً أنه من بين كل الرجال، كان آخر من يتدخل في مثل هذه القضايا.

«بلى...» رد بولد، الذي كان يرتعش من التردد وأردف قائلاً: «كما تعرف، تناولت صحيفة المشتري هذه القضية بشكلٍ كبير وبكل ما تملك من قوة. لقد عنى السيد هاردينغ ما قاله إلى حدٍ كبير، فحسبتُ أنه لو كان بإمكانني التوضيح بأن السيد هاردينغ - شخصياً - لم يكن المسؤول عن كل ما حدث، فقد يتم الحد من كتابة هذه المقالات»

كم بدت ملامح وجه توم تاورز جامدةً حين طرح بولد هذا الاقتراح الساذج! فلو خاطب بولد عضادات بوابات جبل أوليمبوس، لكانت قد أبدت الموافقة أو المعارضة بإشارةٍ أوضح. كان سكونه جديراً بالإعجاب، وفطنته تفوق مقدرة البشر على ذلك يقيناً.

عندما فرغ بولد من الحديث تماماً أجابه تاورز قائلاً: «صدقاً لا يمكنني محاسبة صحيفة

المشتري يا عزيزي»

«ولكن إن أدركتَ بأن هذه المقالات مجحفة، فأعتقد بأنك ستسعى جاهداً للحد منها. لا أحد يشك في قدرتك على ذلك، لو شئتَ طبعاً»
«لما كان الأشخاص المعروفون والمجهولون لطفاء لكنهم ولسوء الحظ، مخطئون عادةً»

«بحقك يا تاورز،» قال بولد وهو يستجمع شجاعته، متذكراً أنه لا بد أن يبذل قصارى جهده من أجل إيلانور، «لا يساورني أدنى شك بأنك كتبتَ المقالات بنفسك، وكتبتها ببراعة فائقة، ستُسدني معروفاً كبيراً إذا تجنبتَ - مستقبلاً - كتابة أي تلميح شخصي لهاردينغ المسكين»

«عزيزي بولد، أنا أكن لك أصدق مشاعر الاحترام، إنني أعرفك منذ سنوات عديدة وأقدر صداقتك، وأرجو أن تسمح لي بأن أشرح لك من غير أن تأخذ على خاطرِك، بأن ما من أحد يعمل في الصحافة الرسمية، يملك صلاحية التدخل»
«التدخل، لكني لا أقصد التدخل!»

«آه، لكنك تقصد التدخل يا صديقي العزيز، ماذا تُسميه إذن؟ أنت تعتقد بأنني قادر على إبقاء بعض الآراء بعيدة عن رقابة الصحف، لعل معلوماتك مغلوطة، كحال الكثير من الإشاعات التي يطلقها القاصي والداني على مثل هذه القضايا. لكن، على أي حال... أنتَ تظني أملك سلطة كهذه، وتطلب مني استخدامها: هذا هو التدخل بعينه»
«طيب، سمّه تدخلًا إن شئتَ»

«والآن لنفترض بأنني أمتلك مثل هذه السلطة واستخدمتها كما تشاء، أليس من الواضح أن هذا سيكون استغلالاً كبيراً؟ يتم توظيف أناس مُعينين للكتابة في الصحافة الرسمية. وإذا ما دفعهم أحد للكتابة أو الامتناع عن الكتابة لأجل دوافع خاصة، فستغدو الصحافة الرسمية بلا قيمة عما قريب. لاحظ قيمة مختلف الصحف المعروفة، وانظر فيما إذا كانت لا تُعول على الاطمئنان الذي يشعر به جمهورها بأن مثل هذه الصحيفة مستقلة أو غير مستقلة بشكلٍ أساسي. لقد ألمحتَ إلى صحيفة المشتري؛ بالتأكيد لا يسعُك إلا أن تعترف بأن وزن صحيفة المشتري كبير بحيث لا يمكن أن تتأثر بأي مطلبٍ خاص، مع أنه ينبغي أن يتم تقديم الطلب إلى مسؤول أعلى شأنًا مني. ليس عليك سوى أن تفكر في الأمر، وستدرك بأنني على حق»

إنَّ فطنة توم تاورز لا حدود لها، لم يكن ثمة ما يتناقض مع ما قاله، ولا جدال في قضايا كهذه. وهو يتصفُ بمزايا أخلاقية عالية لا مجال للتغاضي عنها.

«ينخدع الناس للاحتيال كلما سمحوا للاعتبارات الخاصة بأن تكون ذات شأن» قال توم

تاورز

صحيحٌ تمامًا، إنَّكَ أعظمُ مُشاوِرٍ حكيمٍ في منتصف القرن التاسع عشر، أيها المنادي بنزاهة الصحافة! ينخدع الناس حين يتم تضليلهم عن عمد. يا للشعب المسكين! كم مرة تعرَّض للتضليل؟! أمام أيِّ عالمٍ يعجُّ بالمحتالين يجب أن يقفَ الشعبُ مناضلاً؟!!

انصرف جون بولد وخرج من الغرفة بأسرع ما يمكن، وهو يشجب موقف صديقه بينه وبين نفسه، واصفًا إياه بالمحتال المزهو بذاته.

«أعلم أنه كتب تلك المقالات وأنه حصل على معلوماته مني. كان على أتم الاستعداد للأخذ بكلامي ما إن يتفق مع وجهات نظره الخاصة. لقد وصف السيد هاردينغ للناس كمحتال دون الاعتماد على شهادةٍ أخرى غير حديثي الذي خضتهُ معه بالصدفة! ولكن حين أُقدِّم له أدلة حقيقية تعارض وجهات نظره الخاصة، يخبرني بأن الدوافع الشخصية تسيء إلى العدالة العامة! عجيبٌ غروره! أيُّ شأنٍ عامٍ يرمي إليه غير مجموعةٍ من المصالح الشخصية؟ وعن أيِّ المقالات في الصحف يتحدث غير تلك المنشورة عن وجهات نظرٍ مأخوذة من جانبٍ واحدٍ؟ الحقيقة! سيستغرق الأمر ردحًا من الزمن للتحري عن حقيقة أي قضية! تنصب فكرة توم تاورز على الدوافع العامة وصدق النوايا! عجبًا!، إن معتقداته هذه لن تُثير بداخله لحظةً واحدة من القلق لتغيير سياسته مستقبلاً، إن طلبت الصحيفة منه ذلك!»

كانت هذه هي علامات التعجب التي تعتمل في نفس بولد وهو يشق طريقه خارج المتاهة الهادئة للمعبد، ومع ذلك، ما كان يوجد منصب لسلطة دنيوية يبتغيه طموح بولد كالمنصب الذي يشغله الرجل الذي كان يفكر فيه. كانت قوة المنصب هي ما جعلت بولد يتميز غضبًا من مالكة، والميزة نفسها، جعلته يبدو المنصب المنشود.

خلال مروره بشارع ستراند في مدينة وستمنستر بوسط لندن، رأى إعلانًا معلقًا على نافذة مكتبة عن الطبعة الأولى من رواية «مأوى الفقراء»؛ لهذا دلف وابتاع نسخةً، وقفل عائداً إلى مسكنه، ثم شرع في القراءة للتحقق مما كتبه السيد بيولار للناس حول القضية التي كانت قد استحوذت مؤخرًا على الكثير من اهتمامه.

قديمًا، تتحقق الأشياء العظيمة من خلال العمل الدؤوب. عندما حان الوقت لوضع حدٍّ للشرور، شرع المصلحون في مهمتهم الشاقة بانضباطٍ بالغٍ وحماسٍ اقتضى تحصيلها جهدًا جهيدًا. كان يستحوذ على الناس في ذلك الزمن، قضية إظهار المظالم، فطُبعت الأبحاث الفلسفية في صفحات كتاب فوليو كبير الحجم ⁶⁶، استغرق كتابتها حياة كاملة، ويستغرق قراءتها الأبدية. إننا نمضي حياتنا اليوم بخطى واضحة وسريعة. واتضح أن خفة روح المرء تحل أخطر المشاكل بأسرع الطرق، وأن السخرية أكثر إقناعًا من الجدل، وأن العذابات الخيالية تحرك المشاعر أكثر من مصائب الحياة الواقعية، وأن الروايات الشهرية تُقنع، عندما تفشل كُتبيبات الثماني صفحات التعليمية في ذلك. وإذا كان لا بد من استقامة العالم، فعلى الناس إنجاز أعمالهم بأجور زهيدة.

من بين هؤلاء الأشخاص المصلحين، كان السيد سنتمنت الأكثر تأثيرًا، إذ إن أحدًا لن يصدق حجم المفساد التي قضى عليها. حتى إننا نخشى أن يفتقر قريبًا إلى المواضيع التي يكتب عنها، حين يوفر حياةً مريحة للطبقة العاملة، وحين يضع البيرة اللاذعة في زجاجات مناسبة بحجم نصف لتر، فلن يتبقى له شيء آخر ليفعله. لا جرم أن السيد سنتمنت عزيز الجانب، ولا يقل رفاقه المساكين الطيبين عنه في ذلك، فهم طيبون جدًا، رفاقه الأثرياء السيئون، سيئون للغاية، أما النزهاء حقًا، فهم مثالٌ للصدق والنزاهة. في تلك الأيام، ذوو الإرادة الضعيفة لا يُنبذون إذا ما وُضِعوا في المكان المناسب.

لم تعد زوجات النبلاء أو أراملهم، موضع اهتمام، على الرغم من كونهن نزيهات، فلاحٌ نموذجي أو بطل مبتدعٌ نظيف قد يتحدثان بنفس القدر من الهراء كما يتحدث إحدى بطلات السيدة رادكليف ⁶⁷، ما يزالان جديرين بالإصغاء. بيد أنه قد تكمن قوة الإعجاب الكبيرة بالسيد سنتمنت في شخصياته الثانوية، لأنه لو بنى أبطاله وبطلاته على ركائز متينة، كما ينبغي للأبطال والبطلات، فأخشى أن يبدو المرافقون المصاحبون لهم، أناسًا طبيعيين كما لو أن المرء صادفهم وهم يمرون في الشارع ويتحدثون كما الرجال والنساء، ويعيشون بين أصدقائنا حياةً رائعةً مفعمةً بالنشاط. نعم، يعيشون، وسوف يعيشون حتى تُنسى أسماء ألقابهم في أدوارهم الخاصة، ولن يبقى سوى اسمي السيد بوكيت والسيدة غامب للإشارة إلى مُخبر شرطة وممرضةٍ شهرية ⁶⁸.

أُفْتُتِحَتْ رواية مأوى الفقراء بمشهدٍ في منزل قسيس، حيث يرسم لنا المؤلف في هذا المنزل، مظاهر الترف الذي يمكن ابتياعه عن طريق الثروات، كل مظهر من مظاهر الدلال المنزليّ الموجودة بين أكثر الأثرياء انغماساً في الملذات كانت ماثلةً في ذلك المسكن. وهنا، يقوم بتعريف القارئ على شيطان الرواية، إبليس الحدث الدرامي. أيّ قصة مكتوبةٍ خلت من الشيطان؟ أيّ رواية، أيّ تاريخ، أيّ عمل من أيّ صنف، أي عالم سيكون كاملاً من غير مبادئ قائمة على الخير والشر؟ كان إبليس رواية «مأوى الفقراء» هو المالك الكهنوتيّ لهذا المسكن الرحاح!

كان رجلاً طاعناً في السن، غير أنه ما برح قوياً على اجتراح البلايا والسيئات. كان ضعيف الرؤية، ذا عينين مرهقتين مشبوبيتين بالعاطفة، أنفه كبير محمرّ تعلوه دُمْلَةٌ، شفتاه ممتلئتان، ويملك ذقناً مزدوجاً ومترهلاً، يتورم إلى شيء أشبه بعُرف الديك الروميّ حين تُداهمه نوبة غضب مبالغته. جبينه مغضنٌ يوحي بشخصية متوترة دائمة التفكير، يلتصق عليه بعضاً من خصل شعره الأشيب بسبب الاحتكاك مع وشاحه، إذ كان يضع وشاحاً أبيضَ فضفاضاً غير منسّى، ويرتدي ملابس سوداء واسعة سيئة الخياطة، ويحتذي حذاءً ضخماً كبيراً، صنّع بطريقةٍ بحيث توائم حدوث مسامير في الأقدام أو أيّة التهابات في إبهام القدم. صوته الأَجَش يروي قصصاً عن عاداته اليومية في ارتشاف نبيذ بورت البرتغالي. لم يكن أسلوبه لائقاً ليُقبل كرجل دين.

هكذا كان بطل رواية «مأوى الفقراء» للسيد ستمنت. كان رجلاً أرمل، له من الذرية ابنتان، ويجاوره راعي أبرشية مُبتدّل ونحيل إلى حد ما. كانت إحدى البنيتين متعلقةً بوالدها وبالعالم الموضّعة، وكانت البنت الأثيرة لدى والدها بالطبع؛ بينما كانت الأخرى مولعةً بحركة أكسفورد⁶⁹ وبراغي الأبرشية على حدٍ سواء.

ثم وبطبيعة الحال، بدأ الفصل الثاني يُعرّف القراء إلى النزلاء الأكثر أهمية في المأوى. حيث يلاحظ القراء ثمانية رجال مسنّين، وجعل القراء يفهمون بأنّ هناك أربع عُرفٍ ظلت شاغرةً بسبب سوء تصرف الكاهن ذي الذقن المزدوج. كان هؤلاء المُعدّمون الثمانية في حالة يرثى لها، إذ كان يتلقى كل فردٍ منهم نصف شلن يومياً عند تأسيس المأوى بما يكفي لإطعامهم، وما يزال قدرهم يحكم عليهم بالتضور جوعاً - بعد كل ذلك الوقت - إذ زادت كلفة الطعام بأربعة أضعاف وأصبحت العملات النقدية ذات قيمة أعلى.

وكان من المثير للصدمة أن يعرف القراء كيف تسببت أحاديث هؤلاء الثمانية من المسنين الجائعين وهم في مهجعهم بالعار الذي لحق بعائلة القسيس وهم في غرفة جلوسهم الفارهة. لربما الكلمات الحقيقية التي نطقوا بها لم تكن بلغة إنكليزية بحثة، وقد يكون من الصعب التمييز بين لهجتهم وبين الجزء الذي ينتمون إليه من البلد؛ إلا أن صدق المشاعر يُكفّر عن عيوب اللغة بما فيه الكفاية. كان من المؤسف حقاً أن هؤلاء المسنين الثمانية لا يمكن إرسالهم كمبشرين أخلاقيين في أنحاء البلاد، بدلاً من حبسهم وتجويعهم في ذلك المأوى اللعين!

أنهى بولد الرواية؛ وعندما وضعها جانباً، ظن أن هذه الرواية - على الأقل - لم تنطو على إشارة مباشرة للسيد هاردينغ، وأن السمات العبثية الحادة لرمزية الشخصيات من شأنها أن تُعطل العمل الأدبي عن هدفه بتقديم الخير أو إلحاق الأذى. إلا أن بولد كان مخطئاً، ينبغي على صاحب الموهبة الإبداعية الذي يكتب من أجل الملايين، توظيف شخصيات ذات سمات حادة، إذ ما من أحد أدري من السيد سنتمنت حين وصف سكان مأواه في روايته، والإصلاح الجذري الذي اجتاحت مثل هذه المؤسسات اليوم، مدين للطبعات العشرين من رواية السيد سنتمنت، أكثر من جميع الشكاوى الحقيقية التي غابت عن أذهان الناس على مدى نصف القرن الماضي.

إشارة ضمنية إلى توماس كارلايل الكاتب الأسكتلندي والمؤرخ والناقد الساخر والمترجم المعروف للأدب والفلسفة الألمانية وعلى رأسها أعمال غوته، وكانت موضوعاته الروائية شهيرة بانتقاداته اللاذعة للأرستقراطيين الفارغين، والكُتّيب في هذه الفقرة هو كتاب كارلايل الذي يحمل عنوان منشورات الأيام الأخيرة.

محاكاة ساخرة من كتابات كارلايل في العقد الأكثر تأثيراً له، أربعينيات القرن التاسع عشر، وهي إشارة للشاعر الأسكتلندي روبرت برنز (1759 - 1796)، الذي شغل وظيفة مُحصل ضرائب في دومفريز في السنوات السبع الأخيرة من حياته.

ترولوب يشير إلى هجاء كارلايل الشديد لما رآه ظلم وظلامات سياسية واجتماعية ودينية في تلك الفترة في عمل كارلايل الذي يحمل عنوان «منشورات الأيام الأخيرة» أو «كُتّيبات الأيام الأخيرة»

جورج هاملتون غوردون، الملقب أيضاً باسم إيرل أبردين الرابع هو رجل سياسة، ودبلوماسي، ومالك أراض اسكتلندي، كان عضواً في حزب المحافظين، ثم سياسياً محافظاً، ثم انضم إلى فصيل البلتيز المنشق عن الحزب المحافظ. أما إيرل ديربي فهو رئيس وزراء محافظ مؤيد للسياسة الحمائية

بنجامين دزرايلي 1804 - 1881، لورد بيكو نسفيلد السياسي البريطاني، وزعيم حزب المحافظين، ورئيس وزراء بريطانيا. السير ويليام مولسورث 1810 - 1855، سياسي بريطاني راديكالي، خدم في حكومة ائتلاف إيرل أبردين من كمفوض أول للأعمال ثم وزير الخارجية لشؤون المستعمرات..

انظر إنجيل متى الاصحاح 6: 19، 20

إشارة لتشارلز ديكنز ورواية (البيت الموحش) التي تتناول قضايا الفساد المؤسساتي وإصلاح القضاء الانكليزي. تُعد محاكاة ترولوب الساخرة لديكنز ذات طبيعة عامة أكثر.
أوراق فوليو: ورقة مطوية مرة واحدة تعطي أربع صفحات
مؤلفة «أسرار أدولفو» 1794. وهي معروفة بأنها رواية ذات جو رومانسيّ يغلب عليها الجو القوطي وتفتقر إلى الوصف الواقعي
السيد بوكيت شخصية محقق شرطة في رواية البيت الموحش والسيدة غامب ممرضة في رواية مارتن تشاغوتيت لتشارلز ديكنز
حركة أكسفورد هي حركة لأعضاء الكنيسة العليا في كنيسة إنكلترا والتي تطورت في نهاية المطاف إلى الأنجلو- كاثوليكية. دافعت الحركة، التي كان أتباعها الأصليون مرتبطين في الغالب بجامعة أكسفورد، عن إعادة بعض التقاليد المسيحية القديمة للإيمان وإدماجها في الليتورجيا واللاهوت الأنجليكانية.

الفصل السادس عشر: يوم طويل في لندن

كان على الراعي الاستفادة من كامل قدراته المحدودة في الخطط كي يفلت من صهره ويخرج من بارچستر دون أن يعترض طريقه أحد. لم يهرب تلميذ قط من المدرسة مسلحاً بالكثير من التدابير الاحتياطية خوفاً من العثور عليه كما فعل السيد هاردينغ! لم يتسلل مدان من فوق سور السجن يوماً خشية أن يراه السجناء أكثر من خشية السيد هاردينغ رؤيته لصهره وهو يقود عربته إلى محطة القطار في صبيحة هروبه إلى لندن.

في الليلة التي سبقت سفره، كتب خطاباً إلى رئيس الشمامسة يوضح فيها أنه ينبغي أن يبدأ رحلته في الغد، وأنه يعترم مقابلة المحامي العام إن استطاع، وأن يتخذ قراراً بشأن خطته المستقبلية وفقاً للرد الذي سيسمعه من ذلك السيد المحترم؛ واعتذر للدكتورغرانتلي عن عدم تقديمه إشعاراً مسبقاً بقراره، متذرعاً بأنه كان قراراً مفاجئاً جداً؛ وبعد أن أوكل أمر إرسال هذا الخطاب إلى إيانور، مع يقينه التام، وإن لم يكن صريحاً، بأنه سيتم إرسال الخطاب إلى أسقفية بلومستيد من غير عجلة. ثم، غادر.

كما أعدّ وحمل معه مذكرة للسير أبراهام هابهازد، ذكر فيها اسمه، موضحاً أنه كان المدعى عليه في قضية «جلالة الملكة نيابة عن الندافين من بارچستر ضد الرعاة بموجب وصية الراحل جون حيرام»، كما كان عنوان الدعوى المرفوعة ضده، وطلب من السيد ذائع الصيت والمحترم رفيع المستوى أن يؤمّن له عشر دقائق لمقابلته في أي وقت من اليوم التالي.

قدّر السيد هاردينغ أنه سيكون بما من في ذلك اليوم، إذ لم يكن لديه شك في أن صهره سيصل إلى المدينة بالقطار المبكر، ولكن ليس مبكراً بما فيه الكفاية للوصول إلى الراعي الهارب حتى يفرّ من الفندق بعد تناول وجبة الإفطار، وإن استطاع مقابلة المحامي العام في ذلك اليوم نفسه، فيمكن أن ينجز مهمته قبل أن يتدخل رئيس الشمامسة. فغادر الراعي بمجرد وصوله إلى المدينة كما هي عادته، ثم توجه إلى فندق ومقهى جابتر القريب من منطقة كنيسة القديس بولس. لم تكن زيارته إلى لندن متكررة في الآونة الأخيرة؛ غير أنه في تلك الأيام السعيدة عندما كانت أخبار ألحان هاردينغ الكنسية تنساب إلى الصحافة، كان يكرر زيارته في كثير من الأحيان. وبما أن دار النشر كانت في شارع باترنوستر رو، والصحافة

المطبوعة في شارع فليت، فإن فندق ومقهى چابتر كان المكان المناسب بالنسبة له. كان نُزلاً هادئاً، تَعَلَّبُ عليه أجواءٌ دينيةٌ كثيفة، تطيب لشخصية الراعي، وبالتالي أخذ يتردد عليه فيما بعد. ولو تجرأ، لغادر في مثل هذا اليوم إلى مكانٍ آخر ليعبد رئيس الشمامسة عن دربه؛ لكنه يجهل الإجراءات الشرسة التي قد يتخذها صهره من أجل استعادته إن لم يعثر عليه في هذا المكان الذي يتردد عليه كثيراً بالعادة، واعتبر أنه من غير الحكمة أن يجعل من نفسه هدفاً للبحث في أنحاء لندن كلها.

وصل إلى نُزله، وطلب العشاء، ثم غادر إلى مقر مكاتب المحامي العام. وهناك علم بأن السير أبراهام كان في البلاط الملكي، وأنه لن يعود في ذلك اليوم على الأرجح، بل سيتوجه مباشرة من البلاط الملكي إلى المجلس النيابي. وأخبره بأن المواعيد كلها تُؤخذ في المكتب كقاعدة عامة. ومهما يكن من أمر، يتعذر على العامل أن يعدهُ بإجراء مقابلة في اليوم التالي. ومن ناحية أخرى أخبره، بأن مثل هذه المقابلة كانت حسب اعتقاده، مستحيلة؛ ولكن السير أبراهام سيكون بالتأكيد في المجلس النيابي خلال الليل، حيث قد يحصل على جواب شخصيٍّ منه. فقصد السيد هاردينغ المجلس النيابي وترك خطابه دون أن يجد السير أبراهام هناك وأضاف توسلاً مشيراً للشفقة في الخطاب بأنه يُمني النفس بجواب المحامي العام في ذلك المساء الذي سيعود فيه. ثم قفل عائداً إلى نُزل چابتر والحزن رفيقه، ينظم أفكاره الكبيرة بقدر ما يستطيع وهو يجلس في حافلة محشوراً بين سيدة مسنة كثيفة وعاملٍ متنقل في تركيب الزجاج عائداً من عمله ومعداته في حجره.

وفي وسط تلك الوحدة القابضة للنفس، التهم بشهيةٍ قطعته من لحم الضأن ونصف لتر من نبيذ بورت البرتغالي. أيّ عشاءٍ في هذا العالم أشد كآبة من هذا العشاء؟ فالمرء الذي يتناول عشاءه وحيداً في فندق ريفيٍّ قد يستحق النشاط بعض الشيء، إذا كُنتَ شخصياً معروفة، سوف يُحيطك النادل بعناية فائقة، سوف ينحني لك مالك المبنى احتراماً ولربما، يضع طبقاً الخاص من السمك على المائدة بنفسه. إن رنَّ جرسك سوف يلبون النداء. ثمة شيءٌ من الحياة في الأمر. إن تناول العشاء بمطعمٍ في لندن مفعمٌ بالحياة بما فيه الكفاية حتى وإن لم يكن للمكان جاذبية، إذ يحيط به ما يكفي من الضجيج والحراك والدوامة السريعة للأصوات وجلجلة الأطباق التي تُبدد الحزن. لكن عشاء انفرادياً في نُزل عتيق، كئيبٌ، لكن محترم في لندن حيث لا أصوات سوى صرير أحذية النادل العجوز، الذي يرفع صحناً بخطى وثيدة

ويضع صحنًا آخر بيضاء وبلا صوت، ويفكر عددٌ من الزبائن في طرح بعضهم أَرْضًا أثناء الحديث؛ ويتبادل الخدمُ الأحاديث همسًا، وينزعج نزلء المكان إذا صدر أمر بصوت عالٍ. أيُّ شيءٍ يبعث على الكآبة أكثر من تناول لحم الضأن ونصف لتر من نبيذ بورت في مثل هذا المكان؟!

بعد أن انتهى السيد هاردينغ من طعامه، استقل حافلة أخرى قاصدًا المجلس النيابي من جديد. نعم، كان السير أبراهام هناك، وكان في تلك اللحظة واقفًا على قدميه، يكافح بكل ما يملك من حرص، من أجل البند رقم ١٧ من مسودة مشروع قانون رعاية الأديرة. تم تسليم خطاب السيد هاردينغ إليه وإذا كان السيد هاردينغ سينتظر حوالي ساعتين أو ثلاث، فيمكن أن يُسأل السير أبراهام عما إذا كان سيبحث إليه بجواب. لم يكن المجلس مكتظًا، ولربما يحصل السيد هاردينغ على حق الدخول إلى قاعة الغرباء⁷⁰ التي يُسمح بالدخول إليها بعد أن يدفع خمسة شلنات، والسيد هاردينغ كان قادرًا على دفعها.

تمت قراءة مشروع قانون السير أبراهام هذا للمرة الثانية وتم تمريره إلى اللجنة. وقد نوقشت بالفعل مئة وستة بنود ولم تستغرق سوى أربع جلسات صباحية وخمس جلسات مسائية. تم تمرير تسعة بنود من أصل مئة وستة، وتم سحب خمسة وخمسين بالمصادفة، وتعديل أربعة عشر منها حتى تعني عكس المشروعات الأصلية، وتأجيل أحد عشر بندًا للمزيد من الدراسة والبحث ورفض سبعة عشر بندًا فورًا.

أقرت المادة السابعة بعد المئة بتفتيش الراهبات فيما يتعلق بموضوع الرموز اليسوعية على يد القساوسة المسنين، واعتُبر ذلك الدعامة الأساسية الحقيقية لمشروع القانون بأكمله. لم يكن هناك أي نية لتمرير مثل هذا القانون المقترح على الإطلاق ولكن الحكومة لا ترغب بتركه حتى يتحقق غرضها بالكامل من خلال مناقشة هذا البند. فمن المعروف أن الأعضاء البروتستانت الأيرلنديين سوف يستقبلون هذا القانون بحماسةٍ لا مثيل لها، فيما سيستجبه الروم الكاثوليك بشدة. وأُعتبر بحق أنه لن يكون من الممكن مواصلة الاتحاد بين الطرفين بعد هذه المعركة! وقع الإيرلنديون الأبرياء في الفخ كما هي عادتهم! وأصبح الويسكي وقماش البولين بمثابة العقار في السوق.

نجح رجل من جنوب أيرلندا مُتَوَرِّد الوجه وذو شعرٍ جميل، في لفت انتباه المستشار بنفس الوقت الذي دخل فيه السيد هاردينغ إلى قاعة الغرباء، وراح يستذكر مقترح تدني س

المقدسات، وقد ارتسم على وجهه علامات حنقٍ متكلفة.

«أهذه بلاد مسيحية؟» قال الرجل، فارتفعت هتافات صاحبة، هتافات مناهضة من جهة المقاعد الوزارية، ثم جاءت أصوات من الممر بين صفوف المقاعد: «يشك البعض في ذلك»

«كلا، من غير المعقول أن تكون بلاداً مسيحية، حيث يستطيع نقيب المحامي أو المستشار القانوني (أصوات ضحكٍ عالية وهتافات)، بلى وأجزم القول «المستشار القانوني لجلالة الملكة» (ضحكات وهتافات مطوّلة) أن يقف عن كرسيه في هذا المجلس وأن يسعى لإضفاء طابع قانونيٍ لاعتداء مشين على أجساد الراهبات!» (وتعالت من جديد هتافات وضحكات تصم الآذان، طالت حتى عاد العضو المحترم مكانه)

وبعد أن استمع السيد هاردينغ إلى هذه المشادات، وأكثر من ذلك لما يقارب ثلاث ساعات، عاد أدراجه إلى بوابة المجلس حيث استلم من الساعي خطابه، مخربشٌ على الجزء الخلفي من الظرف بالقلم الرصاص الكلمات التالية:

غداً، العاشرة مساءً، في مكنتي،

التوقيع

أ. هـ

حتى الآن، تكلفت مساعيه بالنجاح، ولكن، العاشرة مساءً؟! يا له من وقتٍ يبعث على العجب ليُحدده السير أبراهام لإجراء مقابلة قانونية! إذ كان السيد هاردينغ على ثقة تامة بأن الدكتور غرانتلي سيصل لندن قبل ذلك الوقت بفترةٍ طويلة، غير أنه لن يعلم بأمر توقيت هذه المقابلة، كما لن يستطيع معرفة ذلك ما لم يتمكن من التواصل مع السير أبراهام قبل الموعد المحدد؛ وبما أن هذا شيءٌ مُستبعد، قرر السيد هاردينغ أن يخرج من نُزله في وقت مبكر، تاركاً ملاحظة بأن عليه تناول عشائه خارجاً فقط، وما لم يتأمر حظه عليه، فلعله يظل هارباً من رئيس الشمامسة حتى عودته من مكتب المحامي العام.

كان يتناول وجبة الإفطار في التاسعة، وهو يُراجع للمرة العشرين جدول برادشو الزمني للسكك الحديدية⁷¹ لمعرفة أقرب ساعة يمكن أن يصل فيها الدكتور غرانتلي من بارچستر. وفيما كان يتفحص الجدول، كاد أن يُشل رعباً من التفكير في أنه قد يسافر على متن قطار

نقل البريد الليلي! فغاص قلبه في صدره من جسامة الفكرة، وشعر للحظة أنه سيُجرُّ مرة أخرى إلى بارچستر دون إنجاز أدنى قدرٍ من هدفه. ثم تذكر أنه لو سافر الدكتور غرانتلي بقطار نقل البريد الليلي، لوصل إلى الفندق، ولبحث عنه منذ وقتٍ طويلٍ.

«أيها النادل،» قال السيد هاردينغ متردداً، فاقرب النادل، وهو يقطع بحذائه، لكن بصوتٍ خافت.

«هل وصل أي سيد... أو رجل دين، إلى هنا بقطار البريد الليلي؟»

فهمس النادل قائلاً: «لا يا سيدي، لا أحد» وهو يُقرب فمه من أذن الراعي.

اطمأن قلب السيد هاردينغ، فنادى على النادل مرة أخرى، وعاد النادل يقطع بحذائه مجدداً:

«إذا جاء أحدٌ لزيارتي، سوف أتناول العشاء خارج النزل، وسأعود حوالي الساعة الحادية عشرة»

أوماً النادل برأسه، لكن من دون ردِّ هذه المرة؛ فانطلق السيد هاردينغ وهو يحمل قبعته ليمضي يوماً طويلاً على نحوٍ طيبٍ قدر الإمكان في مكان ما بعيداً عن مرأى رئيس الشماسة.

كان الجدول الزمني في السكك الحديدية قد أوضح له عشرات المرات بأنه يستحيل وصول الدكتور غرانتلي إلى محطة بادينغتون حتى الساعة الثانية بعد الظهر، لهذا فإن صاحبنا المسكين أملٌ خيراً بالنزل كملاذٍ آمنٍ له لبضع ساعاتٍ أخرى، بيدَ أنه ظل قلقاً، لأنه يجهل الخطوات التي قد يتخذها رئيس الشماسة للوقوفٍ بوجهه، قد تكون رسالة بالتلغراف الكهربائي يطلب فيها من مالك الفندق مراقبته؛ أو لعل رسالةً تصل وقد يجد نفسه غير قادر على عصيانها، إنه لا يشعر بالأمان في أي مكان يتوقع أن يجده فيه رئيس الشماسة؛ وفي العاشرة صباحاً، بدأ بقضاء اثنتي عشرة ساعة في لندن.

كان للسيد هاردينغ أصدقاء في المدينة آثر البحث عنهم، ولكنه أحسَّ بأنه لا يستظرف الزيارات العادية، وأنه لا يرغب الآن في خوض مشاوراتٍ مع أي شخص بشأن الخطوة الكبيرة التي قرراتخاذها. وكما قال لابنته، ما من أحدٍ يعرف أين تكمن العلة الحقيقية غير المعلول. ثمة بعض التفاصيل لا يمكن للمرء أن يقتنع فيها باتباع نصيحة شخصٍ آخر، موضوعات معينة ليس للرجل إلا أن يتشاور فيها مع ضميره فقط. إذ قرر الراعي أن من

صالحه أن يُبرئ نفسه من هذه المظالم مهما كلف الأمر. كانت ابنته هي الإنسان الوحيد الذي يعنيه أخذ رأيها وموافقتها، وقد اتفقت معه في كل شيء ومن كل قلبها. وفي ظل هذه الظروف، لن يستشير أي أحد، إن تمكن من ذلك، حتى تصبح النصيحة عديمة الفائدة. في حال وصل رئيس الشماسية إليه، سيكون هناك الكثير من النصائح والمشاورات من النوع الذي يستحيل تجنبه بالتأكيد؛ لكنه كان يأمل في أشياء أفضل، وبما أنه شعر بأنه لا يستطيع الآن التحدث عن موضوعات غير هامة، قرر ألا يلتقي أحداً إلا بعد مقابله مع المحامي العام. وقرر أن يتخذ من دير وستمنستر ملاذاً آمناً له، لذلك توجه إلى هناك في الحافلة من جديد، ولما وصل، اكتشف بأن الأبواب لم تكن مُشْرَعَةً للخدمة الصباحية. فدفع بنسين، ودلف الدير كسائح. لقد تبادر إلى ذهنه أنه لا يملك مكاناً محدداً من أجل الراحة لهذا اليوم، وأنه سيكون مرهقاً تماماً قبل المقابلة إذا حاول المشي من الساعة العاشرة صباحاً إلى الساعة العاشرة مساءً، فجلس على دُرْجَة حجرية، وأخذ يحرق عالياً في شخصية ويليام بيت الأصغر ⁷²

الذي يبدو وكأنه دخل الكنيسة لأول مرة في حياته ولم يكن مسروراً بوجوده هناك. وظل جالساً دون أن يضايقه أحد قُرابة عشرين دقيقة عندما سأله قندلفت ⁷³ عما إذا كان يرغب في الذهاب في جولة. لم يرغب السيد هاردينغ في الذهاب لأي مكان، لذلك رفض. ولاحظ أنه كان ينتظر بدء الخدمة الصباحية فحسب. وبعد أن أدرك القندلفت بأن السيد هاردينغ كان قسيساً، أبلغه أن أبواب قارئي القُداس مفتوحة الآن، وأرشده لمقعد. كانت هذه فكرة عظيمة تصب في صالحه، لن يأتي رئيس الشماسية إلى الخدمة الصباحية في دير وستمنستر طبعاً، حتى لو كان في لندن؛ وهنا يمكن للراعي أن يرتاح مطمئناً، وعندما يحين الوقت، يتلو صلواته على النحو الواجب.

كان تواقاً للقيام من مقعده، وإلقاء نظرة على كُتب الأناشيد الخاصة بالمرتلين، ونسخة من سلسلة الابتهالات التي رنموا القُداس بها، لمعرفة مدى توافق التفاصيل الصغيرة في وستمنستر مع تلك الموجودة في بارچستر، وما إذا كان يعتقد أن صوته سيملاً الكنيسة كما يجب من مقعد قائد جوقة المرتلين في دير وستمنستر. ومع ذلك، سيكون مثل هذا التدخل تصرفاً غير لائق، فجلس ساكناً تماماً، ينظر إلى السقف المهيب، ويحمي نفسه من إعياء النهار المقبل.

وشياً فشيئاً، دخل شخصان أو ثلاثة؛ ذات المرأة العجوز الكئيبة في الحافلة التي كادت أن تمحوه ولعلها امرأة أخرى تُشبهها تماما. ثم دخلت سيدتان شابتان، تظلل الأوشحة وجهيهما وعلى كتب الصلوات الخاص بهما، ثمة صلبانٌ مُذهبةٌ جلية، تلاهما شيخٌ يتكئ على عكازين؛ دخل بعده مجموعةٌ سائحين كانوا يلقون نظرةً على الدير وبما أنهم دفعوا بنسين فقد ارتأوا بأن يغتنموا الفرصة ويحضروا القُداس. ثم دخلت شابةٌ مسرعةً على عجل وهي تحمل بيدها كتاب الصلوات خاصتها ملفوفاً في منديلها لدرجة أنها تعثرت وسقطت على المقاعد الخشبية الطويلة مشيرة جلبة شديدة أجفل منها الجميع حتى الشماس قائد القُداس. أما الفتاة الشابة فقد تجمد الدم في عروقها خوفاً من نتيجة الكارثة التي أحدثتها إلى حدٍ كادت معه أن تموت قلقاً من الذعر.

لم يفقه السيد هاردينغ بأداب القُداس كثيراً. حثَّ الشماس المشار إليه خطاه متأخراً بعض الشيء، مرتدياً حُلَّةً كهنوتية بيضاء غير نيِّقة، يتبعه عشرات المُرتدين، الذين لم يكونوا مهندمين كما ينبغي كذلك. كانوا جميعاً يتدافعون للوصول إلى أماكنهم بخطى عَجولة، وسرعان ما بدأ القُداس! ومثلما بدأ القُداس انتهى -لأنه لم يكن هناك موسيقا، ولم يضع الوقت في التراتيل بلا داع. على العموم، لاحظ السيد هاردينغ بأن الأمور تُدار على نحوٍ أفضل في بارچستر، مع أنه حتى هناك كان يعرف أن ثمة فرصةً لإجراء تحسينات.

يبدو لنا أن ثمة تساؤلاً عما إذا كان يمكن لأيِّ قس أن يؤدي قُداس كنيستنا بانضباط، الصباح تلو الآخر، في مبنى ضخم، محاطٍ بأكثر من اثني عشر مستمعاً. حتى أن أبرع الممثلين لا يمكنه التمثيل على نحوٍ ممتاز ومقاعد الجلوس أمامه خالية. وعلى الرغم طبعاً من وجود دافع أقوى في حالة أكثر من الأخرى، ما يزال حتى أفضل رجال الدين ممن لا يمكنهم إلا أن يتأثروا بمستمعيهم. فأن يتوقع المرء بأن واجباً ما ينبغي أن يؤدي على نحو تام في ظل هذه الظروف، هذا يعني توقُّع الحاجة إلى الطبيعة البشرية أكثر من القدرات البشرية. وفيما كانت السيدتان ذواتا الصلبان المُذهبة والشيخ ذو العكاز والخادمة التي ما زالت واجفة في طريقهم إلى المغادرة، وجد السيد هاردينغ نفسه مضطراً للمغادرة أيضاً، اعترض القندلفت طريقه، وأخذ يُنقل نظره بينه وبين البوابة، ثم غادر. لكنه عاد من جديد في غضون دقائق، ودخل مرةً أخرى بعد أن دفع بنسين آخرين. إذ لم يكن هناك ملاذاً آخر أكثر أماناً بالنسبة له من دير وستمنستر.

وبينما راح يسير بخطى متتدة بين صحن الكنيسة والممرات ذهاباً وإياباً، حاول التفكير بشكلٍ جديٍّ في الخطوة التي كان على وشك اتخاذها. كان سيتخلى عن ثمانمئة جنيه في السنة طواعيةً ويحكم على نفسه بالعيش لبقية حياته على ما يقارب مئة وخمسين. كان يعرف حق المعرفة بأنه قد فشل حتى الآن في إدراك هذه الحقيقة كما يجب عليه إدراكها. هل يستطيع الحفاظ على استقلاليته وإعالة ابنته اعتماداً على مئة وخمسين جنيهاً في السنة، دون أن يكون عبئاً على أحد؟ صحيحٌ أن صهره كان غنياً، ولكن ما من شيءٍ يمكن أن يدفعه إلى الاعتماد على صهره بعد أن اعتزم أمره بقرارٍ يتعارض مباشرةً مع آراء صهره.

كان الأسقف ثرياً، لكنه كان على وشك التخلي عن أثمان هبات الأسقف، وذلك بطريقة تجرح إحسان الواهب على نحوٍ ملموس، لم يكن بإمكانه توقع أو قبول أي شيء آخر من الأسقف. لن يكون تخليه عن منصبه مبرراً فحسب، بل عيباً لا جدال فيه، إذا لم يكن مستعداً لمواجهة العالم بدونه. نعم، يتحتم عليه من هذا الوقت فصاعداً ربط جميع رغباته الإنسانية ورغبات ابنته بحدود معينة داخل نطاق هذا الدخل المحدود. كان يعلم أنه لم يفكر بما فيه الكفاية في هذا الأمر، وأنه قد انجرف بسبب اندفاعه الشديد، ولم يفهم تماماً حتى الآن، الحثيات الكاملة لموقفه. كان جُلُّ تفكيره منصباً على ابنته بطبيعة الحال. صحيحٌ أنها مرتبطة وأنه يعرف ما يكفي عن صهره المتقدم للزواج منها للتأكد من أن ظروفه المتغيرة لن تحول دون هذا الزواج. كلا، كان على يقين من أن فقره في حد ذاته سيدفع بولد إلى الإصرار على مسألة الزواج بشوقٍ متعاضم؛ لكن لا يروقه الاعتماد على بولد في هذه الأزمة الطارئة الناجمة عن منصبه، كما لم يرق له أن يردد مع نفسه: «بما أن بولد حرمني من بيتي ومصدر رزقي، فعليه أن يُعفيني من مسؤولية ابنتي!»

كان يؤثر اعتبار إيانور رفيقة فقره ومنفاه، كشريكةٍ في دخله الضئيل كذلك. منذ وقت طويل، وُضعت تدابير مالية محدودة لابنته. حياته كانت مؤمنةً على ثلاثة آلاف جنيه، وهذا المبلغ كان سيؤول إلى إيانور. أما رئيس الشمامسة فكان قد دفع لعدة سنوات قضاةً، وأمن لنفسه ممتلكات مجاورة لقطعة أرض صغيرة كان من المفترض أن تؤول إلى السيدة غرانتلي بعد وفاة والدها. وعليه، فقد سُلِبَتْ هذه القضية من بين يديّ الراعي منذ فترة طويلة، كما هو الحال بالفعل بالنسبة لجميع الصفقات التجارية لأسرته. وبالتالي كان قلقه مقتصرًا على دخله مدى الحياة.

يُعدّ مبلغ المئة والخمسين جنيهاً في السنة مبلغاً زهيداً، لكنه مع ذلك قد يكون كافياً؛ ولكن، أتى له أن يُرتّل الابتهالات في الكاتدرائية صباح يوم الأحد، ويحضر قُدّاساً في كرابتري بارفا؟ صحيح أن كنيسة كرابتري لم تبعد أكثر من ميل ونصف عن الكاتدرائية غير أنه لا يمكن أن يكون بمكانين في آن واحد. كانت كرابتري قرية صغيرة، وقد يكون قُداس ما بعد الظهر كافياً بالنسبة لسُكّانها، لكن مع ذلك كان هذا التصرف يتعارض مع ما يُمليه عليه ضميره؛ فمن غير الصائب أن يُسلَب أبناء رعيته أيّاً من امتيازاتهم بسبب فقره. من المؤكد أنه قد يتخذ بعض التدابير للمقيام بخدمة يوم الأُسبوع في الكاتدرائية؛ لكنه كان قد رتّل الابتهالات في بارچستر وقتاً طويلاً، وكان مدرّكاً لشعور أنه قام بذلك على نحوٍ جيد، لدرجة أنه لم يكن راغباً في التخلي عن واجبه.

وراح فكره يسرح في أمورٍ كهذه، يُقلّب في ذهنه رغباته المتواضعة ومهامه العظيمة، لكن لم يتردد ولو للحظة واحدة فيما يتعلق بضرورة مغادرة المأوى. وواصل السيد هاردينغ تجوله في الدير، وأحياناً يجلس متأملاً على نفس الدُرْجة الحجرية الساعة بعد الساعة. جاء قندلفت ومضى آخر دون أن يُزْعِجُوهُ، وأخذوا يتسللون من حين لآخر لالقاء نظرة عليه، لكنهم يفعلون ذلك بنظرةٍ توقيرية.

على العموم، لاحظ السيد هاردينغ أنه قد أحسن اختيار هذا الدير كملاذ له. حتى جاء من يقلق طمأنينته، إذ داهمه الجوع قرابة الساعة الرابعة وصار لزاماً أن يتعشى، كان جليلاً أنه لا يمكنه تناول عشاءه في الدير لذلك ترك ملاذه مضطراً، وتوجه إلى شارع ستراند بحثاً عن الطعام. اعتادت عيناه على عُتمة الكنيسة، لدرجة بصره انبهر عندما خرج إلى ضياء النهار، وشعر بالارتباك والخجل من نفسه، كما لو أن الناس كانوا يحدقون فيه. فأخذ يغذ السير والخوف من رئيس الشمامسة لماً يُزايله، حتى وصل إلى تشارينغ كروس، ثم تذكر أنه في إحدى جولاته في شارع ستراند، قرأ عبارة «لحم ضلع وشرائح» على يافطة معلقة على نافذة متجر. لقد تذكر المتجر جيداً؛ كان مجاوراً لمتجر بيع أغراض بالتجزئة، وعلى الجهة المقابلة له ثمة متجر لبيع السيجار. لم يستطع الذهاب إلى نُزله لتناول العشاء، والذي كان بالنسبة له حتى الآن، الطريقة الوحيدة المعروفة لتناول الطعام في لندن على نفقته الخاصة؛ وبالتالي، سيحصل على شريحة لحم من متجر في شارع ستراند، حيث لن يقصد رئيس الشمامسة غرانتلي مكاناً كهذا كي يتعشى بالطبع.

ووجد المتجر بسهولة... تماماً كما علقَ في ذاكرته بين متجر البيع بالتجزئة ومتجر السيجار. إلا أن الكمية الهائلة من الأسماك التي رآها معروضة في النافذة، هالته. كان هناك براميلٌ من المحار، مجزرة من الكركند، عدد قليل من سرطانات البحر الضخمة، وحوض مملوء بالسلمون المخلل. ولكن مع ذلك، لم يكن على دراية بأي صلة بين القشريات والخطايا، فدخل، وسأل بتواضع امرأةً قادرةً كانت تلتقط المحار من خزانٍ مائي كبير، عما إذا كان بوسعه الحصول على قطعةٍ من لحم الضأن والبطاطس.

بدأت المرأة مندهشةً إلى حد ما، ولكنها ردت بالإيجاب، فأرشدته فتاةً رثة المظهر إلى غرفة مؤن خلفية طويلة، مليئة بصناديق لتأمين الحفلات جلس على إحداها. لم يكن ليتخيل نفسه في مكان موحشٍ ومثيرٍ للشفقة كهذا، كانت تفوح من الغرفة رائحة السمك ونشارة الخشب ودخان التبغ الكريه الممزوج بأثرٍ طفيف من تسريبات الغاز. كان كل شيء خشناً وقدرًا ومُهلهلاً، حتى المفروش الذي فردوه على طاولته كان فظيماً، السكاكين والشوك مخدوشةٌ وملثومةٌ ومتسخة، وكل شيءٍ مُشربٌ برائحة الأسماك. ومع ذلك، كان عزاؤه الوحيد أنه كان وحيداً تماماً! ما من أحدٍ هناك ينظر إلى ارتباكهِ؛ ولم يكن من المحتمل أن يصادف أي شخصٍ للقيام بذلك. كان مطعمًا للعشاء في لندن⁷⁴، وسيكون المكان في قرابة الساعة الواحدة بعد منتصف الليل نابضاً بالحياة للغاية، ولكن في تلك اللحظة عُزلته عميقة كما كانت في الدير.

وبعد حوالي نصف ساعة، أحضرت الفتاة الرثة التي لم تتأنق بعد لأجل عملها المسائي، قطعة من لحم الضأن والبطاطس، فطلب منها السيد هاردينغ إحضار نصف لتر من نبيذ شيري. لقد أعجب بفكرة كانت سائدة بشكل عام منذ بضع سنوات، ولم تفارق بعد أذهان الرجال بالكامل، وهي أن طلب عشاء في أي نوع من المطاعم دون طلب نصف لتر من النبيذ لمنفعة صاحب الحانة، كان ضرباً من ضروب الاحتيال، لا يعاقب عليه القانون عقاباً فعلياً، ولكنه لا يقلُّ بشاعةً بناءً على ذلك. تذكر السيد هاردينغ أيام فاقته المُقبلة، وكان سيوفر نصف الشلن عن طيب خاطر، لكنه رأى أن ما من خيارٍ آخر أمامه؛ وسرعان ما وضعوا بين يديه الخليط الفظيع الذي تم الحصول عليه من حانةٍ مجاورة. ومع ذلك، فإن لحمه وبطاطاته كانت قابلةً للأكل، وبعد أن تجاوز بقدر ما يستطيع الاشمئزاز الناجم عن السكاكين والشوك، وجد طريقةً ليزردد بها عشاءه. بعد أن هداً روعه إلى حد ما، دخل شاب ذو وجه شاحب وعينين

دامعتين تشبهان عيني سمكة، كان يرتدي قبعته على أحد جانبيه بشكلٍ يندر بالشر، ويحدجه بنظره، فسأل الفتاة بصوت مسموع للغاية: «من ذلك المُسن الحقيِر؟» لكنّه لم يتمادَ في إزعاجه السيد هاردينغ أكثر من ذلك، وتُركَ الراعي جالساً في مقعده الخشبي بسلام، محاولاً التمييز بين الروائح المختلفة المنبعثة من الكركند، المحار، والسلمون.

ولما كان السيد هاردينغ غير خبير في طرق لندن، شعر بطريقة ما، أنه اختار مطعمًا غير مؤهل لتناول العشاء، وأنه حريٌّ به مغادرته. الساعة بالكاد تشيرُ إلى الخامسة، كيف سيمضي الوقت حتى العاشرة؟ خمس ساعات لعينة! كان متعبًا بالفعل، وكان من المستحيل أن يستمر في المشي كل هذه المدة. فكر في ركوب حافلة، والذهاب إلى فولهام من أجل العودة في حافلة مرة أخرى: وهذا سيكون جهداً كبيراً. عندما دفع فاتورته إلى المرأة في المتجر، سألتها إذا كان هناك أي مكان قريب هنا حيث يمكنه الحصول على فنجان من القهوة. مع أنها تدير مطعمًا لتقديم المحاريات، إلا أنها كانت مُهذبةً للغاية، وأرشدته إلى حجرة تدخين السيجار⁷⁵ على الجانب الآخر من الشارع.

لم يكن لدى السيد هاردينغ فكرة واضحة عن حجرة تدخين السيجار أكثر مما يعرفه عن مطعم عشاء في لندن، لكنه كان في حاجة ماسة للراحة، فمضى إلى حيث أرشدته المرأة في المطعم. أدرك أنه ارتكب خطأ ما حين وجد نفسه في متجرٍ للسجائر، ولكن الرجل خلف منضدة الدفع أدرك على الفور بأنه غريب، وفهم ما يريد.

«شلن واحد يا سيدي - شكراً سيدي - سيجار، سيدي؟ بطاقة من أجل شرب القهوة يا سيدي... عليك فقط أن تنادي على النادل، اصعد تلك السلالم من فضلك يا سيدي... من الأفضل أن تأخذ السيجار يا سيدي... يمكنك دائماً أن تعطيتها لصديق حسناً، سيدي... شكراً لك سيدي... إنك بغاية اللطف سأدخنها» وهكذا صعد السيد هاردينغ إلى حجرة التدخين مع بطاقته لشرب القهوة لكن بدون السيجار.

كان المكان يبدو أكثر ملاءمة بكثير من المطعم الذي تناول فيه عشاءه، كان ثمة رائحة تبغ قوية لم يكن معتاداً عليها؛ ولكن بعد روائح المحاريات، لم تبدُ رائحة التبغ مزعجة. كان ثمة أعداد من الكتب، صفوف طويلة من الأرائك. وأيُّ الأشياء على وجه الأرض قد تكون أفخم من أريكة وكتاب وفنجان من القهوة؟ جاءه نادل مُسن حاملاً معه مجلتين وصحيفة مسائية. أيوجد شيء أكثر لطفًا من ذلك؟ هل سيشرب فنجاناً من القهوة أم أنه يفضل العصير؟⁷⁶ ،

العصير! هل كان جالساً في ديوانٍ شرقيٍّ؟ مع إضافة طفيفة من مطبوعات لندن كلها؟ ومع ذلك، كانت لديه فكرة أنه يجب أن يشرب العصير وهو جالس واطعاً رجلاً فوق رجل، وبما أنه لم يكن قادراً على ذلك، طلب القهوة.

وصلت القهوة، وكان طعمها لا مثيل له. يا للعجب! هذا المكان بمثابة جنة! اقترح عليه النادل العجوز اللطيف لعبة شطرنج، مع أنه لم يكن مجارياً له كلاعب شطرنج، لذلك رفض، ووضع ساقيه المرهقتين على الأريكة، وراح يرتشف قهوته على مهل وهو يُقَلِّب صفحات مجلة بلاكوود. ولربما انهمك في القراءة قرابة ساعة لأن النادل المسن أغواه بفنجانٍ آخر من القهوة حين بدأت ساعةً موسيقيةً بالعزف! طوى السيد هاردينغ مجلته، وأبقى على مكانه بإصبعه واستلقى مصغياً بأجفان مطبقة إلى الألحان التي تصدر من الساعة. وسرعان ما بدا أن الساعة تتحول إلى كمان تشيلو يرافقها البيانو، وبدأ السيد هاردينغ يتخيل أن النادل المسن كان أسقف بارچستر، وأنه كان مندهشاً أيّما دهشة لأن الأسقف كان عليه أن يجلب له قهوته بيديه؛ ثم جاء الدكتور غرانتلي، ومعه سلة مليئة بالكرنكند، حيث لن يدفعه أحد على تركها في الطابق السفلي في المطبخ. ومن ثم لم يفهم الراعي لماذا يدخن الكثير من الناس في الصالة الخاصة بالأسقف، وهكذا استغرق في النوم سريعاً، وأخذت أحلامه تتجول به بعيداً إلى ظلّته المعتادة في كاتدرائية بارچستر، وإلى الرجال الاثني عشر الذين كان على وشك أن يغادروهم إلى الأبد.

كان مرهقاً فاستغرق بنوم عميق لبعض الوقت، حتى أيقظه توقفٌ مباغتٌ في الساعة الموسيقية جعلته يقفز فرحاً مُتفاجئاً لرؤية المكان مكتظاً تماماً، إذ فارغ تقريباً عندما بدأ قيلولته. وبقلقٍ حادٍ أخرج ساعته ووجد أنها تُشير إلى التاسعة والنصف، فالتقط قبعته، وأسرع إلى الطابق السفلي، وانطلقَ بخطىٍ سريعةٍ إلى نُزل لينكولن. وكان ما يزال بحاجة لعشرين دقيقة تقريباً حتى وجد الراعي نفسه أسفل سلالم مكتب السير أبراهام، لذلك مشى على مهل جيئةً وذهاباً بمحاذاة النُزل الهادئٍ لإنعاش نفسه. كان مساءً عذباً من إحدى مساءات نهاية أغسطس. وقد تعافى من الإعياء الذي أصابه خلال النهار؛ إذ أنعشته القهوة والنوم، وفوجئ إذ أدرك أنه كان يستمتع تماماً عندما دقت الساعة العاشرة. ولم يكد صوت الساعة يختفي قبل أن يقرع باب السير أبراهام، فأخبره العامل الذي استقبله بأن السيد رفيع الشأن سيكون معه على الفور.

قاعة لحضور الأشخاص ليسوا أعضاء أو مسؤولين في المجلس النيابي.
دليل السكك الحديدية لبرادشو الذي نشره جورج برادشو لأول مرة عام 1839 وأصبح الجدول الزمني القياسي طوال العصر
الفيكتوري.

نصب تذكاري على الباب الغربي من دير وستمنستر لويليام بيت، رئيس الوزراء المحافظين الذي تولى رئاسة الوزراء مرتين
1783 - 1801، و 1804 - 1806

رتبة كنسية منوط بحاملها صيانة مبانيها والمقابر التابعة لها، وأيضاً تعمير القناديل وملء أدراج البخور
أماكن توفر وجبات مسائية ووسائل ترفيهية للرجال بشكلٍ أساسي، في الغالب مأوى للبلغايا، وقد قصده السيد هاردينغ عن
غير قصد

حجرة تدخين السيجار كانت سائدة في العصر الفيكتوري لبيع السيجار وتوفير مكان لتدخينه.
هكذا وردت في النص الأصلي بمعنى شربات أو عصير غير إنها لا تُشير إلى عصير الفاكهة الأصلي الشرقي المحلي المبرد
بالثلوج، التقليد الغربي هو مسحوق فوار بنكهة الفاكهة. Sherbet

الفصل السابع عشر: السير أبراهام هابهارد

أدخل السيد هاردينغ إلى غرفة جلوس داخلية مريحة تبدو وكأنها مكتب سيد نبيل أكثر منها غرفة محام، وهناك انتظر السير أبراهام. لم يدم انتظاره طويلاً، ففي غضون عشر أو خمس عشرة دقيقة سمع أصوات حديث صاحب وسريع في الرواق، بعدها دخل المحامي العام.

«آسف جداً لجعلك تنتظر يا أيها السيد الراعي،» قال السير أبراهام وهو يصفحه، «وآسفٌ كذلك لتحديد موعد في ساعة متأخرة ولكن وصل خطابك على نحو مباغت ومقتضب ولأنك طلبت مقابلي اليوم، حددت أقرب وقت متفرغ فيه» فأكد السيد هاردينغ له بأنه هو من يجب أن يعتذر.

كان السير أبراهام رجلاً نحيلًا طويل القامة، شاب شعره قبل أوامه غير أنه لم يحمل أي علامة أخرى تدل على تقدمه في السن. كان لديه انحناء طفيف في عنقه بدلاً من ظهره، اكتسبه من عادته المستمرة في الميل إلى الأمام بينما يخاطب مختلف الناس. لربما يبلغ من العمر خمسين عاماً، لكنه يبدو شاباً بالنسبة لعمره. ما كان عمله متواصلاً كي يجعل ملامح وجهه متجهمة ويمنحه مظهر آلة ذات عقل. كانت النباهة تفيض من وجهه فيضاً، لكن تعوزه تعبيرات الوجه الطبيعية. قد تراه رجلاً نافعا وبعد ذلك تسأم منه، رجلاً تسعى للبحث عنه أثناء المشكلات الكبيرة الطارئة، لكنه غير متكيف مع الخدمات العادية؛ رجلاً ستطلب منه أن يدافع عن ممتلكاتك لكنك ستندم على الوثوق بحبك له. كان براقاً مثل جوهرة، حاداً وغير قابل للتأثر كذلك. كان يعرف كل من كانت معرفته شرفاً ومع ذلك لم يكن لديه صديق، ولم يرغب بصداقة أحد، ولم يعرف معنى لكلمة صديق بخلاف معناها البرلماني [77](#) صديق! لو لم يكن مكتفياً بذاته وفي سن الخمسين، هل من المعقول أن يثق بشخص آخر؟ كان في الحقيقة متزوجاً ولديه أبناء، لكن هل كان يملك وقت فراغ طيب لأجل السعادة الزوجية؟ إذ كانت أيام عمله أو ساعاته المحدودة مزدحمة من ساعة نهوضه صباحاً حتى آخر ساعة يخلد فيها إلى النوم، وحتى عطلاته كانت حافلة بالعمل أكثر من أيام الرجال الآخرين المزدحمة. لم يتشاجر قط مع زوجته، غير أنه لم يتجاذب أطراف الحديث معها إطلاقاً... كان يعوزه الوقت

لتجاذب أطراف الحديث، فالأحاديث تشغله. لم تكن السيدة المسكينة حزينة لهذا الوضع، إذ كان بين يديها كل المال الذي بإمكانه أن يمنحها لها، ولعلها ستعيش لتصبح سيدة من النبلاء، وهكذا فإنها تعتقد بأن السير أبراهام أفضل زوج بمعنى الكلمة. أما السير أبراهام فقد كان رجلاً حاضر البديهة، يمور بالحيوية والذكاء وسط ألمع الرجال على موائد العشاء لدى كبار السياسيين، بل كان يمور حيويةً على الدوام؛ سواء في المجتمع أو في مجلس العموم، أو في المحاكم القانونية. كانت الالتماعة الذهنية تفيض منه؛ فطنةً متقدمة كما لو من فولاذٍ ساخن، ولكنه لا يُحرق. لم يتلقَ قساة القلوب استحسانه يوماً، كما لم يسبق أن ألقت القلوب المحزونة جزءاً من عبء همومها، على بابه أبداً.

له وحده، كان النجاح جديراً بالثناء، وهو لم يعرف شخصاً ناجحاً مثله. لم يدفعه أحدٌ إلى الأمام، ولم يدعمه أيُّ من رفاقه من ذوي النفوذ للمضي قدماً في طريقه إلى السلطة. كلا، كان محامياً عاماً بالفطرة، وسوف يصبح في كل الاحتمالات البشرية، رئيساً لمجلس اللوردات بحكم مهنته الخاصة وموهبته الفطرية. من غيره في هذا العالم بأسره ارتقى سلاله المجد دون شيء من الشفاعة؟ رئيس وزراء بالتأكيد! من أصبح رئيساً للوزراء دون وجود رفاق مقتدرين؟ المطارنة! ابنٌ أو حفيدٌ لأحد النبلاء أو ربما معلمه! لكنه هو، السير أبراهام، لم يكن هناك سلطانٌ شديد البأس يسند ظهره. كان والده صيدلاني ريفي، وكانت والدته ابنة مزارع. فلم عساه ألا يحترم غير نفسه؟ وهكذا يتألق في جميع أنحاء العالم، النجم الألمع بين النجوم اللامعة، ولما يافل نجمه ويلتحق بأجداده الراحلين، ما من عين ستذرف الدموع عليه، ولا من قلب سيحزن على خسارة رفيقه!

«وهكذا يا أيها السيد الراعي، كُِّلّ العراقي المتعلقة بهذه الدعوى القضائية شارفت على

النهاية»

أجابه السيد هاردينغ بأنه يأمل ذلك، لكنه لم يفهم نهائياً ما يعنيه السير أبراهام. ولم يكن بوسع السير أبراهام - مع كل ألمعيته - أن يسير أغوار قلبه ويقرأ نواياه.

«لا داعي لأن تُشغل نفسك أكثر من ذلك؛ عليهم أن يدفعوا الثمن بلا شك، والنفقات الكاملة لك وللدكتور غرانتلي ستكون شيئاً لا يُذكر، أي بالمقارنة مع ما كان يمكن أن يحدث لو استمر الأمر»

«أخشى أنني لا أفهمك يا سير أبراهام»

«ألم تعلم بأن محاميه قد أخطرونا أنهم سحبوا الدعوى؟»

أوضح السيد هاردينغ للمحامي أنه لا يعرف شيئاً عن ذلك، رغم أنه سمع بطريقة غير مباشرة أن ثمة أحاديث قد دارت بشأن هذا الأمر؛ ونجح أيضاً - في النهاية - في جعل السير أبراهام يفهم أنه حتى هذا الإجراء لن يُرضيه. وقف المحامي العام واضعاً يديه في جيبه بنطاله، رافعاً حاجبيه، فيما شرع السيد هاردينغ في تفصيل المظالم التي يتوق لتبرئة نفسه منها اليوم.

«وأعلم أنه لا يحق لي أن أشغلكم شخصياً بهذه القضية، ولكن بما أنها ذات أهمية قصوى بالنسبة لي، وبما أن جُلَّ سعادتي تتعلق بها، آثرتُ المغامرة في طلب مشورتكم»

أجاب السير أبراهام مؤكداً بأن موكله لهم الحق في الحصول على أفضل مشورة يمكن أن يقدمها لهم؛ خصوصاً عميل محترم جداً من كل النواحي مثل راعي مأوى بارچستر.

«لطالما كانت الكلمة المنطوقة أعلى قيمةً من مجلدات الاستشارات المكتوبة يا سير أبراهام. الحقيقة هي أنني غير راض عن هذه القضية بصورتها الحالية. ولا يسعني التفاوض عن رؤية أن شؤون المأوى لا تسير وفقاً لوصية المؤسس»

«ولا تسير أيُّ من هذه المؤسسات كذلك سيد هاردينغ، ويستحيل أن تسير كالماضي، فالظروف المتغيرة التي نعيش فيها لا تعترف بذلك»

«صحيح تماماً، هذا صحيح تماماً، ولكن لا أرى أن هذه الظروف المتغيرة تمنحني الحق في الحصول على ثمانمئة جنيه في السنة. لا أذكر أنني قرأتُ وصية جون حيرام من قبل، ولكن إن قرأتها الآن، لن أتمكن من فهمها. ما أطلب منك توضيحه يا سير أبراهام هو هل يحق لي أنا - بصفتي الراعي - الحصول على عائدات الممتلكات قانونياً، بعد أداء مستحقات النزلاء الاثني عشر؟»

وكان رد السير أبراهام أنه لا يستطيع أن يوضح بالضبط في مجموعة كلمات أن السيد هاردينغ يحق له قانوناً كذا وكذا وكذا، وانتهى بالقول بأنه سيكون من الجنون إثارة أي سؤال آخر حول هذه القضية بما أنهم تنازلوا عن الدعوى. فبدأ السيد هاردينغ وهو جالس على كرسيه، يعزف لحناً بطيء الوتيرة على كمان خيالي. تابع المحامي العام قائلاً: «كلا يا سيدي العزيز، ما من سبب آخر لأي سؤال؛ لا أرى أن لديك القدرة على إثارته»

«بإمكاني أن أستقيل»، رد السيد هاردينغ وهو يعزف بهدوء بيده اليمنى، كما لو كان قوس الكمان يحاذي الكرسي الذي كان يجلس عليه.

«ماذا؟ هل ستستقيل حقاً؟» قال المدعي العام وهو يحرق بدهشة تامة في موكله.

«هل قرأت تلك المقالات في صحيفة المشتري؟» قال السيد هاردينغ بنبرة ممزوجة بالشفقة وهو يتمنى أن يفهمه المحامي.

أجاب السير أبراهام بأنه قرأهم. كان القسيس المسكين المتواضع هذا، الذي استسلم لأقصى حالات العجز بسبب مقال صحفي، كان - بالنسبة للسير أبراهام - كائناً جديراً بالازدراء، لدرجة أنه بالكاد يعرف كيف يتحدث إليه كما يتحدث لكائن عقلائي.

«ألم يكن من الأفضل أن تنتظر حتى يأتي الدكتور غرانجلي معك إلى المدينة؟ أألن يكون من الأفضل تأجيل أي خطوة جديّة حتى تتمكن من التشاور معه؟»

فأوضح السيد هاردينغ بنبرة حاسمة أنه لا يستطيع الانتظار، وأخذت تساور السير أبراهام شكوك جديّة في سلامة عقله.

«بالطبع، إن كنت تملك دخلاً شخصياً كافياً لتلبية احتياجاتك، وإذا كان هذا...»

«لا أملك ولا نصف شلن يا سير أبراهام»

«بحقك يا سيد هاردينغ! كيف تنوي أن تعيش؟!»

وشرّع السيد هاردينغ في الشرح لرجل القانون أنه كان ينوي الحفاظ على وظيفته كمرشد لجوقة المرتلين ويكسب منها ثمانون جنيهاً في السنة؛ كما أنه ينوي كذلك الاعتماد على مصدر رزقه المتواضع في كرابتري حيث يكسب ثمانين جنيهاً أخرى. ومما لا شك فيه أن واجباتهما نادراً ما تتطابق؛ لكن لربما يكون له تأثير على الصرف. وبعد ذلك، تذكر أن المحامي العام لن يأبه بالاستماع لكيفية تقسيم مهام الكاتدرائية بين الشمامسة، فتوقف فجأة عن الشرح. لقد أنصت السير أبراهام في ذهول يدعو للإشفاق.

«سيد هاردينغ، أعتقد صدقاً أن من الأفضل أن تنتظر رئيس الشمامسة. هذه خطوة بالغة الخطورة عليك، وفي رأيي هي خطوة ليس لها أدنى ضرورة؛ وكما شرفتموني بطلب استشارتي، فعلياً أن أرجوك ألا تفعل شيئاً دون موافقة صديقك. ليس للمرء أن يحكم خيراً في موقفٍ يخصه!»

«خير من يحكم بما يشعر به الإنسان هو الإنسان ذاته، خيرٌ لي أن أتسول خبزي حتى مماتي على أن أقرأ مقالاً آخر شبيهاً لهذين المقالين المنشورين في الصحيفة. وأشعر، كما أشعر صدقاً، بأن الحق بجانب كاتب المقال»

«أليس لديك ابنة يا سيد هاردينغ؟ ابنة غير متزوجة؟»

«بلى...» أجاب السيد هاردينغ وهو يقف منتصباً مواصلاً العزف على كمانه - المتخيل - ويده خلف ظهره، «عندي ابنة غير متزوجة يا سير أبراهام، وكلانا متفق بشأن هذا الموضوع»

«أستميحك عذراً يا سيد هاردينغ إن بدا ما أقوله وقحاً لكن أنت من يجدر به أن يتصرف بحكمة من أجل صالحها! إنها شابة، ولا تعرف معنى العيش على دخلٍ قدره مئة وستين جنيهاً في السنة. تخلّ عن هذه الفكرة من أجلها. صدقني، إن ما تفعله مثاليةٌ بحته لا تأخذ بعين الاعتبار نتائجها!»

مشى الراعي مبتعداً صوبَ النافذة، ثم عاد إلى كرسيه. وبعد ذلك، متحيراً فيما يريد قوله، مشى مرةً ثانية نحو النافذة. كان المحامي العام صبوراً للغاية، وبدأ يرى أن المقابلة طالت كثيراً.

«ولكن إن لم أكن مستحقاً لهذا الدخل بجدارة؟! ماذا لو اضطررنا أنا وهي إلى التسول؟» قال الراعي في النهاية، بنبرة حادة، وصوتٍ مختلفٍ جداً عن صوته المعتاد، حتى أن السير أبراهام فغر فاهُ مشدوهاً، «إن كان الأمر كذلك، سيكون من الأفضل أن نتسول»

«يا سيدي العزيز، ما من أحدٍ يشكك في عدالة القضية الآن»

«بلى يا سير أبراهام، هناك من يفعل ذلك، وهو عندي الأهم من بين كل الشهود ضدي، أنا أشك في عدالة القضية! وحده الله يعلم مدى حبي لابنتي ولكن، خيرٌ لكلينا أن نتسول على أن نعيش عيشة مرفهة من المال الذي هو ملك للمساكين في الحقيقة. قد يبدو غريباً بالنسبة لك يا سير أبراهام، وغريبٌ بالنسبة لي، أنني قضيتُ عشر سنوات في ذلك المنزل البهيج ولم أفكر في هذه التفاصيل حتى لقنوها على مسامعي بغاية القسوة. لا يسعني التباهي بضميري ما دام استدعى أمر إيقاظه عاصفةً ضربتني بها صحيفةٌ عامة! أما الآن بعد أن أوقظَ هذا الضمير، فعلياً طاعته.

عندما جئتُ إلى هنا، لم أكن أعرف أن السيد بولد سحب الدعوى، وكان هدفي هو أن أطلب منك أن تسحب يدك من الدفاع عني، ونظراً لعدم وجود إجراء الآن، لا يمكن أن يكون هناك دفاع؛ ولكن، على أي حال، عليك أن تعلم أنه من الغد سأتوقف عن كوني راعي مأوى بارچستر. نختلف أنا وأصدقائي بشأن هذا القرار يا سيّر أبراهام، وهذا ما يعاظم من أحزاني؛ ولكن ما باليد حيلة»

عندما أنهى ما كان عليه قوله، عزف لحناً لم يسبق له أن نشر بهاءً في مكتب أيّ محام. كان يقف بشجاعة أمام السيّر أبراهام، وكانت ذراعه اليمنى تمر أمامه في تلوّيات جريئة وسريعة، كما لو كان يحتضن آلة ضخمة مكنته من الوقوف منتصباً على هذا النحو. ثم شدّ - بأصابع يده اليسرى وبسرعة خارقة للطبيعة - العديد من الأوتار التي بدأ ترتيبها من أعلى ياقته حتى أسفل طيات معطفه. بينما راح السيّر أبراهام يُنصت وينظر وقد أخذ العجب منه مأخذاً. وبما أنه لم يلتق السيد هاردينغ من قبل، فقد ضاعت عليه معاني هذه الإيماءات الغريبة لكنه أدرك بأن الرجل - الذي كان قبل بضع دقائق خلت - مغلوباً على أمره لدرجة أنه كان عاجزاً عن الحديث من غير تردد، بات الآن في غاية الانفعال! لا بل عاصفاً إلى حد كبير.

«سوف تترث في القرار وترجى المسألة يا سيد هاردينغ، وغداً...»

«لقد تريت بالقرار أكثر من اللازم، وقد سهرت الليلة تلو الأخرى نتيجةً لذلك، حتى وجدت أن ليس باستطاعتي تأجيله، آمل أن أفعل ذلك»

لم يكن لدى المحامي العام إجابة على السيد هاردينغ؛ لذلك أعرب عن أمل غير منقطع في أن يكون الاتفاق الذي سيتوصل إليه مرضياً، مهما كان. ومن ثم، غادر السيد هاردينغ مُمتناً لهذا الرجل رفيع الشأن على حُسن استماعه. كان السيد هاردينغ راضياً تمام الرضا عن هذه المقابلة، وشعر ببصيص راحة عندما نزل إلى ساحة صغيرة عتيقة في نُزل لينكولن. كانت ليلة هادئة عذبة ومبهجة. وتحت نور القمر حتى الكنيسة الصغيرة التابعة لنُزل لينكولن، و صفوف المكاتب الكئيبة المحيطة بالساحة، بدت رائعة الجمال. وقف هنيهة ليستجمع أفكاره ويتأمل فيما فعله وما كان على وشك أن يفعله. كان يدري أن المحامي العام لم يعتبره سوى شخص مغفل، بيد أنه لم يكن يمانع؛ فهو والمحامي العام لم يكن بينهما الكثير من القواسم المشتركة، وكان يعلم كذلك بأن الآخرين ممن يهتم لأمرهم، سيظنونهم أحق أيضاً، لكن إيانور ستبتهج بما فعله وهو على يقين من ذلك، أما رفيقه الأسقف، سيتعاطف معه كما أمل.

وفي تلك الأثناء، صار لزاماً عليه أن يلتقي رئيس الشمامسة، فمشى الهوينى في طريق تشانستري ذو الاتجاه الواحد بمحاذاة شارع فليت وهو متأكد بأن مهمته لهذه الليلة لم تنته بعد. وحين وصل إلى نُزله قرع الجرس بهدوء وقلبه يخفق سريعاً. كان يتوق للهرب إلى الشارع المجاور، وتأجيل العاصفة المقبلة بجولة أخرى حول فناء كنيسة القديس بولس، لكنه سمع صرير أحذية النادل العجوز يقترب، فلزم مكانه ببسالة.

في مجلس العموم، يشير الأعضاء إلى زملاء حزبهم بقول: «زميلي المحترم»

الفصل الثامن عشر: الراعي العنيد

«الدكتور غرانتلي هنا يا سيدي» استقبلت أذناه كلمات النادل قبل أن يفتح الباب تمامًا،
«والسيدة غرانتلي كذلك، إنهم بانتظارك في غرفة الجلوس بالأعلى»
كان ثمة شيء في نبرة صوت الرجل الذي يبدو أنه يشير إلى أنه حتى هو ينظر إلى الراعي
كتلميذ هارب، قُبض عليه للتو من قِبَل ولي أمره، وأنه مُشفقٌ على الجاني، مع أنه لا يسعه إلا
أن يرتعب من الجريمة. حاول الراعي جاهدًا أن يبدو بمظهر شخص غير مكترث والقول
«أوه، بالتأكيد! سأصعد للأعلى حالًا» إلا أنه فشل فشلاً ذريعًا. لربما كان ثمة شيء من العزاء
في حضور ابنته المتزوجة؛ أي أنه يشعر براحة نسبية حين يعي أن صهره كان موجودًا؛ ولكن
كم كان سيفضل لو أنهما بقيا آمنين في أسقفية بلومستيد! ومع ذلك، توجه إلى الطابق العلوي
يسبقه النادل بخطى بطيئة. ولما فتح النادل الباب، شاهدا رئيس الشمامسة يقف منتصبًا في
منتصف الغرفة كالمعتاد، ولكن أوه! يا للمحسرة! خلفه تستريح زوجته الصبورة على أريكة
قدرة.

«بابا! ظننتك لن تعود أبدًا، إنها الساعة الثانية عشرة»

«نعم يا عزيزتي، حدد المحامي العام الساعة العاشرة موعدًا لمقابلتي، ولأصدقك القول، إن
الساعة العاشرة وقت متأخر لإجراء مقابلة لكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ يفعل رجال الدولة ما
يحلو لهم» ثم قَبِلَ ابنته وصافح الدكتور وحاول مرة أخرى أن يبدو غير مكترثٍ.

«قابلتَ المحامي العام بالتأكيد؟» سأل رئيس الشمامسة فأشار السيد هاردينغ بالإيجاب،
«يا إلهي، يا له من أمرٍ مؤسف!» ورفع رئيس الشمامسة يديه الضخمتين بالطريقة التي اعتاد
رفاقه رؤيته وهو يعبر بها عن عدم استحسانه وذهوله، «ماذا سيقول السيّر أبراهام؟ ألا تعلم أنه
ليس من المعتاد أن يقابل الموكلون محاميهم مباشرة؟»

«حقًا؟!» سأل السيد هاردينغ بطريقة بريئة، «حسنًا على أية حال، لقد قابلته. لا يبدو أن
السيّر أبراهام يرى الموقف غريبًا جدًّا» فزفر الدكتور غرانتلي تنهيدةً من شأنها أن تُحرِّك
بارجةً حربيةً من مكانها.

«وماذا قلتَ للسيّر أبراهام يا أبي؟» سألت السيدة

«طلبتُ منه يا عزيزتي تفسيراً واضحاً لوصية جون حيرام، فلم يُفسر الأمر بالطريقة الوحيدة التي سترضييني، لذا استقلتُ من منصب الراعي»
«استقلتُ..» قال رئيس الشماسة بصوتٍ خفيض، يغلب عليه الأسى والوقار، ولكنه مسموع بما فيه الكفاية، صنفٌ من صنوف الهمس من شأن وليام ماكريدي⁷⁸ أن يحسده عليه ومن شأن الجمهور في صالات العرض أن يصفق طمعاً بعدة جولات ثانية.
«استقلتُ من منصبك؟ يا إلهي!» وهوى رئيس الشماسة مصعوقاً على كرسيه ذي المسند المكسو بشعر الخيل.

«في النهاية أخبرتُ السير أبراهام أنني سأستقيل وبالطبع ينبغي أن أمضي قُدماً في ذلك»
«لا على الإطلاق»، استدرك رئيس الشماسة وهو يلحق ببصيص الأمل: «لا شيء من هذا الذي قلته لمحاميكَ يمكن أن يكون ملزماً بالامتثال لك بأي شكل من الأشكال؛ لقد قابلته لطلب مشورته طبعاً. وأنا على يقين من أن السير أبراهام لم ينصح بأي خطوةٍ من هذا القبيل»

لم يتجرأ السيد هاردينغ على تأكيد ذلك.
أضف القس المستجوب: «متأكدٌ أنه لم ينصحك بذلك»
ولم يتجرأ السير هاردينغ على إنكار ذلك.
«وأكيدٌ بأن السير أبراهام نصحك باستشارة أصدقائك»
اضطر السيد هاردينغ إلى تأكيد هذا الاعتقاد.

«إذن تهديدك بالاستقالة ليس ذا قيمة، ونحن كما نحن سابقاً، لم يتغير شيء»
وقف السيد هاردينغ على بساط الغرفة وأخذ يحوّل من قدم لأخرى مُتململاً دون أن يُبدي جواباً واضحاً عن كلام رئيس الشماسة الأخير، لأن عقده كان منخرطاً تماماً بالتفكير في كيفية الفرار إلى الفراش. لم يكن في ذهنه موضعٌ للشك في أن أمر استقالته مفروغٌ منه، وأنها حقيقةٌ شبه مكتملة. كان يعرف نقطة ضعفه؛ ويعرف كيف أنه كان عُرضةً لأن يكون تحت قيادة أحدهم، بيدَ أنه في تلك اللحظة، لم يكن ضعيفاً إلى حدٍ يجعله يرضخ ويتراجع إلى المكان الذي قاده منه ضميره، بعد أن جاء عمداً إلى لندن لتنفيذ قراره. على الأقل، لم يُخامرهُ شكٌ في قراره، ولكنه شكٌ بقدرته في الدفاع عنه أمام صهره.

«لا بد أنك متعبة يا سوزان، ألا ترغبين في الخلود إلى النوم؟»
لم تُردِ سوزان المغادرة حتى يغادر معها زوجها. كانت لديها فكرة أن والدها قد يتعرض للترهيب لو غادرت. ما كانت مُتعبة بالمرة، أو على الأقل كما قالت.
وكان رئيس الشمامسة يذرع الغرفة بوتيرة سريعة، معبراً عما في قلبه عن حماقات والد زوجته بإيماءات من رأسه.

«عجباً!» تحدث في النهاية، ولعل الملائكة قد احمرت خجلاً من أسلوب التوبيخ الواضح في نبرة صوته وتشديده، «لماذا خرجت من بارچستر فجأة؟ لماذا اتخذت مثل هذه الخطوة دون أن تبلغنا بعد ما حدث في الأسقفية؟»

نكس الراعي رأسه دون إجابة، لم يتنازل بالقول إنه لم يكن ينوي تحاشي صهره؛ وبما أنه لم يملك الشجاعة ليعترف بذلك، لم ينيس بنت شفة.

«لقد عانيت كثيراً يا أبي» علقَت السيدة، فأخذ رئيس الشمامسة يذرع الغرفة مرة ثانية حتى هتف مجدداً «يا إلهي!» وهذه المرة هامساً لكن ما زال صوته مسموعاً.

«سأوي إلى الفراش» قال الراعي وهو يرفع شمعة من على جانبه
«على أية حال، ستعدني بالأ تخطو خطوة أخرى دون مشاورة» علق رئيس الشمامسة. لم يُجب السيد هاردينغ، غير أنه مضى لإشعال شمعته ببطء. فأضاف رئيس الشمامسة قائلاً:

«مثل هذا القرار الذي أبلغته للسَّير أبراهام لا يعني شيئاً. هيا أيها الراعي، عدني. لقد انتهت القضية برمتها، كما ترى بالقليل من الاعراقيل والنفقات. لقد اضطر بولد إلى إيقاف الإجراءات، وكل ما عليك فعله هو البقاء هادئاً في المأوى» لم يرد السيد هاردينغ الجواب، وإنما نظر نظرةً وديعةً إلى صهره رئيس الشمامسة الذي ظن أنه يعرفُ والد زوجته لكنه كان مخطئاً، إذ كان يخال نفسه بأنه يتحدث مع رجلٍ متردد يتخلى عن وعوده.

«هلم واقطع وعداً لسوزان أن تتخلى عن فكرة استقالتك من هذا المنصب!»
فنظر الراعي إلى ابنته، معتقداً في تلك اللحظة على الأرجح، أنه إذا كانت إيانور تشاركه القناعة في قراراته معه، فليس هناك داعٍ لأن يأخذ بالحسبان رأي ابنته الأخرى، وقال: «أنا متأكد أن سوزان لن تطلب مني أن أحتب بوعودي، أودُّ إصلاح ما أعرفُّ أنه باطل!»
«سيكون من الجنون أن تتخلى عن منصبك الرفيع يا أبي، كيف ستعيش؟»

«الله الذي يُطعم الغربان الصغيرة، سيعتني بي كذلك»⁷⁹

أجاب السيد هاردينغ مبتسماً، كما لو أنه يخشى الإساءة بإشارته إلى الكتاب المقدس على نحوٍ مُهيبٍ للغاية.

«أفّ» رد رئيس الشمامسة وهو يستدير سريعاً، «إذا استمرت الغربان في رفض الطعام المُعد لها، لن تأكل شيئاً»

بشكلٍ عام، يبغض رجل الدين أن يقابل أيّ خلافاتٍ بأيّ مُقتَبَسٍ من الأسفار المقدسة؛ فهو يشعر بالإهانة التي يشعر بها الطبيب عندما توصيه امرأةٌ عجوز بتناول جرعة دواء بانتظام، أو كما يشعر المحامي عندما يحاول رجل غير مهني إهانته في جدالٍ حول مغالطة قانونية.

فأشار الراعي بكل تواضع: «سأحيا حياة كرابتري»

«على ثمانين جنيهاً في السنة!» علق رئيس الشمامسة ساخراً

«وكمُرشد لجوقة المرتلين...»

«يسقط حقك فيها أيضاً...» أجاب الصهر، وكان السيد هاردينغ مستعداً لمناقشة هذه النقطة، وما إن شرع القيام بذلك، حتى قاطعه الدكتور غرانتلي.

«أيها الراعي العزيز، كل ما تقوله هراء! ثمانون جنيهاً أو مئة وستون لن تُحدث فرقاً كبيراً، لا يمكنك أن تعتاش على ذلك، كما لا يمكنك تدمير مستقبل إيلانور إلى الأبد. وفي حقيقة الأمر لا يمكنك أن تستقيل! لم يقبل الأسقف استقالتك؛ لقد حُسم الأمر برمته، ما أحاول فعله الآن هو وضع حدٍ لكلٍ ثرثرةٍ غير لائقة، ولكل المقالات الصحفية الأخرى!»

«وهذا ما أريده كذلك» أكد الراعي

«ولمنع ذلك، علينا ألا نسمح لأي حديث عن الاستقالة بالانتشار»

«لكنني سأستقيل...» أكد الراعي، بكل ما يملك من وداعة.

«يا للهول! سوزان، يا عزيزتي، ماذا عساي أن أقول له؟»

«لكن يا أبتى...» قالت السيدة غرانتلي وهي تنهض وتشبك ذراعها بذراع والدها

«ماذا ستفعل إيلانور إن تخليت عن مصدر رزقك؟»

وقفت دمعة حارة في عيني الراعي وهو يلتفتُ إلى ابنته المتزوجة. لماذا ينبغي لأخت غنية جداً أن تتبأ بالفقر لأخت أخرى؟ فكرة كهذه كانت تعتمل في ذهنه، لكنه لم يُبح بها. فخطر

في ذهنه بأن البجع يُغذي صغاره من دم صدره، لكنه لم ينبس بذلك أيضاً. فراح فكره إلى إليانور التي تنتظره في المنزل، تنتظره لتهنئته على نهاية كل عذاباته.

«فكر بإليانور يا أبي...»

«إنني أفكر بها حقاً»

«إذن لن تمضي قدماً في هذا القرار المتهور؟» وهنا تجاوزت السيدة حدود رباطة جأشها المعتاد.

«يستحيل أن يكون فعل الصواب فعلاً متهوراً يا ابنتي. سوف أستقيل من منصبتي هذا بدون نقاش»

«إذن يا سيد هاردينغ، ما من شيء ينتظرك سوى الفقر...» أفصح رئيس الشمامسة الذي تخطى حدود صبره وتابع: «الفقر لك وإليانور كلاهما، كيف تنوي أن تدفع النفقات الهائلة لهذه القضية؟»

فأرت السيدة غرانتلي أن التكاليف لن تكون باهظة نظراً إلى مسألة التنازل عن الدعوى القضائية.

«في الواقع ستكون مكلفة يا عزيزتي، لا يمكن للمرء أن يقابل المحامي العام حتى الساعة الثانية عشرة ليلاً بلا مقابل! ولكن والدك لم يفكر في ذلك طبعاً»

«سأبيع أثاثي...» قال السيد هاردينغ

«أثاث!» هتف الآخر بأشد النبرات احتقاراً

«هيا يا رئيس الشمامسة، لسنا مضطرين لأن نضع ذلك في الحسبان حالياً. أنت تعرف أنك لم تتوقع أن يدفع أبي التكاليف» تحدثت السيدة غرانتلي.

جاء رد رئيس الشمامسة الذي عاد يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً: «إن مثل هذه السخافة كافية لإثارة المسألة، والدك أشبه بطفل. ثمانمئة جنيه في السنة! ثمانمئة وثمانون وهو في البيت ما دون فعل شيء! إنه المنصب المناسب له! ثم يأتي ويتخلى عن منصبه لأن وغداً ما كتب مقالاً في صحيفة! حسناً، لقد أديت واجبي، إن اختار تدمير حياة ابنته، فليس بيدي حيلة!»

وقف رئيس الشمامسة ساكناً في مكانه أمام المدفئة، وراح ينظر لنفسه من خلال مرآة قدرة مثبتة على مدخنة المدفئة.

ساد الصمتُ المكانَ قرابةً دقيقةً، بعد ذلك، أدرك الراعي أن ما من شيءٍ آخر يُقال، فأشعل شمعته وقال بهدوء: «طاب مساؤكما».

«طاب مساؤك يا أبي» ردت عليه السيدة غرانتلي.

خرج السيد هاردينغ ولكن عندما أغلق الباب من خلفه، سمع هُتاف صهره المعروف «يا إلهي!»، على نحوٍ أخفض وأكثر أسيءً وثقلًا من أيِّ وقت مضى.

ويليام تشارلز ماكريدي (1793 - 1873)، ممثل مأساوي فيكتوري مشهور، اشتهر بلعبه لأدوار شكسبير

مقتبس ضمني من سفر المزامير، مزمور 147

الفصل التاسع عشر: الراعي يستقبل

التقى الثلاثة في صباح اليوم التالي على الإفطار. كان إفطاراً تُخَيَّم عليه الكآبة إلى حد كبير على عكس وجبات الإفطار في أسقفية بلومستيد. على مائدة الإفطار، هناك ثلاث قطع صغيرة رقيقة وناشفة من لحم الخنزير المقدد، طول كل قطعة منها بوصة واحدة، قُدمت تحت غطاء صحنٍ ضخم قديم ومطلي؛ كانت هناك أربع قطع متجاورة من الخبز المحمص الجاف، وأربع قطع مربعة الشكل من الخبز المُحَمَّص بالزبدة، رقيق خبز، وبعض الزبدة الدهنية، وعلى الجانب الآخر كان هناك بقايا لكتف بارد من لحم الضأن. لكن رئيس الشمامسة لم ينتقد مثل هذه التشكيلة من الأطعمة الرديئة كونه لم يأت من مسكنه في الأسقفية إلى فناء كنيسة القديس بولس كي يُسلي نفسه!

كان الضيوف مثيرين للشفقة بقدر أصناف الطعام. بالكاد تفوه أحدهم بحرف واحد على طاولة الإفطار. مضغ رئيس الشمامسة خبزه بصمت يُنذر بالسوء، وهو يُقلب الأفكار المريرة في أعماق عقله. حاول الراعي أن يوجه الحديث لابنته التي حاولت أن تجيب أباها لكنهما فشلا. لم تكن هناك مشاعر مشتركة بينهما في الوقت الحاضر. إذ كانت أفكار الراعي تدور حول العودة إلى بارچستر فحسب. ويحسب ما إذا كان رئيس الشمامسة يتوقع منه أن ينتظره، وكانت السيدة غرانتلي تعد نفسها لهجوم كبير من شأنها أن تشنه على والدها، على النحو المتفق عليه بينها وبين زوجها أثناء حديثهما التوبيخي في ذلك الصباح. حين خرج النادل من الغرفة ومعه آخر فنجان من فناجين الشاي، نهض رئيس الشمامسة وتوجه إلى النافذة وكأنه يُبدي إعجاباً بالمنظر، إذ كانت الغرفة مُطلّة على رواق ضيق يمتد من فناء كنيسة القديس بولس إلى شارع باترنوستر، فأخذ الدكتور غرانتلي يقرأ متمعناً بصبر أسماء أصحاب المتاجر الثلاثة ممن كانت مدخلُ أبوابهم على مر مى النظر. لزم الراعي مكانه على الطاولة وهو يتفحص نقوشات مفرش المائدة. أما السيدة غرانتلي، انزوت إلى أريكة، وبدأت بالحياكة.

وبعد فترة من الوقت، سحب الراعي جدول برادشو الزمني لقطارات السكك الحديدية من جيبه، وبدأ يكدّ في مراجعة المواعيد. كان ثمة قطار متجه إلى بارچستر في العاشرة صباحاً إلا أنه استبعده كون الوقت يقترب من العاشرة بالفعل. ثمة قطار آخر في الثالثة مساءً وهناك

قطار البريد الليلي في التاسعة مساءً. كان قطار الساعة الثالثة سيوصله إلى المنزل مع وقت تناول الشاي، وكان يناسبه كثيرًا.

«يا عزيزتي، سأعود اليوم الى البيت الساعة الثالثة. سوف أصل للمنزل في حدود الثامنة والنصف، أظن أن ما من شيء يبقيني في لندن»

«سنعود أنا ورئيس الشمامسة في القطار باكراً غداً يا أبي، ألا تنتظر وتعود برفقتنا؟»

«تتوقع إيلانور عودتي الليلة، ولدي الكثير لأفعله»

«الكثير لتفعله!» قال رئيس الشمامسة همساً إلا أن الراعي سمعه.

«من الأفضل أن تنتظرنا يا أبي»

«شكراً يا عزيزتي، أظني عائداً هذا اليوم!»

شرع السيد هاردينغ يكافح كي يشق طريقه الخاصة، حتى الحيوان الأليف ينقلب على صاحبه حين يعامله بقسوة.

«أظنك لن ترغب بالعودة قبل الثالثة؟» سألت السيدة مخاطبة زوجها

«ينبغي أن أرحل من هنا عند الساعة الثانية» أكد الراعي

«غير وارد على الإطلاق» قال رئيس الشمامسة مجيباً زوجته وهو مستمر في قراءة أسماء

أصحاب المتاجر، «لا أعتقد أنني سأعود حتى الخامسة»

وساد صمتٌ طويلٌ آخر، استمر خلالها السيد هاردينغ في قراءة جدولته.

«عليّ أن أزور كوكس وكامنز» اخترق صوت رئيس الشمامسة الصمت.

«أها، كوكس وكامنز!»

بالنسبة للسيد هاردينغ، لم تُشكل مسألة ذهاب صهره -إلى حيث يشاء- أهميةً تُذكر، إذ لم

يعد مكترباً، وألقابٌ مثل كوكس وكامنز لم تعد ذات وقع مؤثر على أذنيه. فما علاقته

بكوكس وكامنز بعد أن بت في دعواه مسبقاً بمحكمة الضمير؟ لقد أصدر الحكم دون سلطة

الاستئناف بالكامل، وحسم القضية حتى يعجز المحامون في لندن عن إثارتها. يمكن لرئيس

الشمامسة أن يذهب إلى كوكس وكامنز، وله أن يبقى هناك طوال اليوم يخوض نقاشاً مقلقاً؛

ولكن ما قد يُقال هناك لم يعد يهمه، هو الذي كان قاب قوسين أو أدنى من التنحي عن لقب

«راعي ماوى بارچستر»!

أخذ رئيس الشمامسة قبعته الدينية الجديدة اللامعة ، وارتدى قفازاته الدينية السوداء الجديد، فبدأ بهيئة رصينة محترمة، لائقة ومترفة، هيئة جلية تناسب قسيساً حازماً من كنيسة إنكلترا.

«أظنني سأراك في بارچستر بعد غد»، قال الدكتور غرانتلي وافترض الراعي ذلك أيضاً. «إن كنت لا تدين لي بشيء، فينبغي أن أطلب منك ألا تتخذ خطوات أخرى حتى تُقابل والدي...»

وبدا رئيس الشمامسة كما لو كان يعتقد أن له فضلاً كبيراً على السيد هاردينغ، «أنت مدين بالكثير لأبي، على الأقل»

ودون انتظار الرد، توجه الدكتور غرانتلي إلى كوكس وكامنز. انتظرت السيدة غرانتلي حتى سمعت اختفاء آخر خطوة من قدم زوجها، حين خرج من الساحة إلى فناء كنيسة القديس بولس، ثم بدأت مهمتها في التحدث مع والدها. بدأت تقول: «أبي، هذا قرارٌ بالغ الخطورة».

«هو بالفعل كذلك» أجاب والدها وهو يقرع الجرس «أشعر بوطأة الضغط النفسي الذي تكبدته يا أبي» «متأكدٌ من ذلك يا عزيزتي » قال الراعي وأمر النادل بإحضار قلم وحبير وورق. «هل ستكتب يا أبي؟»

«بلى يا عزيزتي، سأكتبُ استقالتي» «أرجوك يا أبي، أرجوك أن تؤجل ذلك حتى نعود، أرجوك أن تؤجلها حتى ترى الأسقف. أرجوك يا أبي، لأجلي ولأجل إيانور!» «من أجلكِ ومن أجل إيانور أفعل ذلك، آمل- على الأقل- ألا يشعرنَ بناتي بالخزي من والدهن»

«كيف تتحدث عن الخزي يا أبي؟!» وصمتت بينما دخل النادل حاملاً الأوراق ثم خرج ببطء مرة أخرى وواصلت: «كيف يمكنك التحدث عن ذلك؟ أنت تعرف رأي المعارف في هذه القضية!»

فَرَدَ الراعي ورقته على الطاولة، ووضعها على حامل الكتب الركيك المتاح في النُّزْل، وجلس ليكتب استقالته.

«أنتَ لا ترفض لي طلباً واحداً يا بابا، لن ترفض تأخير رسالتكَ لمدة يومين قصيرين. يومان لا يمكن أن يحدثا فرقاً ممكناً»

أجاب والدها بكل سداجة: «قد يمنعوني إن انتظرت حتى أعود إلى بارچستريا ابنتي»
«ولكن من المؤكد أنك لا ترغب في الإساءة إلى الأسقف؟»

«لا سمح الرب! إني لا أقصد الإساءة للأسقف بهذا القرار وهو يعرفني حق المعرفة ويعرف إني أصبر على أي شيء قد يدعوني للقيام به»
«لكن يا أبي...»

«سوزان، لقد حسمتُ قراري، لستُ ممن يتخذون موقفاً معارضاً على نحوٍ مجافٍ لمشورةِ أناسٍ مثل السَّير أبراهام هابهازرد ورئيس الشمامسة، لكن في هذه القضية لا يسعني الأخذ بأي نصيحة، ولا يمكنني تغيير القرار الذي جئت من أجله»

«لكن يومان يا والدي...»

«كلا، ولا حتى تأجيله. بوسعك أن تُضفي تعاسةً إلى تعاستي الآن بالضغط عليّ، غير أنك لن تتمكني من تغيير قراري؛ سيكون الأمر أسهل عليّ لو اعتبرت المسألة منتهية»

وغمس قلمه في دواة الحبر مركزاً عينيه بانتباه على الورقة. كان ثمة شيء في أسلوبه علّم ابنته بأن تُدرك أنه جادٌ. كانت قد سادت في فترة من الفترات في منزل والدها، لكنها تعرف بأنه ثمة لحظات يتخذ والدها قراراته الهامة حين يكون ودوداً ووديعاً، وتلك اللحظة كانت إحداها. لذلك عادت إلى الحياكة، وبعد وقتٍ قصير جداً، غادرت الغرفة.

أصبح للراعي الآن مطلق الحرية في كتابة رسالته، وبما أنها كانت سمة من سمات البشر، فيجب أن يكتبها بإسهاب كامل. وبما أن الرسالة الرسمية، التي، عند كتابتها بدت له أنها مُجافية جداً على نحوٍ رسميٍّ بحيث لا يمكن إرسالها بمفردها إلى صديقٍ عزيزٍ للغاية، قرر السيد هاردينغ أن يُرفقها بخطابٍ خاص؛ وكلاهما مدرج هنا.

جاء خطاب الاستقالة على النحو التالي:

نُزْل چابتر،

شارع كنيسة القديس بولس،

لندن،

أغسطس، ١٨...٠٠

قداسة الأسقف:

إنه لمن فائق حزني الشعور بأنني مُرغم على وضع استقالتي من منصب «راعي مأوى بارچستر» بين يديّ قداستك، المنصب الذي منحتني إياه منذ ما يقارب من اثني عشر عاماً من صميم قلبك. أرى أنه ما من داعٍ إلى توضيح الظروف التي جعلت هذه الخطوة تبدو ضرورية بالنسبة لي. إنكم على علم بأن شكوكاً قد أُثيرت فيما يتعلق بحق الراعي في الدخل المخصص له. وقد بدا لي أن هذه الأجور التي هي من حق الراعي غير مفهومة كما يجب، وأنا أخشى تحمُّل مجازفة تلقي أجورٍ يبدو ادعائي القانوني بها موضع شك! وكما تعلم سيادتكم، إن مكتب قائد جوقة المرتلين في الكاتدرائية مرتبط مع مكتب الراعي أي أن قائد جوقة المرتلين ظل راعي المأوى منذ سنوات عديدة، ومع ذلك، ما من شيء يجعل الصلة بين المكتبين ضرورياً، وما لم تعترض أنت أو كبير الكهنة أو أحد رهبان الكنيسة، أودُّ الحفاظ على وظيفتي كقائد لجوقة المرتلين، كون الدخل من هذه الوظيفة سيكون ضرورياً بالنسبة لي حقاً، لا أعرف لماذا أخجل من القول أنني سأواجه صعوبة في إعالة نفسي بدون منصب قائد جوقة المرتلين. كما ستلاحظ سيادتكم والأعضاء الآخرون ممن يمكنك التشاور معهم في هذه المسألة، إن استقالتي من منصب الراعي لا ينبغي أن تُشكّل عقبة أمام شغله من قِبَل شخص آخر. كل من تشاورت معهم في هذه القضية اعتبروني مخطئاً؛ ليس بحوزتي سوى نزعة داخلية وقناعة مطلقة تدفعني إلى هذه الخطوة، سوف يجرحني سماع افتراءات تُلقى على المنصب الرفيع الذي منحتني إياه بلطفك، فقط لأنني استقلتُ منه. وأنا، بأي حال من الأحوال، سأبحث عن خليفة لي قد تقوم بتعيينه، يتمتع بأعلى المقامات الكهنوتية احتراماً، ومن يقع عليه اختيارك، له حقٌّ في المنصب لا يمكن إلغاؤه.

لا يسعني أن أنهي هذه الرسالة الرسمية دون أن أشكر سيادتكم مرةً أخرى للطفكم الغامر كله، أتعهد بأن أبقى خادمك المخلص.

خادم سيادتكم المطيع، سيبتاموس هاردينغ،

راعي مأوى بارچستر وقائد جوقة المرتلين في كاتدرائية بارچستر.

ثم كتب الخطاب الخاص التالي:

عزيزي الأسقف:

لا يسعني أن أبعث إليك بالرسالة الرسمية المرفقة دون أن أعرب لك عن أسمي عبارات الامتنان على لطفك بما يليق بوثيقة قد تُنشر على الملأ إلى حد ما. أعلمُ بأنك سوف تتفهم هذا الشعور، ولعلك تشفق على العجز الذي جعلني أستقيل من المأوى، لستُ مخلوقاً ذا قلبٍ منيع بما فيه الكفاية لمواجهة مثل تلك الانتقادات العلنية. لو كنتُ متأكداً بأنني أقفُ على أرضية صلبة تماماً، لكنتُ بررتُ حصولي على ثمانمئة جنيه سنوياً بموجب وصية حيرام، ولكنك ملزماً بواجب الحفاظ على المنصب وإن كان نوع التهجم عليّ لا يُحتمل. ولكن بما أنني لا أشعر بهذا اليقين في داخلي، لا أصدقُ أنك ستراني مخطئاً فيما أفعله. وابتني في وقت من الأوقات، فكرة الاحتفاظ بجزءٍ معقول فقط من الدخل؛ لربما ثلاثمئة في السنة، وتحويل الباقي إلى الأمان؛ ولكن خطر ببالني - وأعتقد لسبب وجيه - أنني بذلك أضع خلفائي بالمنصب في موقف مهين، وأضر بدعمكم ضرراً كبيراً. يا صديقي العزيز، دعني أقرأ منك سطرًا في رسالة تقول أنك لا تلومني على ما أفعله، وأن مكانة القس المسؤول عن كرايتري بارفا ستكون نفسها في قلبك حين كان راعي المأوى.

أنا قلق جداً بشأن وظيفة مرشد جوقة المرتلين. يعتقد رئيس الشمامسة أن حقي سيسقط من هذه الوظيفة مع استقالتي من منصب الراعي! لكنني لا أعتقد، وبذلك لا يمكن الإطاحة بي. ومع ذلك، سأسترشد بك وبكبير الكهنة. لن تناسبني أي مهمة أخرى تماماً، أو تندرج ضمن حدود قدرتي على الأداء الوافي.

أشكرك من كل قلبي على هذا المنصب الذي أتنازل عنه الآن، وعلى لطفك الذي غمرتني به، وأنا اليوم كعهدي على الدوام، يا عزيزي الأسقف.

المخلص لكم،

سيبتموس هاردينغ،

لندن ١٨ ...

وبعد كتابة هذه الرسائل وعمل نسخة من الرسالة السابقة لرئيس الشمامسة، أدرك السيد هاردينغ، الذي يجدر بنا الآن التوقف عن تلقيه «راعي مأوى بارچستر»، إذ دعا نفسه بهذا اللقب للمرة الأخيرة، أن الساعة كانت حوالي الثانية، وأن عليه الاستعداد لرحلته. نعم، منذ

ذلك الوقت لم يعترف مرة أخرى بالمسمى الوظيفي الذي كان معروفاً به، ولقول الحقيقة، كان سعيداً أيما سعادة باتخاذهِ مثل هذا القرار.

حُب الألقاب شائع بين البشر كلهم. يسعد الشماس أو الراهب لو ترقى إلى سيادة رئيس الشمامسة أو نيافة راعي الكنيسة، كما يأمل الملازم بالحصول على رتبة النقيب، أو عامل يعمل في صنُع الشموع المستخلصة من الشحوم الحيوانية في أن يصير السَّيرجون في مناسبة زيارة الملكة لجسرٍ جديد⁸⁰. إلا أن الراعي لم يعد راعياً، ولقب «مرشد جوقة المرتلين» لا يُضفي علامةً فارقةً في حد ذاته؛ مع أن المنصب كان عزيزاً جداً عليه. وهكذا، عادَ صديقنا مرة أخرى «السيد هاردينغ»

كانت السيدة غرانتلي قد غادرتِ الغرفة، لذلك، لا يوجد من يعترض طريقه بتوسلات أخرى لتأجيل رحلته؛ ولكنه سرعان ما وضب حقيبته وسدد فاتورته، وترك رسالة لابنته، حيث وضع فيها نسخةً من رسالته الرسمية، ومن ثم، ركب سيارة أجرة ومضى صوب المحطة وهو يشعر بشيء من الظفر في قلبه.

ألم يكن هو مدعاةً لهذا النصر؟ ألم يُحقق نجاحاً باهراً؟ ألم يتمسك بقراره للمرة الأولى في حياته وتصدى لقرارات زوج ابنته وقاوم ببسالة ظروفاً قاهرة؟ ألم يقف بوجه زوجة رئيس الشمامسة ورئيس الشمامسة كذلك؟ أولم يحقق انتصاراً عظيماً؟ أولم يكن من حقه أن يستقل سيارة الأجرة منتصراً؟

لم يكن قد أخبر إيانور بموعد عودته، لكنها كانت تبحث عنه وتترقب وصوله في كل قطارٍ قد يأتي. كانت عربة المهر في محطة بارچستر عندما وصل القطار إلى رصيف المحطة.

«عزيزتي إيانور..» قال وهو يجلس بجانبها، بينما شرعت تقود عربتها الصغيرة إلى جانب واحد من الطريق لإفساح المجال للحافلات المزعجة أثناء مرورها من المحطة إلى المدينة.

«آمل أن تكوني قادرةً على الشعور بقدرٍ من الاعتزاز لقسيس كنيسة كرابتري»

«أبي العزيز! إنِّي سعيدةٌ جداً»

كان ثمة سلوانٌ محببٌ للنفس في العودة إلى البيت الدافئ، مع أنه كان ستركه عما قريب، وراحةً في إخبار ابنته بكل ما فعله وكل ما كان عليه فعله. لا بد أن يستغرق المرء بعض الوقت لينتقل من منزلٍ إلى آخر، إذ يستحيل إنهاء عمل راعي أبرشية كرابتري في غضون ستة

أشهر، أي ما لم يتسنَ وضع ترتيبات أخرى له. ومن ثم هناك الأثاث... معظم الأثاث يجب أن يُباع ليدفع للسَّير أبراهام هابهازرد مقابل البقاء حتى منتصف الليل معه أثناء مقابلته. كان السيد هاردينغ يجهل جهلاً عجبياً، الفواتير الواجب دفعها للمحامين، لم يكن لديه أدنى فكرة عن المبلغ الذي كان مدينًا به للحصول على استشارة قانونية، من العشرين جُنْيًا إلى الألفين! صحيحٌ أنه شخصياً لم يستعن بأيِّ محامٍ؛ صحيحٌ أنه لم يكن طرفاً راضياً على توظيف كوكس وكامنز أو السَّير أبراهام؛ لم يستشره أحدٌ في كل ذلك، كان رئيس الشمامسة قد تدبر كل هذا بنفسه دون أن يشك ولو للحظة أن السيد هاردينغ سيأخذ على عاتقه إنهاء الأمر بطريقته الخاصة. لو بلغت فواتير المحامي عشرة آلاف جنيه، لما كان بيد السيد هاردينغ شيء سوى دفعها، فهو لم يكن على استعداد للدخول في نقاش بأمور ديونه الشخصية. لم تتبادر المسألة إلى ذهنه قط، ولكن تذكر أنه يملك ما لا قليلاً عند المصرفي الخاص به، وأنه لا يسعه استلام موردٍ إضافي من المأوى بعد، وأن بيع الأثاث هو موردُه الوحيد.

«لن نبيع كل شيء يا أبي» قالت إليانور بنبرة مفعمة بالرجاء.

«لو كان الأمر بيدنا، لن نفعل ذلك يا حبيبتى. ينبغي أن نحظى بالقليل في كرايتري. لا شيء سوى النزر اليسير. ليس من الهين أن نواجه صعوبة الانحدار من الغنى إلى الفقر! وعلينا أن نتحلى بالثقة والشجاعة، وأن نتصدى لكل شيء يا نيلي» وهكذا أخذوا يخططان لنمط حياتهما المستقبلي، والأب يستأنس بفكرة أن ابنته ستتحرق قريباً من قيود هذا الفقر. وإليانور تعقد النية على أنه سيكون لوالدها قريباً في منزلها وسائل جاهزة للهرب من عزلة مسكن كرايتري.

عندما ترك رئيس الشمامسة زوجته ووالدها في نُزُل ومقهى «چابتر» ليذهب إلى السيدان «كوكس» و «كامنز»، لم يكن لديه فكرة واضحة عما كان عليه فعلة عندما وصل إلى هناك. فعندما يتعلق الأمر بالقانون، أو في القضايا التي تتطلب استشارة قانونية بأيِّ شكلٍ من الأشكال، يقصد الرجال محاميهم من غير ضرورة قصوى! وعند قيام الرجال بذلك، يميلون إلى وصف هذا الحضور بأنه إجباريٌّ تماماً ومزعجٌ إلى حد كبير. في المقابل، لا يرى المحامون داعياً لذلك على الإطلاق. كما إنهم يتفقون في الرأي بأنَّ لهذه الزيارات طبيعةً مكروهة. لأن الرجال المتورطين في قضيةٍ ما عادةً ما يرتبكون في العثور على ما يقولونه لرفاقهم المثقفين؛ فهم بشكلٍ عام يتحدثون بشيء عن السياسة، وشيء عن الطقس،

ويطرحون بضعة أسئلة بلهاء عن بدلاتهم، ثم ينسحبون بعد أن أمضوا نصف ساعة في غرفة انتظار صغيرة وقذرة بصحبة موظف مساعد مبتدئ، وعشر دقائق مع المحامين المعنيين. عندئذٍ ينتهي العمل الذي جاء من أجله السيد إلى لندن، قاطعاً على الأرجح، مسافة مئة وخمسين ميلاً. ومما لا شك فيه أنه سيتوجه لحضور مسرحية ويتناول عشاءه في نادي أحد رفاقه ويحظى بحرية العُزَّاب ومتعتهم لما يقارب ثلاثة أيام؛ ولن يستطيع على الأرجح أن يتدرب بحينه لمثل هذه المسرات كي يُقدمها سبباً لزوجته عن رحلته إلى لندن.

وعليه، فيا سيداتي المتزوجات، عندما تجدنَ أنَّ أزواجكنَّ مضطرون للالتحاق بمستشاريهم القانونيين على نحوٍ قاطع، فإن طبيعة المهام الواجب عليهم القيام بها هي عموماً من هذا القبيل!

لم يكن رئيس الشمامسة ليحلم بمغادرة لندن دون الذهاب إلى كوكس وكامنز؛ مع أنه ما من شيءٍ لديه ليقوله لهما. لقد انتهت اللعبة، وأدرك إدراكاً تاماً أن السيد هاردينغ لن يتراجع عن قراره في هذا الصدد، جُل ما تبقى من عمله في هذا الأمر هو دفع الفاتورة وغلق الحساب، وأعتقد أنه قد يؤخذ كأمر مفروغ منه، أنه مهما كان السبب الذي يجعل سيداً يزور مكتب محاميه، فهو لا يذهب إلى هناك لدفع فاتورته. ومع ذلك، فإن الدكتور غرانتي، في نظر السادة كوكس وكامنز، يمثل الراعي الروحاني لأبرشية بارچستر، كما يمثل السيد تشادويك السلطة الدنيوية، وبالتالي، كان رجلاً عظيم الشأن ليجعلاه يتجشم عناء انتظارهما نصف ساعة في حجرة موظفهما المساعد. ليس هناك داعٍ لأن نُصغيَ للأخبار الحزينة التي نعى فيها رئيس الشمامسة عجز موقف والد زوجته إلى السيد كوكس، ونهاية آمالهم في الفوز بالقضية برمتها. ولا نحتاج إلى تكرار مختلف التصريحات الممزوجة بالذهول التي تلقى الآخرون بها الأخبار المؤسفة. لم تنزل مأساةً من أي نوع، مع أن السيد كوكس - وهو رجل قصير وذو رقبة أشبه برقبة الثور إلى حد ما - كان على وشك الإصابة بسكتة دماغية عندما حاول لأول مرة أن ينطق تلك الكلمة القاتلة: «استقالة»!

فحاول السيد كوكس مراراً وتكراراً أن يؤكد لرئيس الشمامسة ضرورة تنبيه السيد الراعي إلى جنون القرار الذي كان على وشك القيام به.

«ثمانمئة جنيه سنوياً!» تحدث السيد كوكس

«ومن دون فعل شيء!» علق السيد كامنز بعد أن انضم إلى الحديث

«لا يملك ثروة شخصية على ما أعتقد؟» سأل كوكس
«ولا حتى شلن واحد!» أجاب كامنز وهو يهز رأسه

«لم أسمع عن حالةٍ من هذا القبيل في سنوات خبرتي كلها!» قال كوكس
«ثمانئة جنيه في السنة، ومنزل جميل كما قد يتمنى أي سيد أن يعلق قبعته فيه!» جاء رد
كامنز

«وحسبما أظن، ابنة عزباء!» قال السيد كوكس، بنبرة تشوبها الكثير من الجدية المنطوية
على مغزى. في حين راح رئيس الشماسية يتنهد فحسب مع كل كلمة ينطق بها كل واحدٍ
منهما وهو يهز رأسه، مُشيراً إلى أن حماقة بعض الناس فاقتْ حدود الخيال!
«سأخبركم بحلٍ قد يُرضيه...» تحدث السيد كامنز مبتهجاً، «سأخبرك كيف تنقذ
الموقف، فليبادل منصبه»
«كيف يُبادلُه؟» استعلم رئيس الشمامسة

«التبادل من أجل لُقمة العيش. ثمة سيدٌ من أبرشية بودينغديل، يدعى كفيرفل ⁸¹، في
رقبته اثنا عشر طفلاً، وسيكون مسروراً للحصول على منصب راعي المأوى. يبلغ وارد منصب
راعي أبرشية بودينغديل أربعمئة فقط لكن هذا من شأنه أن يُجنب المرء الهلاك من الفاقة،
سيحظى السيد هاردينغ بمنصب راعي أبرشية، وما زال بإمكانه أن يحتفظ بثلاثمئة أو ثلاثمئة
وخمسين جنيهاً!»

أرهف رئيس الشمامسة إليه السمع. كان يعتقد فعلاً أن هذه الخطة قد تفي بالغرض. واصل
كامنز حديثه: «ولربما تنكب الصحف على انتقاد السيد كفيرفل بشدة وكل يوم في الأشهر
السته المقبلة دون أن يكثر بحرف واحدٍ منهم!»
اعتمر رئيس الشمامسة قبعته، وعاد أدراجه إلى نُزله وهو يُقلب الفكرة في عقله. على أية
حال، سيدرس إمكانية توظيف السيد كفيرفل، فمن يُنجب اثني عشر طفلاً، من شأنه أن يفعل
أي شيء لمضاعفة دخله.

السير جون غيلبرت 1817 - 1897 واحداً من أشهر الرسامين وأكثرهم إنتاجاً في العصر الفيكتوري
Quiverfull: هناك إشارة ضمنية لمعنى كنية هذا الرجل وتعني جعبة مليئة بالسهم وهي حركة مسيحية إنجيلية مُحافضة
تشجع الإنجاب وترفض تحديد النسل وتعتبر الأطفال نعمة من الله وقد ورد ذكر ذلك في العهد القديم من سفر المزامير،
مزمو 127: مثلُ أبناء الشبيبة للرجل كمثل سهام في يد محاربٍ شديد البأس، طوبى لمن يملأ جعبته منهم.

الفصل العشرون: الوداع

في الصبيحة التي تلت عودة السيد هاردينغ، تلقى رسالة من الأسقف تفيض بكلمات المودة والتفهم والثناء.

«تعال لرؤيتي في الحال، أرجوك. لكي نتحدث بأنسب ما يكمن القيام به؛ أما بالنسبة للمأوى، فلن أقول كلمة لثنيك عن قرارك؛ لكنني أبغضُ فكرة ذهابك إلى كرابتري، على أي حال، تعال إليّ مباشرةً»

مضى السيد هاردينغ إليه في الحال، وجرت مشاورات سرّية ومطوّلة بين الصديقين العجوزين، إذ جلسا معاً طوال النهار الطويل، يرسمان الخطط للسيطرة على ردود أفعال رئيس الشمامسة، ولتنفيذ خططٍ صغيرة خاصة بهم، والتي عرفوا أنها ستواجه معارضةً بكامل ثقل سلطته. كان هاجس الأسقف الأول، بأنه لو ترك السيد هاردينغ يفعل ما يحلو له، فإنه سيعاني الجوع لا محالة! ليس بالمعنى المجازي الذي يجعل الكثير من السيدات والسادة يتضورون جوعاً على موارد تبلغ قيمتها من واحد إلى خمسمئة في السنة؛ لا يعني ذلك أنه سيُحرَم من المعاطف وكل ما يتعلق بالثياب والنيبذ ومصروفه الخاص، لكنه سيهلك تماماً بسبب المسغبة وافتقاره لأسباب العيش.

«كيف يمكن لإنسان العيش عندما يتخلى عن مصدر رزقه بالكامل؟» قال الأسقف محدثاً نفسه. ومن ثم بدأ الرجل الطيب المتواضع يفكر كيف يمكن إنقاذ صديقه من موتٍ بشعٍ وأليمٍ للغاية. كان اقتراحه الأول للسيد هاردينغ، أن يعيشا معاً في الأبرشية. إذ أكّد الأسقف للسيد هاردينغ تأكيداً فعلياً بأنه يحتاج قسيساً مقيماً آخر، ليس قسيساً شاباً عاملاً، بل قسيساً كهلاً دائماً؛ يتناول برفقته الطعام ويكرع كأساً من النبيذ معه، يتحدث عن رئيس الشمامسة، ويُحرّك النار. لم يذكر الأسقف كل هذه الواجبات طبعاً، لكنه ألمح للسيد هاردينغ لكي يفهم بأن هذه هي طبيعة الخدمة المطلوبة. لم يكن من الصعوبة بمكان أن يجعل السيد هاردينغ صديقه يفهم بأن هذا الاقتراح لن يناسبه، ذلك أنه لا يستطيع أن يتقيأ فضل الأسقف ثم يأتي ويتشبث بمائدته بكل ما أوتي من قوة، وبأنه لا يمكنه إفساح المجال للناس ليقولوا بأنه تخلى عن مصدر رزقه بكل سهولة لأن بإمكانه العيش عائلةً على شخصٍ آخر. ومهما بدا الأمر، نجح في التوضيح بأن هذا الاقتراح لن يُفلح معه. فكشف الأسقف عن خطةٍ أخرى

في جمعته. إذ ترك الأسقف في وصيته بعض الأموال لابنتي السيد هاردينغ، آخذاً بالحسبان أن السيد هاردينغ نفسه لن يأخذ مثل هذه المساعدة خلال حياته. وقد بلغ هذا الإرث ثلاثة آلاف جنيه لكل واحدةٍ منهما دون رسوم؛ فتوسل صديقه بأن يقبل المبلغ كهدية الآن.

«كما تعلم، سوف تحصل الفتاتان على نفس القدر من المال بعد رحيلك... وهما لن يكونا بحاجةٍ للحصول عليه عاجلاً... وبالنسبة للفائدة خلال حياتي، فهذا شيءٌ لا يستحق الحديث عنه. أملك ما يكفيني»

وبصعوبة بالغة وأسف عميق، رفض السيد هاردينغ هذا العرض أيضاً. كلا! كانت رغبته أن يعيل نفسه، مهما كان عوزهُ، لا أن يعيش على صدقات كل من هبَّ ودبَّ! كان من الصعوبة بمكان جعل الأسقف يفهم ذلك. كان من الصعب حمله على إدراك أن الخدمة الحقيقية الوحيدة التي كان بإمكان الأسقف تقديمها له هي استمرار صداقته الفريدة! ولكن في النهاية كان هذا ما حدث. على أية حال، فكر الأسقف بأن رفيقه سيأتي لتناول العشاء معه من وقتٍ لآخر، وإن رآه يعاني من الفاقة سيتولى أمره! أما بالنسبة لمنصب مرشد جوقة المرتلين، كان رأي الأسقف واضحاً بأنه يمكن الاستمرار في هذه الوظيفة دون الأخرى، وهو رأيٌ لا يختلف عليه أحد، وبالتالي استقر الأمر بين جميع الأطراف المعنية أن السيد هاردينغ ينبغي أن يظل مرشداً للمرتلين.

في اليوم التالي لعودة السيد هاردينغ، وصل رئيس الشمامسة إلى أسقفية بلومستيد وكله أمل في خطة السيد كامنز بشأن أبرشية بودينغديل والسيد كفيرفل. لذلك ذهب في صباح اليوم التالي إلى بودينغديل، وحصل على الموافقة الكاملة من قسٍ لعين بريام يُشبه بريام⁸²، كان يسعى جاهداً لإعالة زوجته المسكينة التي تُشبه هيكوبا والعديد من الأطفال من أمثال هيكتور على العائدات الصغيرة من مملكته الكنسية. لم يكن لدى السيد كفيرفل أدنى شك في مسألة الحقوق القانونية للراعي؛ وسيكون مرتاح الضمير لأبعد حدٍ فيما يتعلق بقبول الأموال التي يدرها عليه هذا المنصب؛ وفيما يخص صحيفة المشتري، فقد أكد لرئيس الشمامسة أنه لن يبالي البتة بأي أخبارٍ تنشرها الصحافة الدورية القذرة. بعد أن وُفق في مسعاه حتى ذلك الموقف، توجه رئيس الشمامسة إلى الأسقف ليحصل على موافقته؛ ولكن الدهشة أخذت منه مأخذاً عندما لاقى معارضة غير متوقعة. لم ير الأسقف أن هذا الحل سيُفي بالغرض.

«لن تفي بالغرض!، لِمَ لا؟» ولما رأى أن أباه متشبثٌ بقراره، كرر السؤال بنبرة أكثر حِدَّةً:
«لِمَ لا يا سيدي؟»

بدا سيادته مغتماً للغاية، وكان يتخبط في كرسيه، لكنه لم يستسلم؛ كان يتغلب عليه الظن بأن بودينغديل لن تجدي نفعاً للسيد هاردينغ، وهي مكان بعيد جداً عن بارچستر.
«أوه! بالطبع سوف يحظى بمنصب راعي الأبرشية»

اعتقد الأسقف كذلك، أن السيد كفيرفل لن يجدي نفعاً للمأوى بارچستر. إن مثل هذا التبادل لن يبشر بخير في مثل هذا الوقت؛ وعندما ألح ابنه عليه إلحاحاً شديداً، أخبره بأنه لا يخال السيد هاردينغ سيقبل بفكرة أبرشية بودينغديل تحت أي ظرف من الظروف.
«كيف سيعيش؟» سأل رئيس الشمامسة

أخبره الأسقف والدموع محبوسةً في عينيه، بأنه لا يملك أدنى فكرة بالمرّة كيف يمكن أن يواصل رفيقه الحياة. فترك رئيس الشمامسة والده، وانطلق قاصداً المأوى، غير أن السيد هاردينغ لم يستمع على الإطلاق لمقترح أبرشية بودينغديل. لم ترق له قط؛ إذ يدلُّ هذا الاقتراح على شراء منصب كهنوتي بطريقة غير شرعية - أو ما يدعى بالسيمونية - وكان من المرجح أن تصب هذه الفكرة على رأسه انتقادات أكثر صرامة من أي نقدٍ لاذع تلقاه حتى الآن. وهكذا رفض رفضاً قاطعاً أن يصبح راعي أبرشية بودينغديل مهما كانت الظروف.

غضب رئيس الشمامسة أيما غضبة، وأخذ يتحدث متبجحاً، وبدا أكثر تفاخراً؛ إذ قال شيئاً عن الاتكال والفقر، وتحدث عن المهام المترتبة على كل إنسان لكسب قوت يومه، وقدم تلميحات عابرة عن حماقات الشباب وضلال العمر، كما لو أن السيد هاردينغ كان يعاني من كليهما، وانتهى بإخباره أنه يعاني من كلاهما بالفعل! لأنه شعر بأنه لم يدخر جهداً لترتيب أمور والد زوجته على أفضل وأيسر وجه إلا وفعله؛ وأنه في الواقع أجهد نفسه بالبحث عن الحلول وتدبير الأمر بحيث لا يعود هناك حاجة إلى القلق من هذه المسألة. وكيف جازاه والد زوجته؟! لقد قابل نصيحته بالرفض؛ ولم يستخف به فحسب، بل تجنبه وارتاب به؛ وتخلي عنه وتجاهل حلوله تماماً، وكذلك السير أبراهام! الذي كان لديه سببٌ يحمله على معرفة بأنه استاء كثيراً مما حدث، ووجد أنه من غير المجدي أن يتدخل أكثر من ذلك، وأن عليه سحب يده من المسألة. وإذا لزمتهم أي مساعدة أخرى منه، بإمكانهم زيارته وسيساعده أن يمدَّ يد العون لهم من جديد. وهكذا غادر المأوى، ومنذ ذلك الحين لم يدخل المأوى إلى يومنا هذا.

إلى هنا يجدر بنا أن نودع رئيس الشمامسة غرانتلي. أخشى أنني وصفته في هذه الصفحات على نحوٍ أسوأ مما هو عليه؛ إلا أننا كنا معنيين بتتبع نقاط ضعفه وعيوبه وليس فضائله ومزاياه. لم نر منه سوى الجانب المتخاذل من الإنسان، وافتقرنا إلى فرصة تقديمه على أساسٍ صلب. أنه رجل مولع إلى حد ما بأهدافه، لا يأبه كثيراً بطريقة تحقيقها - أيًا كانت الطريقة وحتى أعز معارفه لا يجرؤ على إنكار ذلك.

صحيح أنه شديد التعصب فيما يتعلق بمصالحه، ليس متعنتاً فيما يتعلق بعقائده بل بثوبه الكهنوتي، وصحيح أن امتلاك مصادر دخل كبيرة هي رغبة عزيزة على قلبه، مع كل ذلك، فإن رئيس الشمامسة رجل نبيل وذو ضمير يقظ؛ ينفق أمواله بسخاء، ويقوم بالعمل الذي يقوم به بأفضل ما يستطيع؛ ويسعى لتحسين مستوى طبقة أولئك ممن يعيش بينهم. أما طموحاته، إن لم تكن عالية، فإنها كبيرة. ورغم أنه لم يكن قط رجلاً حازماً، بيد أنه يلتزم باستقامة السلوك من خلال ضرب أمثال عن المبادئ والعقاب على حد سواء. إنه ندي الكف مع الفقراء، مضياف للأغنياء، مخلص في مسائل الدين، كما أنه ليس منافقاً. رجل جاد لكن ليس صارماً. بشكل عام، رئيس شمامسة بارچستر هو رجلٌ ينفع أكثر مما يضر أحداً، رجل يتعين دعمه وتشجيعه مع أنه لربما يجب أن يخضع للرقابة أيضاً.

وعليه فإنه لمن دواعي أسفنا أن مسار روايتنا يتطلب منا ملاحظة جوانب عيوبه أكثر من مزاياه. لم يسمح السيد هاردينغ لنفسه لحظة واحدة من الراحة حتى تم تهيئة كل ما يلزم لأجل مغادرته المأوى. لعله من الضروري كذلك الإشارة إلى أنه لم يكن مرغماً على وجوب بيع جميع أثاثه، إلا أنه كان جاداً في نيته القيام بذلك، ولكن سرعان ما أُعلم أن ادعاءات السادة كوكس وكامنز لم تنص على اتخاذ أي خطوة إلزامية من هذا القبيل، إذ رأى رئيس الشمامسة أن من الحكمة استغلال التهديد بتكاليف المحامي لتخويف والد زوجته كي يحمله على الخضوع، لكنه لم يكن ينوي إثقال السيد هاردينغ بتكاليف لم تصب بأي حال من الأحوال في مصلحته. تم إضافة مبلغ الفاتورة إلى حساب الأبرشية، الذي كان في الواقع، يُدفع من جيب الأسقف، دون أي إدراك من جانب سيادته. قرر السيد هاردينغ أن يبيع قسماً كبيراً من أثاثه، كونه لا يملك وسيلة أخرى للتخلص منه؛ وتم بيع المهور والعربة، بموجب عقدٍ خاص، لخدمة سيده عجزوز غير متزوجة تسكن في المدينة.

استأجر السيد هاردينغ مسكنًا ريفيًا في بارچستر لسكنه الحالي، وراح ينقل إليه تلك الأغراض الضرورية للاستخدام اليومي: موسيقاه وكتبه وآلاته وكرسيه ذا المسندين الخاص به، أريكة إيلانور المفضلة ومنضدة الشاي خاصتها، وخزانة نبيذه وكذلك محتويات قبو النبيذ البسيطة. رغبت السيدة غرانتلي رغبةً شديدة أن تسكن أختها في قصر بلومستيد، إلى أن يصبح منزل والدها في كرابتري جاهزاً لها؛ لكن إيلانور - شخصياً - عارضت هذا الاقتراح معارضةً شديدة. لقد ألحّت السيدة غرانتلي على أختها عبثاً، من باب أن السيدة في مسكنٍ مستأجر تُكلف أكثر من الرجل، وأنه ينبغي، في ظل ظروف والدها الحالية، تجنب مثل هذه النفقات! غير أن إيلانور لم تضغط على والدها للتخلي عن المأوى حتى تعيش في قصر أسقفية بلومستيد ويعيش والدها بمفرده في مسكنه في بارچستر؛ كما لم ترَ إيلانور أنها ستعامل أباهما الرجل النبيل بإنصاف إذا دخلت إلى منزل لا يرغب هو بدخوله أكثر من منزل أي شخصٍ آخر في المقاطعة. لذا حصلت على غرفة نوم صغيرة تقبع خلف غرفة الجلوس، مباشرة فوق محلّ خلفي يعود للصيدلانيّ الذي كانوا سيشاركونه السكن. كان المكان يعبق بنوع من رائحة أوراق مُجففة لنبات السنا مخففٌ برائحة النعناع؛ لكن، على العموم، كان المكان نظيفاً ومريحاً.

حدّد يوم مغادرة راعي مأوى بارچستر السابق. كان سكان بارچستر في حالة من الحماس بأسرهم. وكانت الآراء متباينة إلى حدٍ بعيد حول مدى ملاءمة قرارات السيد هاردينغ. كان تجار المنطقة مثل العمدة والمجلس البلدي وأعضاء المجلس، وأيضاً معظم السيدات، يجهرون في مديحه، من قبيل أنه ما من رجلٍ مجبول على الشهامة والسخاء والاستقامة أكثر من السيد هاردينغ. غير أن الطبقة الراقية من سكّان البلدة، كانوا يفكرون بطريقةٍ مختلفة، لا سيما المحامون ورجال الدين، إذ قالوا بأن تصرفات السيد هاردينغ مهينة وتتم عن ضعف وأن السيد هاردينغ كشف عن عيبٍ يرثى له، في ولائه للعمل، وفي الشجاعة كذلك. وأن هذا التنازل عن المنصب لا بد أن يعود بضررٍ كبير، ولن يعود بالنفع إلا قليلاً!

في الليلة التي سبقت مغادرته، استدعى جميع نزلاء مأوى حيرام إلى غرفة جلوسه ليودعهم. كان على تواصلٍ دائم مع بونس منذ عودته من لندن، وكان قد بذل جهوداً شاقة في شرح سبب استقالته للرجل العجوز، دون التحامل على منصب خليفته بأي شكلٍ من الأشكال. التقى الآخرين كذلك بشكلٍ متكررٍ تقريباً، وقد سمع من معظمهم - على حدة - شيئاً من

تعايير الأسف لمغادرته؛ لكنه أرجأ توديعهم حتى الليلة الأخيرة. فطلب من العاملة اليوم أن تضع النيذ والكؤوس على الطاولة وأن تُرتب الكراسي في جميع أنحاء الغرفة. ثم أرسل بونس إلى كل فرد من الرجال ليطلب منهم المجيء وتوديع راعيهم السابق. وسرعان ما سُمعت وقع خطوات المسنين الذين يجرجرون أقدامهم على الدرب المفروش بالحصى ثم دخولهم القاعة الصغيرة، واجتمع الرجال الأحد عشر الذين سُمح لهم بمغادرة غرفهم.

«ادخلوا يا أصدقائي، ادخلوا...» صاح الراعي الذي كان ما يزال الراعي في تلك اللحظة،

«ادخلوا وتفضلوا بالجلوس»

فنهض وأمسك بيد أيبيل هاندي، الذي كان الأقرب منه، وقاد المتذمر الأعرج إلى كرسي. يتبعهما الآخرون بخطى وثيدة، العاجز، الأعرج، والأعمى، كل واحدٍ منهم يمشي على استحياء. يا للبوساء المساكين! من منهم سيسعد لو أنهم أدركوا السبب وراء كل ما يحدث! فاليوم، وجوههم الهرمة يغشيها الخزي، وكل كلمة طيبة من سيدهم كانت مثل جمرةٍ مشتعلة

على رؤوسهم. 83

عندما سمعوا الأخبار لأول مرة بأن السيد هاردينغ سيغادر المأوى، تلقوا الخبر بنوعٍ من الانتصار. كان رحيله كما لو كان فاتحةً للتوفيق. كان قد اعترف السيد هاردينغ بعدم حقه في المال الذي كانوا يتنازعون عليه؛ وبما أنه لا يخصصه، فإنه بالطبع يعود لهم. المئة جنيه في السنة لكل فرد منهم منها كانت في الواقع تتحول إلى حقيقة، وبات أيبيل هاندي بطلاً، أما بونس فهو متملقٌ وجبان لا يستحق الاحترام ولا الصُحبة.

لكن أبناء أخرى سرعان ما شقت طريقها إلى مجلس الرجال المسنين. إذ أُخطروا أولاً بأن الدخل الذي تخلى عنه السيد هاردينغ لن يؤول إليهم؛ وهذه الأخبار أكدها المحامي فيني. ثم أُبلغوا بأن مكان السيد هاردينغ سيشغله شخص آخر على الفور، وأن الراعي الجديد لا يعقل أن يكون رجلاً لطيفَ المعشر يعرفه الجميع؛ وأنه لربما يكون أقل رفقاً، ومن أولئك الذين يرتاب منهم الإنسان. ثم وصلتهم المعلومات المريرة التي تفيد بأنه منذ لحظة رحيل السيد هاردينغ، يجب بالضرورة سحب يومية البنسان، الهبة الخاصة للراعي السابق! وكان هذا نهاية كفاحهم الشديد، نضالهم من أجل حقوقهم، من أجل العريضة التي وقعوها، ومناقشاتهم، وآمالهم! من أجل إبدال خير من قادم المأوى وأفضل السادة براعٍ قد يكون سيئاً! وهكذا

خسروا يومية البنسان لكلّ رجل منهم! كلا! فبقدر ما كان الوضع مؤسفاً، فإنه لم يكن الأسوأ، أو تقريباً الأسوأ، كما سنقرأ بعد قليل.

«تفضلوا بالجلوس يا أصدقائي...أودُّ أن أخبركم شيئاً وأن نشرب نخب صحتكم، قبل أن أغادركم. تعال هنا يا مودي هنا كرسي من أجلك؛ أقبِلْ يا جوناثان كرامبل»
وشياً فشيئاً جعل الرجال يجلسون، إذ لم يكن مستغرباً بأن يظلوا متسمرين في نهاية الغرفة مخلوعي الفؤاد، بعد أن قابلوا كل هذه الطيبة الغامرة بجحودٍ شديد. جاء الجميع وآخروهم كان بونس الذي دخل بسُحنةٍ يعلوها الهم وخطىً بطيئةً، وجلس في مكانه المعتاد قريباً من الموقد.

عندما اتخذ الجميع مكاناً لهم، نهض السيد هاردينغ لمخاطبتهم وبعد ذلك وجد نفسه واقفاً على رجله في غير بيته، فجلس من جديد قائلاً:

«أصدقائي القدامى الأعزاء، تعرفون جميعاً أنني سأغادركم»

فعلت نوع من الهمسات هنا وهناك في الغرفة، لربما كان القصد منها الإعراب عن الأسف لمغادرته؛ لكنها لم تكن سوى همسات، ولعلها كانت تعني ذلك أو تعني شيئاً آخر. وأردف الراعي:

«نشَبَ مؤخراً شيءٌ من سوء التفاهم بيننا. لقد ظننتم، كما أعتقد، بأنَّ حقكم بما يتعلق في الوصية مغبون، وأن أموال المأوى لم يتم التصرف بها كما ينبغي. أما بالنسبة لي، فلا أجرؤ على القول كيف ينبغي تخصيص هذه الأموال، أو كيف ينبغي أن تُصرف، ولذلك فكرتُ بأنه حريٌّ بي الرحيل»

«لم نردُ مغادرة حضرتك قط» تحدث هاندي

«طبعاً أيها الموقر، لم نتخيل أن الأمر سيصل إلى هذا الحد، فعندما وقعتُ على العريضة... لم أوقع عليها لأنني...» تحدث سكوليت

«دع حضرتهُ يتحدث! ألا يمكنك ذلك؟» علق مودي

«لا، إني على يقين من أنكم ما أردتم مغادرتي، لكنني ظننتُ أنه من الأفضل أن أترككم. لستُ بارعاً في التعامل مع الدعاوى القضائية كما ترون جميعاً، وعندما بدا من الضروري أن

يزعزع نمط حياتنا الهادئ، قررتُ أنه من الأفضل مغادرة المأوى. لستُ غاضباً ولا مستاءً من أي أحدٍ في المأوى»

وهنا أطلق بونس بما يشبه التذمر، معبراً بوضوحٍ تام عن عدم موافقتِهِ. فكرر السيد هاردينغ كلامه بلهجةٍ أشد:

«لستُ غاضباً ولا مستاءً من أي رجل في المأوى. وإن أخطأ أي رجل منكم- وأنا لا أزعج بأن أحدكم قد اقترف خطأ- فإنه أخطأ بسبب اتباعه نصيحةً خاطئة. في هذا البلد، يحق للجميع البحث عن حقوقهم الخاصة والمطالبة بها، وأنتم لم تفعلوا أكثر من ذلك. وطالما كانت مصالحكم ومصالحهم مختلفة، لا أجرؤ على إسداءكم نصيحة بهذا الصدد؛ بيد أن العلاقة المهنية بيننا قد انتهت؛ ولم يعد دخلي معتمداً على صنيعكم، وبالتالي، بما إني مغادرٌ عنكم اليوم، أرى أن بمقدوري نصحكم...»

أعلن الرجال كلهم بأنهم من الآن فصاعداً سيسترشدون تماماً برأي السيد هاردينغ في شؤونهم.

«سيدٌ ما سوف يحلّ مكاني في المأوى عما قريب في الغالب، أنصحكم من كل قلبي أن تكونوا مستعدين لاستقباله بقلبٍ يفيض لطفاً، وألا تطرحوا أسئلة أخرى فيما بينكم عن مقدار دخله! فإن نجحتم في إنقاص ما يناله من أموال، لَنْ تزداد بذلك رواتبكم الشخصية، لن يؤول الفائض إليكم! احتياجاتكم متوفرة كما ينبغي، وموقفكم بالكاد يمكن تحسينه»

«فليبارك الرب حضرتك، نحن نعلم ذلك...» علق سبرينغز

«كل ما قلته صحيح... الآن أدركنا ذلك تماماً» استطرد سكولبيت

فنبس بونس للمرة الأولى قائلاً: «نعم يا سيد هاردينغ، لقد أدركوا ذلك الآن، بعدما دفعوا سيداً يعيش معهم تحت السقف نفسه على المغادرة، سيداً لن يعرفوا له مثيلاً على الإطلاق. إنهم الآن، كمثل من هو في حاجة ماسة إلى صديق!»

«اقرب يا بونس، هيا اقرب...» صاح السيد هاردينغ وهو يتمخط ويتحایل ليمسح عينيه في الوقت ذاته.

«فيما يتعلق بكلام بونس، ما من أحدٍ منا أراد يوماً إيذاء السيد هاردينغ، وإن كان سيرحل، فهذا ليس بسببنا، ولا أرى ما قاله السيد بونس عنا بهذه الطريقة، يُمثلنا» تحدث هاندي

«لقد دمرت حياتك، ودمرتني أيضاً! وهذا هو مدعاة...» رد بونس
«هراء يا بونس! ما من أحدٍ منكم دُمرَ على الإطلاق. أرجو أن تسمحوا لي بأن أُغادركم
جميعاً وأنتم أصدقاء، وأتمنى أن نشرب كأساً من النبيذ بمشاعر ودية. سوف تجدون في
راعيكم الجديد صديقاً طيباً لا محالة. ومع ذلك، إن احتجتم لصديقٍ آخر فأنا لستُ ببعيدٍ
عنكم ولا بد أن ألتقيكم في بعض الأحيان»

وبعد أن أنهى خطابه، ملأ السيد هاردينغ الكؤوس كلها، وراح يقدم بيده لكل رجل من
الرجال المحيطين به كأساً، ثم رفع كأسه قائلاً:

«فليبارككم الله فرداً فرداً، أتمنى لكم الخير من كل قلبي وأتمنى، أن تعيشوا قنوعين
وتموتوا وأنتم مؤمنون بالسيد المسيح! فليبارككم الرب يا أصدقائي»

ومرة أخرى ارتفعت همساتٌ أكثر وضوحاً من الأولى إلى حدٍ ما، وجالت حول حلقة
الرجال، وهذه المرة كان المقصود منها ضمناً مباركة السيد هاردينغ، لكن كان يسودها شيءٌ
من المشاعر الودية. يا للمسنين المساكين! كيف يسعهم أن يكونوا ودودين، وضمائرهم
موجوعةٌ ووجوههم مسريلةٌ بالخزي مما فعلوه؟! كيف لهم أن يطلبوا من الرب أن يباركه
بأصوات نابعة من القلب، مباركةً حقيقية، وهم يعلمون أن عصابتهم الدنيئة طردته من بيته
السعيد شر طردة ونفته في شيخوخته ليجث عن مأوى تحت سقفِ بلدةٍ غريبة؟ لكنهم بذلوا
قصارى جهدهم؛ شربوا نبيذهم، وغادروا.

أثناء خروجهم من قاعة الجلوس، صافح السيد هاردينغ كل فردٍ منهم، وتحدث إليهم
بكلماتٍ رحيمة عن قضاياهم وأمراضهم؛ وهكذا مضى كل عجزٍ منهم وهم يجيبون على
أسئلته بأقل عدد من الكلمات، منكفين إلى مساكنهم، مثل بحارةٍ عابسين ونادمين.

رحل الجميع ما عدا بونس الذي ظل لتوديعه شخصياً.

«بقي بيل العجوز المسكين» قال السيد هاردينغ «لن أرحل قبل أن أتحدث معه؛ تعال معي
يا بونس وأحضر النبيذ معك» وهكذا مضى قُدماً صوب مساكن الرجال، ووجدا الرجل
العجوز طريح فراشه كالمعتاد.

«لقد جئتُ لأودعك يا بيل» قال السيد هاردينغ متحدثاً بصوتٍ عالٍ لأن العجوز كان
أصماً

«إذن أنت مُغادرٌ حقاً؟»

«نعم بالطبع، وقد أحضرتُ لك كأساً من النبيذ؛ حتى نفرق كأصدقاء كما عشنا»
أخذ الرجل العجوز الكأس التي قدمها راعيه بيديه المرتعشتين، وعبّ النبيذ بكل لهفة.
«باركك الله يا بيل، وداعاً يا صديقي العجوز»
«هل سترحل حقاً؟» سأل بيل مجدداً
«حقاً يا بيل»

ما فتئ المخلوق المسكين طريح الفراش يحتفظ بيد السيد هاردينغ في يديه، فخيل للراعي أنه أحس بشيء من دفء المشاعر في واحد من بين جميع رعاياه ممن كان أقل ما من يمكن توقعه منه؛ ذلك أن بيل المسكين كان قد عمّر تقريباً أكثر من المشاعر الإنسانية كلها مجتمعةً.
«وحضرتك...» قال أعقبه بصمت مؤقت. في حين كان رأسه المشلول الهرم يهتز على نحوٍ مريع، وخداه الذابلان يغوصان عميقاً أسفل فكيه، وعيناه المحدقتان تبرقان بلمعةٍ خاطفة؛
«وهل سنحصل على المئة جنيه في السنة إذن؟»

يا لحنان السيد هاردينغ وهو يحاول أن يُطفئ الأمل الكاذب بالمال الذي أذكاه بشكلٍ يدعو للأسى لزعزعة سلام هذا الرجل المُحتضر! أسبوع آخر وسينتقل إلى جوار ربه، أسبوع واحد وسيقبض الله روحه، ويرفعها إلى أجلها المحتوم الذي لا رجعة فيه؛ سبعة أيام شاقّة بلياليها من الهُمود الذي لا معنى له، وسينتهي كل شيء بالنسبة لبيل المسكين في هذا العالم؛ ومع ذلك، أخذ يُطالب بحقوقه المالية بصوتٍ يمكن سماعه بصورةٍ واضحة، مؤكداً أنه الوريث المناسب لهبة جون حيرام! عبء مثل هذه الخطيئة، لا تحملها مثله أيها المُذنب المسكين!

عاد السيد هاردينغ إلى قاعته يرافقه بونس، وهو يفكر ملياً بما رآه والأسى يحز في نفسه. لن نصيف فراق هذين الرجلين الطيبين، لأنهما كانا صالحين. عبثاً أخذ يحاول الراعي السابق أن يمد قلب الرجل العجوز بالمواساة؛ إذ شعر بونس المسكين أن أيام الطمأنينة قد ولت، كان المأوى بالنسبة له مسكناً يملؤه الحبور، غير أنه لم يعد كذلك بعد الآن. كان يحظى بالاحترام والصحبة هناك. كان يعرف سيده حق المعرفة، ويعرفه الجميع. احتياجاته متوفرة كلها مادياً ومعنوياً. كان رجلاً سعيداً. لقد بكى العجوز حُزناً وهو يودع رفيقه، لقد ذرف دموعاً مريرة.

«لقد انتهى كل شيء بالنسبة لي في هذا العالم،» قال، وهو يمارس الضغطة الأخيرة على يد السيد هاردينغ؛ «عليّ الآن أن أسامح من جرحني، وأن أموت»

مضى الرجل العجوز وعندها، استسلم السيد هاردينغ لحزنه وبكى بصوت عالٍ.

آخر ملوك طروادة، تزوج من هيكوبا وأبّ للعديد من الأطفال، من بينهم هكتور الأعظم بين محاربي طروادة. يقتبس ترولوب هذا المثل من الكتاب المقدس، سفر الامثال ٢٥: ٢٢ وجاء فيه: «إن جاع عدوك فأطعمه خبزاً، وإن عطش فأسقه ماءً، فإنك تجمعُ جمرًا على رأسه والرب يجازيك» وفي هذا إشارة إلى كون بعض نزلء المأوى نادمين أشد الندم، على وقوفهم موقفًا مناوئًا تسبب في مآل راعيهم الطيب لهذا المآل، هو الذي يقابلهم بلطفٍ ومحبةٍ دائمًا.

الفصل الواحد والعشرون: الختام

انتهت القصة، ولم يتبقَ أمامنا إلا أن نجمع خيوط الأحداث المتفرقة لحكايتنا القصيرة ونعقدهم في حبكة جديرة بها. ولن يكون ذلك عملاً شاقاً، سواء بالنسبة للمؤلف أو لقُرَّائه. فليس علينا التعامل مع العديد من الشخصيات، أو مع الأحداث المثيرة، ولولا أن يمس ذلك التقاليد المتعارفة، فقد نترك الأمر لمخيلة القُراء والقارئات ليتوقعوا كيف رُتِبَتِ الأحداث في بارچستر.

في الصباح التالي لليوم الأخير، خرج السيد هاردينغ في ساعة مبكرة من المأوى، تتأبط ابنته ذراعه، وجلس لتناول الإفطار في مسكنه فوق متجر الصيدلاني بهدوء. لم يسر في إثر رحيله موكب استعراضي؛ لم يكن هناك أحد، ولا حتى بونس، ليشهد مغادرته. لو أنه توجه إلى الصيدلي في وقت مبكر للحصول على قطعة من اللصقة الملكية⁸⁴ أو علبة حبوب دوائية، لما فعل ذلك مع أقل وجودٍ لحركةٍ ملحوظة. كان ثمة دمعة محبوسة في عين إيانور عندما عبرت من البوابة الكبيرة مروراً بالجرس. إلا أن السيد هاردينغ مشى بخطى مرنة، ودخل مسكنه الجديد بملامح جذلة.

«والآن يا عزيزتي، كل شيء جاهز وتحت يدك، يمكنك صنع الشاي هنا بأشهى ما يكون كما في غرفة الجلوس في بيت المأوى»

خلعت إيانور قلنسوتها وأعدت الشاي. بعدئذٍ، أتم الراعي السابق إجراءات الانتقال السريع، وغير مكان إقامته. ولم يمضِ وقت طويل حتى زار رئيس الشمامسة أباه لمناقشة مسألة تعيين راع جديد. كان بالطبع ينظر إلى الموضوع على أنه أمرٌ يعنيه شخصياً وكان في باله ثلاثة أو أربعة مرشحين لائقين بالمنصب، إذ أدرك أن خطة السيد كامنز فيما يتعلق بسكن بودينغديل لا يمكن أن تُطبق.

كيف لي أن أصفِ الدهشة التي أوقعته في الحيرة، عندما أكّد والده أنه لن يعين خلفاً للسيد هاردينغ؟

«إذا تمكنا من تسوية المسألة، سيعود السيد هاردينغ،» قال الأسقف،

«وإذا لم نستطع، ستكون مشكلةً لو وضعنا أيّ رجلٍ مُحترمٍ آخر في مثل هذا الموقف القاسِ»

وراحَ رئيسَ الشمامسة يناقش ويخطب بل ويهدد، دون جدوى! عبثًا راحَ يُمجّد والدهُ المسكين في أسوأ حالاته المزاجية، وعبثًا كان يهتفَ عاليًا «يا إلهي!» بنبرةٍ من شأنها أن تهزّ مجمع كنسيّ كامل، فما بالكم بأسقفٍ وحيد، معتلٍّ ومسن. لا شيء يمكن أن يقنع والده بملء فراغ المنصب الذي تنازل عنه السيد هاردينغ.

وحتى جون بولد كان ليشفق على المشاعر التي عاد بها رئيس الشمامسة إلى بلومستيد! فالكنيسة كانت في طريقها إلى الانهيار، بل كانت في حالة خراب! وشخصياتها البارزة تستسلم دون نضال، قبل ضربات خصومها! وأحد أكثر أساقفتها احترامًا، والده، الرجل الذي يعتبره العالم بأسره خاضعًا لسيطرة الدكتور غرانتلي، قرر أن يكف عن المقاومة وأن يقهر ذاته! كيف كان وضع المأوى في ظل هذه الصرامة من زائره؟ على أسوأ ما يكون بالتأكيد! لقد انقضت سنوات عديدة منذ أن غادره السيد هاردينغ وبيت الراعي ما زال بلا مستأجر.

مات العجوزان بيل وبيلي غازي، أما سبريغز الأعور، أخذ يشمل حتى هلك، ومات ثلاثة آخرون من الاثني عشر رجلًا وقاموا بدفنهم في مدفن الكنيسة. مات ستة منهم، والمسكن الخاوية الستة ما تزال خاوية! نعم، لقد مات ستة أشخاص، دون أن يرافقهم صديقٌ طيبٌ يواسيهم في لحظاتهم الأخيرة، وبلا جارٍ ثري يُقدم لهم وسائل الراحة ويخفف من سكرات الموت. صراحةً، لم يتخلل السيد هاردينغ عنهم، لقد غمرهم بالسلوان الذي من شأن أيّ مُحترض أن يتلقاه من أبيه الكنسي؛ ولكن ما كان يُسرّي عن قلوبهم في بعض الأحيان، هي الطيبة العرضية لشخصٍ غريب وليس حضورًا متواصلًا لسيد أو جارٍ أو صديق. أما من بقي منهم، فلم يكن حالهم أفضل من أولئك الذين ماتوا. إذ تصاعدت وتيرة الخلافات فيما بينهم، والتنافس على الامتيازات. وشيئًا فشيئًا، بدأوا يُدرِّكون أنه عما قريب، سيكون رجلًا منهم هو الرجل الأخير... شخصٍ لعينٍ منهم سيظل وحيدًا هناك في ذلك المأوى الذي بات قابضًا للصدر، الأثرُ البائس لما كان من قبل مكانًا مُريحًا يبعث على البهجة.

لم يسمح السيد تشادويك لمبنى المأوى نفسه بأن يؤول إلى خراب. فهو ما برح يتولى الإشراف، ويدفع الإيجارات المستحقة إلى حساب مفتوح في مصرف لهذا الغرض، ويحرص على كل شيء! لكن المكان بأكملة انقلب وأصبح مظهره قبيحًا لا يسر الناظر إليه. باتت

حديقة الراعي قفر على نحوٍ يُرثى له، الطرق والممرات مغطاة بالحشائش، منابت الزهور عارية، وباتت المروج غير المُشذبة كتلة من الأعشاب الطويلة الرطبة والطحالب الضارة.

تلاشى جمال المكان وذوى سحر جاذبيته. واحسرتها! منذ سنوات قليلة مضت، كان أجمل بقعة في بارچستر، أما اليوم، فقد باتَ وصمةً عارٍ على البلدة. لم يرحل السيد هاردينغ إلى كرابتري بارفا، إذ تم الاتفاق على احترام عزة السيد سميث وعائلته السعيدة، ووضعوا في يد السيد هاردينغ حيازة منزلٍ صغيرٍ داخل أسوار المدينة، وهي أصغر أبرشية متوفرة، تضم جزءاً من حرم كاتدرائية وبعض المنازل العتيقة المجاورة. كانت الكنيسة عبارة عن مبنى استثنائي صغير، قوطي الطراز، لها مدخل يتم من خلاله الوصول إلى الحرم الكنسيّ ومنه إلى سلالم مبنية من أدراج حجرية تقود إلى مدخل بوابةٍ مقوَّسٍ. إنها بمساحة لا تتجاوز مساحة غرفة عادية، لربما يبلغ طولها سبعة وعشرين قدماً وعرضها ثمانية عشر قدماً، ولكنها ما تزال كنيسة مثالية، فهي تحتوي على منبرٍ وعظٍ قديمٍ ومنقوش، مقراً للترتيل، ومذبحٍ صغيرٍ جداً أسفل نافذة ذات زجاج غامقٍ وقديم، جُرن المعمودية، وحوالي ستة مقاعد خشبية طويلة، ولربما عشرة كراسٍ مخصصة للفقراء، وغرفة المقدمات وملابس الكهنة كذلك. السقفُ عالٍ مبنِيّ من خشب البلوط الأسود القديم، والعوارض الثلاثة الكبيرة التي تسندهُ تصلُ إلى الحيطان الجانبية، وتنتهي إلى وجوهٍ منحوتة بشكلٍ بشع: شيطانان وملاك من جهة، ملاكان وشيطان على الجهة الأخرى. هذه هي كنيسة سانت كوثبرت في بارچستر، والتي أصبح هاردينغ راعيها بمُرتبٍ ثابتٍ مقداره خمسة وسبعون جنيهاً في السنة، حيث يؤدي قُداس ما بعد الظهر كل يوم أحد، ويقدم القربان المقدس مرة كل ثلاثة أشهر. كان أتباعه معدودين؛ لأنه لم يكن بوسعه استيعاب عددٍ أكبر من الحضور، وإنما ما يكفي لملء المقاعد الخشبية الستة. على الكرسي الأمامي من الكراسي المخصصة للمُعَدِّمين، نرى صديقنا العجوز السيد بونس موجوداً على الدوام، مشتملاً برداء النُزلاء. ما يزال السيد هاردينغ مرشد المرتلين في بارچستر. وقلما يُفوت أولئك الذين يحضرون قُداس صباح الأحد متعةً سماعه وهو يتلو الابتهالات، حيث لا يمكن لأي رجلٍ آخر في إنكلترا القيام بذلك مثله.

لم يضمّر السيد هاردينغ بداخله حقداً على أحد، ولم يكن محزوناً؛ ما يزال يعيش في المسكن الذي استأجره بُعيد مغادرة المأوى بأيام. وبعد ثلاثة أشهر من ذلك الوقت، أصبحت إيلانور «السيدة بولد» وانتقلت للعيش في منزل زوجها طبعاً.

لقد واجه الزوجان بعض المتاعب التي كان لا بد أن يتجاوزاها في يوم عقد قرانهما. لم يستطع أحد إقناع رئيس الشمامسة بتزيين الحفل بحضوره، إذ لم يتمكن بعد من تخطي مشاكله بهذه السرعة، لكنه سمح لزوجته وأطفاله بالتواجد هناك. تم عقد الزواج في الكاتدرائية، وأشرف الأسقف بنفسه على ذلك. وكانت هذه هي المناسبة الأخيرة التي فعل فيها ذلك؛ وعلى الرغم من أنه ما يزال على قيد الحياة، فمن غير المحتمل أن يفعلها مرة أخرى. ولم يمض وقتاً طويلاً على الزواج، لربما ستة أشهر، حتى بدأت مظاهر الاحتفاء بالعروس إليانور تتلاشى، وبدأ الناس ينادونها السيدة بولد دون المزيد من الأقاويل، عندئذٍ وافق رئيس الشمامسة على لقاء جون بولد في حفل عشاء، ومنذ ذلك الحين أصبحا صديقين تقريباً. يؤمن رئيس الشمامسة إيماناً راسخاً بأن عديله كان مثله مثل أي أعزب، كافرٍ وغير مؤمن بالحقائق العظيمة في ديننا؛ لكن ذلك الزواج فتح عينيه، كما فتح عيون الآخرين. ويميل بولد بنفس القدر إلى الاعتقاد بأن الزمن كان سبباً في تليين الطباع الصلبة في شخصية رئيس الشمامسة. ورغم أنهما صارا صديقين، غير أنهما لم يعودا إلى مسألة نزاعات المأوى كثيراً!

وكما ذكرنا، لم يكن السيد هاردينغ رجلاً تقيساً. إنه يحرص على العيش بمسكنه، غير أن المكان ليس بذی فائدة تُذكر بالنسبة له، مع أنه المكان الوحيد على الأرض الذي يدعوه بمسكنه. فهو يقضى وقته بشكل رئيسي في منزل ابنته أو في الأبرشية؛ وهو لا يُترك وحيداً بالمرّة حتى لو أراد ذلك. وفي غضون اثني عشر شهراً من زواج إليانور، تخلى عن قراره بالعيش في مسكنه الخاص وترك المسكن وانتقل إلى منزل ابنته. حتى أنه وافق على نقل التشيلو خاصته إلى منزل ابنته بشكلٍ دائم. كان الأسقف يبعث إليه برسالة له كل يوم:

«إن صاحب الغبطة والنيافة، قداسة الأسقف ليس على ما يرام اليوم، وهو يرجو أن يتناول السيد هاردينغ العشاء معه، مع أطيب التحيات»

ومثل هذه الأخبار التي تحملها رسائل الأسقف العجوز عن سوء صحته ليست سوى خرافة، فهو على الرغم من أنه تجاوز الثمانين عاماً، إلا أنه لا يمرض أبداً، قد يموت ذات يوم، مثلما ينطلق الشرر، خفيفاً ومن دون معاناة. وبالفعل يذهب السيد هاردينغ لتناول العشاء معه في كثير من الأحيان، وهذا يعني الذهاب إليه عند الثالثة بعد الظهر والبقاء حتى العاشرة ليلاً. وعندما لا يلبي السيد هاردينغ دعوته، يبدأ الأسقف بالتذمر، ويزعم بأن نبذ بورت فاسد

له طعم الفلين، ويشكو من أن أحداً لا يزوره، ويستشيط غضباً، ثم يأوي لفراشه قبل ساعة من وقته المحدد.

لقد مر زمن قبل أن ينسى أهل بارچستر مناداة السيد هاردينغ بلقبه المعروف منذ زمنٍ طويل: «الراعي». إذ كان من المعتاد جداً أن يناديه الآخرون بالسيد الراعي، حتى أنه لم يكن من السهولة بمكان موت هذا اللقب. وحين يخاطبه أحدهم به، لطالما يُجيبه على هذا النحو: «لا، لم أعد راعي المأوى، إنني مرشدُ جوقة المرتلين فحسب!»

النهاية

قماش مغطى بمادة لاصقة ويستخدم لتغطية الجروح أو الخدوش على الجلد